

المكتبة
التاريخية

مذكرات جبران خليل

القديس لوبس

حياته وحملاته على مصر والشام

ترجمة وتعليق
الدكتور حسن حبشي

الطبعة الأولى

١٩٦٨



دارالمغارف بمصر

مذكرات حيوانفيل

القديس لويس

حياته وحملاته على مصر والشام

ترجمة وتعليق
الدكتور حسن حبشي

الطبعة الأولى

١٩٦٨

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ - كوريش النيل - القاهرة - ج ٥٠ ع ٢٠

فهرست الترجمة العربية

لكتاب القديس لويس

١	مقدمة الترجمة العربية
٢٥	حياة القديس لويس
٢٥	الإهداء وتقسيم الكتاب

الكتاب الأول

٣٢	فضائل القديس لويس
٣٦	تقديره للفقراء
٣٨	رأيه في ملابس الناس
٤٠	تحذير الرب وتحويله إلى خير
٤٢	رأيه في العقيدة
٤٣	وليم أسقف باريس
٤٥	إيمان دى مدنقرت وعدم جدوى مجادلة اليهود
٤٧	تقواه وعدله في بلده
٤٨	كيف حقق العدالة
٤٩	رفضه طلب الأساقفة الجائر
٥١	استقامة لويس

الكتاب الثاني

٥٣	ميلاد القديس لويس وتنويجه
٥٨	حملة ريتشارد قلب الأسد
٥٩	مهاجرة البارونات لكونت تيبو

٦٢	دفاع والد جوانفيل عن تروى والسلم بين ثيبو وملكة قبرص
٦٧	عقد محكمة في سومير ١٢٤١
٧١	معركة تيلبورج ١٢٤٢
٧٣	استسلام كونت دي لامارش
٧٤	مرض لويس ١٢٤٤
٧٦	جوانفيل يرحل مع الحملة الصليبية
٧٨	كاهن يقتل ثلاثة جنود
٨٠	جوانفيل يترك قلعته
٨١	تحرك الصليبية في أغسطس ١٢٤٨
٨٣	وفادة النار ودخول جوانفيل بخدمة الملك
٨٦	وصول إمبراطورة القسطنطينية إلى قبرص
٨٨	سلاطين الروم وأرمينيا ومصر
٩٠	مغادرة الجيش لقبرص ١٢٤٩
٩٢	ب التآهب للرسو بمصر
٩٤	ب رسو الصليبيين أمام المسلمين
٩٥	ب لويس يحتل دمياط
٩٧	ب غلطة لويس وقوض الصليبيين
٩٩	ب مهاجمة المصريين للعسكر وموت ولتر أوترخ
١٠١	ب تعاودة الهجوم على المسلمين والملك يقرر انتظار مجيء كونت بواتييه
١٠٣	ب الجيش يشرع في زحفه
١٠٤	ب نهر النيل

١٠٦	• • • • •	س بناء جسر على النهر
١٠٨	• • • • •	س صد هجوم المسلمين
١٠٩	• • • • •	✓ النار الإغريقية تقذف الأبراج التي تحمى الطرق المقفلة
١١١	• • • • •	البرج يحترق بالنار الإغريقية
١١٣	• • • • •	س خوض النهر ومقتل كونت وارتوا
١١٥	• • • • •	س المسلمون يجرحون جوانفيل وينقذه كونت دأنجو
١١٧	• • • • •	فريق الملك يهاجم المسلمين
١٢٠	• • • • •	جوانفيل يدافع عن الجسر وارتداد كونت بريتانى عن المنصورة
١٢٢	• • • • •	المسلمون يهاجمون جوانفيل
١٢٣	• • • • •	هزيمة المسلمين وسرقة البدو لعسكرهم
١٢٥	• • • • •	البدو
١٢٧	• • • • •	مهاجمة العسكر ليلا ومطاردة بعض المسلمين
١٢٩	• • • • •	تأهب المسلمين لهجوم شامل على المعسكر
١٣١	• • • • •	معركة أسبوع الصوم الكبير
١٣٧	• • • • •	ضد الحلقة
١٣٩	• • • • •	✓ المؤامرة على تورانشاه
١٤٠	• • • • •	المرض والجاعة
١٤٢	• • • • •	معاودة عبور النهر
١٤٤	• • • • •	شروط المصريين المهينة
١٤٥	• • • • •	ارتداد الجيش براً وبحراً
١٤٨	• • • • •	بقاء جوانفيل في النهر

١٥٠	استلام جوانفيل للأسر وتهديد حياته
١٥٣	جوانفيل أسير في المنصورة
١٥٦	تهديد الأسرى وخبر اتفاقية الملك
١٥٩	تهديد الملك ومفاوضة المسلمين
١٦١	أخذ الأسرى إلى الدهليز السلطاني
١٦٣	اغتيال السلطان تورانشاه
١٦٥	اتفاقية الأمراء
١٦٧	يمين الأمراء
١٧٠	استعادة المسلمين دمياط
١٧١	قتل الأسرى
١٧٣	إطلاق سراح لويس ورحيل البعض إلى فرنسا
١٧٤	القديرة واستيلاء جوانفيل على مال الداوية
١٧٧	وفاء لويس بتنفيذ الاتفاق
١٧٩	دى شاتون وأسقف سواسون
١٨١	آلام الملكة بدمياط
١٨٣	سفر الملك إلى عسكا
١٨٥	متاعب جوانفيل بعسكا
١٨٨	مرض جوانفيل وكرم كونت أنجو
١٨٩	مناقشة عودة الملك
١٩١	تباين الآراء وتمسك جوانفيل بالبقاء

١٩٤	لوم جوانقيل ومقابلته السرية مع الملك
١٩٦	الملك يقرر البقاء
١٩٧	لويس يرسل أخويه ويستبقى جوانقيل
١٩٩	رحيل أخيه ورسل فردريك وسلطان دمشق
٢٠١	جون الأرمني صانع أسلحة الملك
٢٠٣	رسل شيخ الملك وتهديداتهم
٢٠٥	عودة الرسل وإرسال إيقيز إليه
٢٠٨	رد سلطان دمشق وإطلاق سراح بعض الأمري في مصر
٢١٤	غلبة التتار وتنصر أحد أمرائهم
٢١٧	عادات التتار وندم لويس على الاتصال بهم
٢١٩	وصول بعض الفرسان النروجيين
٢٢٠	عادات الكومان
٢٢٢	حياة جوانقيل فيما وراء البحار
٢٢٤	بعض الأحكام الصادرة في قيسارية
٢٢٨	الاتفاق مع الأمراء المصريين وتقوية يافا
٢٣١	كونت «أو» أمير أنطاكية والأرمن
٢٣٣	ملك فارس يأمر وولتر
٢٣٦	هزيمة فارس واتفاق مصر والشام
٢٣٨	الصلح بين سلطان دمشق وأمراء مصر
٣٣٨	هزيمة صاحب سنت لازار
٣٤٠	حسن أسلحة الجيش

٢٤٢	نهب صيدا
٢٤٣	الملك يرفض الذهاب إلى بيت المقدس
٢٤٥	هيج الثالث دوق برجنديا
٢٤٦	تقوية يافا والرحيل إلى صيدا
٢٤٦	رحيل الملك إلى صيدا
٢٤٩	الحملة على بانياس
٢٥٢	الخطر على جوانثيل
٢٥٤	دفن قتلى صيدا وضدقة جوانثيل و «أو»
٢٥٥	استيلاء التتار على بغداد
٢٥٧	قسيس يظنه جوانثيل حشاشا
٢٥٨	رسل صاحب طرايزون ومقدم الملكة إلى صيدا
٢٥٩	أبناء الفارس الفقير الأربعة
٢٦٠	حج جوانثيل
٢٦٢	موت بلانش وقسوتها على مرجريت
٢٦٥	العودة إلى فرنسا
٢٦٦	جوانثيل والملكة . إبحار الملك
٢٦٨	جنوح باخرة الملك
٢٧٠	الملك يرفض مغادرة سقينته
٢٧٢	عاصفة بقبرص
٢٧٤	الانتفاع من نعمة الرب
٢٧٥	جزيرة لا مييدوسا

صفحة	
٢٧٦	جزيرة قوضرة وغضب الملك
٢٧٨	النار في مخدع الملكة
٢٨٠	معجزة لمريم العذراء
٢٨١	تصميمه على النزول في هيرس
٢٨٢	نصيحة جوانفيل للملك
٢٨٣	الأخ هيج الفرنسيكاني
٢٨٥	نصيحة فيليب لويس
٢٨٧	عادات لويس وتقاليده وموقفه من الأساقفة
٢٩٠	أمثلة أخرى على صلابته وعدالته
٢٩٢	حبه للسلام
٢٩٥	خوف لويس وجوانفيل من التجديف
٢٩٦	حبه للفقراء وتعليمه أطفاله ومؤسساته الخيرية
٢٩٨	كيف أصلح أعماله ومنشأته الجديدة
٣٠٤	إصلاح ولاية باريس
٣٠٦	صدقاته ومؤسساته الدينية
٣٠٩	مؤسساته الدينية في فرنسا
٣١٠	حملة الصليب للمرة الثانية
٣١٣	مرض لويس وتعاليمه لولده
٣١٧	موت لويس
٣١٩	تقديس لويس
٣٣١	جوانفيل يراه في المنام ويبنى له مذبحاً

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اتسم القرن الثالث عشر بأنه قرن الفشل في السياسة الفرنسية .
الخارجية لاسيما في منطقة الشرق الإسلامي ، ففي مستهلها قام باروناها بحملة صليبية دون أن يكون لديهم الاستعداد الكافي من ناحية المال أو الوسيلة ؛ أضف إلى هذا أنها كشفت القناع عن الأطماع الأوروبية الغربية في احتلال الشرق مسيحية وإسلامية على السواء ، فتبدلت خطة سير التجربة الصليبية التي دعى لها البابا إنوسنت الثالث وزجفت مستعينة - رغم إرادة البابا ولكن وفق مخطط سرى وضعه قادتها باتفاق خارجي مع ألمانيا - بأسطول البنادقة على مناطق نصرانية خالصة كبلاد المجر رغم كراهية البابا إنوسنت الثالث لمثل هذا العمل واعتباره إياه خطيئة تستوجب قرار الحرمان ، وإن لم يعبأ الفرنسيون بهذا القرار البابوي . ثم إن الحملة تابعت مسيرها فهاجمت الإمبراطورية البيزنطية - وهي الأخرى مسيحية - ولم تحترم الكنائس ولا المقدسات الدينية النصرانية كما يشهد بذلك مؤرخوها أنفسهم الذين ساهموا فيها ، وإن ذهب البعض إلى القول بأن البندقية سيطرت على الحاربين الفرنسيين - الذين كانوا يسمون حجاجا - فجعلتهم يحققون مآربها الخاصة في الثأر لها من القسطنطينية واليونان معا .

وفي منتصف ذلك القرن نفسه قامت فرنسا بحملة صليبية أخرى على مصر

والشام بقيادة الملك لويس التاسع — موضوع هذه المذكرات — فكان الفشل
الذريع من نصيبها هذه المرة أيضاً ، مما حمل لويس على الاتجاه إلى تونس فلم يلق
فيها خيراً مما لقيه في مصر ، حتى لقد خاطبه أحدهم ساخراً :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إلیه تصیر
لك فيها دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منكر ونكير

وقيام هاتين الحملتين في مدى نصف قرن من الزمان يصور ما كان يضمه
الغرب من نزعة استعمار الشرق : نصرانياً كان أم إسلامياً .

. . .

بين هاتين الحربين الصليبيتين (١٢٠٢ ، ١٢٤١) ولد مؤلف هذه
المذكرات جان سيردي جوانفيل Jean Sire de Joinville في سنة لم
يتفق المؤرخون عليها وذهبوا في تحديد مذهب شتي ، فيرون أنه ولد في
فترة جعلوها بين عامي ١٢٢٠ و ١٢٢٨ دون أن يكونوا متأكدين من سنة
بذاتها . على أن الأكثرية منهم ترجح ظناً لا تأكيداً سنة وسطاً هي ١٢٢٤م
هذا على الرغم من أنه كان من أسرة قوية غنية ساهمت في أحداث فرنسا
الداخلية مساهمة غير ضئيلة ، إذ المعروف أن أحد أجداده واسمه « اتيان دي فو »
Etienne de Vou كان قد تزوج من سيدة إقطاعية ثرية هي كونيقة مقاطعة جواني
Joigny التي تنسب إليها الأسرة وكذلك المؤلف صاحب هذه المذكرات
وكان أفراد هذه الأسرة ممن تغلب عليهم روح العصور الوسطى القمحة
من حيث المساهمة في الحروب : أفصلاً أو مستقلين ، سواء أكانت هذه
المساهمة في حرب خارجية للفتح والغزو ، أو داخلية بقصد الثأر والتغلب ومدد
حدود الإمارة الإقطاعية أو المدينة أو وفاء جهد لمتبوع وإن تمدد المتبوعون
وتوحد التابع رغم عيّن الولاء ، ونرى أنه قد توفر لدى الفارس الإقطاعي وقت

لم يجد ما يشغله فيه سوى أن يؤجر سيفه لمن يبذل له عن سخاء في رفقته هو وأتباعه الفرسان الصغار ، بل لقد وجد أمثال هذا الفارس أن حروب الثأر لم تعد كافية لشغل وقتهم الطويل الممل ، فاتخذوا من القتال وسيلة للهو وترجية الفراغ .

وهناك اثنان من عائلة مؤرخنا يمثلان هذه الناحية أجلى تمثيل ، أحدهما عمه جوفرى دى جوانفيل الذى ساهم مع كونت فلاندرز في الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ، وقد عدّه فلهاردوان^(١) - مؤرخ هذه الحملة الرسمى - من كبار الرجال الذين شاركوا فيها وحملوا الصليب ، وأشار إليه في أكثر من موضع من كتابه .

أما الشخص الآخر من هذه الأسرة فهو « سيمون دى جوانفيل » والد جوانفيل صاحب هذه المذكرات ، إذ يخبرنا الابن عن مساهمة أبيه في محاربة البارونات والكونتات الذين أرادوا قتال مدينة « تروى » استغلالاً لصغر سن الملك لويس التاسع ورغبة منهم في مآء نفوذهم .

ونقرأ في ثنايا هذه المذكرات أسماء أقاربه ، وكلهم في الذروة من المكانة في فرنسا يومئذ ؛ وهكذا نرى أن صاحبنا جوانفيل - قد درج في أسيرة لم يكن يقر لأفرادها قرار في المدينة حتى يهبوا إلى حمل السلاح في حرب أو مبارزة . وانحدرت هذه الرغبة في المساهمة في الحرب في عروق جان دى جوانفيل فلم يكديبلغ مبلغ الشباب ويصبح في الرابعة والعشرين من عمره - على حد قول المؤرخ رافالير

(١) يقوم كاتب هذه الأسطر بترجمة مذكرات فلها ردوان إلى العربية وذلك ضمن مجموعة « المكتبة الصليبية » لمشاهدى هذه الحروب والتي طبع منها أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس لمؤرخ مجهول ، وكتاب فتح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ثم مذكرات جوانفيل هذه عن لويس التاسع .

Ravaliere - أو الثامنة والعشرين - على قول المؤرخ الصليبي دي كانج. du Cange - حتى وجد نفسه مدفوعاً عن صدق وإخلاص وحماسة للإسهام في تلك الحملة الصليبية الكبرى التي نهض بها لويس التاسع للقضاء على مصر ، إيماناً منه بأن التغلب على مصر وقهرها سيفتح أمامه - كمثال للمسيحية الغربية - رقعة الشرق العربي الإسلامي ، ويمكنه من سلب فلسطين وامتلاكها . لكن ما لبث أن حاقت به الهزيمة النكراء التي لا زال بيت ابن لقمان بالمنصورة دليلاً حياً عليها .

ولعل هذه الرغبة العارمة في نفس جوانثيل كانت أقوى من روح الأبوة عنده ، حيث يقرر أنه حين مغادرته مقاطعته جوانثيل للانضمام إلى الحملة أبي أن يتجه ببصره إليها وهي المقاطعة التي خلف فيها زوجته وولده مخافة أن يحن إلى البقاء ، فيقعده ذلك عن المساهمة في حرب كانت دوافعها في نفسه دوافع صادقة ، فكبح قلبه من الالتفات إلى الوراء فكأنه بذلك جاوز المدى الذي بلغه الشاعر العربي في قوله منذ أن خفيت عنه الديار وقاطنوها :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

• • •

كان جوانثيل ابن سيمون من زوجته الثانية بياترس البرجنديّة ، وقد نشأ في خفض من العيش ولكنه درب على السلاح وفاضت نفسه بحب الدين ورجاله ، وإتزال المقدسات والأحرام والآثار الدينية منزلة سامية تهون لديها نفسه إن كانت النفس لها فدية .

وكما اختلف المؤرخون في سنة مولده كذلك اختلفوا في تاريخ زواجه ، فرجح البعض أنه كان عام ١٢٤٠م ، أي بعد عام من توليه إدارة شؤون المقاطعة خافاً لأبيه سيمون .

ولم يكن جوفانفيل فصلاً إقطاعياً للويس التاسع حتى سنة خروجه من فرنسا على رأس حملته الصليبية إلى مصر ، ذلك أنه يحدثنا أن الملك استدعاه إليه وأمكن لم يحمله على قطع يمين الولاء له ، لأنه لم يكن قد صار بعد تابعاً إقطاعياً للويس بل كان مستقلاً ؛ ثم إنه يحدثنا مرة أخرى أنه « لم يكن قد وضع إذ ذاك الخوذة على رأسه » كناية على أنه لم يكن يومئذ فارساً إقطاعياً ، نبيد أنه دخل في خدمة الملك لويس فصلاً حين وصل إلى قبرص في السنة التالية لهوض الحملة من فرنسا ، فضمه الملك إلى رجاله ، واستخدمه هو ومن معه لمدة عام بمبلغ نقده إياه مقدماً .

كان دخول جوفانفيل في خدمة لويس بداية اتصال دائم به ، فقد لازمه مدة ست سنوات في حملته على مصر والشام ، ولم يفارقه مفارقة تامة إلا حين نهض لويس بحملته على تونس ، رغم أن لويس وثيبت كوت نفارة توسلا إليه أن يحمل الصليب ويسهم في الحملة ، ولم يكن انصراف جوفانفيل عن المساهمة في هذه الحملة عن قلى أو نقص في إحساسه الدينى ، بل كان يدفعه إلى ذلك عاملان أحدهما يقينه من عسدم جدوى هذه الحملة ، وإن لم يذكر لنا الأسباب — إلا ما قد يكون من شدة ضعف الملك جثمانياً — ، وثانيهما ما أصاب مقاطعته وأهلها من تعنت عمال الملك بهم أثناء تغيب سيدهم في مصر والشام .

ولم يكن جوفانفيل بالشخص الذى يغريه المال بل كان أقرب ما يكون إلى الزهد فيه ، وأبرز الأمثلة على ذلك رهنه جميع أملاكه قبل سفره لسداد ما قد يكون عليه من ديون ، واكتفاؤه بمبلغ بسيط يقوم بنفقاته هو وفرسانه .

...

ليس من شك فى أن جوفانفيل كان شديد التدين ومسيحياً مخلصاً

لعقيدته وفكرته الدينية كما رسمتها ظروف الزمان الذى عاش إياه ، ومن ثم كانت عنايته بتصوير الجانب الإنسانى فى كل ما يراه ، فالرحمة بالفقراء تتجلى فى أكثر من موضع من مذكراته، سواء أكانت هذه الرحمة صادرة منه هو نفسه أم من لويس أم من غيرهما: صديقاً كان أم خصماً ؛ هذا إلى جانب أنه انفرد من بين بارونات الملك ومشيريه وكبار رجال الدين بالإصرار على البقاء فى بلاد الشام بعد هزيمتهم فى مصر فى وقت كان البقاء فيه بها خطراً كبيراً .

ولم تكن فكرة الاستيلاء على بلاد الشام هى وحدها الباعث له على الإصرار على البقاء ، بل كانت تواكبها رغبة صادقة فى ألا يترك وراءه أولئك الذين جاءوا معه من صغار المحاربين ؛ كما أن فكرة القضاء على القوة الإسلامية واستخلاص بيت المقدس والاستيلاء على فلسطين وتحطيم قوة الجماعات العربية الموجودة فى تلك المناطق كانت هى الدوافع المحركة له ، وهى دوافع - كما سنرى فى ثنايا هذه المذكرات - نابعة عنده عن روح دينية خالصة، بل إن هذه الروح ذاتها هى التى حماته على أن يخلف وراءه أبناءه وزوجته وأملاكه، ويحاول بذل كل ما فى طاقته لاسترضاء أهل منطقته مخافة أن يكون قد آذى أحدهم من قبل فى نفسه أو ماله أو ممتلكاته .

وهو يعلل كثيراً من الأحداث تعليلاً دينياً، فالنصر فى الحرب أو النجاة فى البحر أو الخلاص من الأسر : كلها نتيجة لإرضاء الرب ورضائه، كما أن الفرق والحريق والهزيمة والأسر ضربات إلهية جزاء وفاقاً لمعصية فى العمل أو خطيئة فى النية أو القول .

ولعل هذا الإيمان القوى فى نفس جوانثيل هو الذى جعله غير فزع من فكرة ملاقاته القتل على أيدي أعدائه، بل يتقبلها مرحباً، ذاكراً فى موضع

معين — وقد حان وقت الاعتراف — أنه لم يرتكب من المعاصي والخطايا والذنوب ما يشعره بوقر في ضميره ، بل إنه ليصور — عن غير قصد — ما كان في جيش لويس التاسع من موبقات يرتكبها كبار رجالاته ، ولم يكن أحدهم ليخشى قالة السوء في حقه ، أو يرى في ارتكاب هذه الموبقات ما يقلل من هيئته وكرامته ومنزلته ويدنى درجته مما انزعج له خاطر الملك لويس نفسه ، كما أن جوانثيل كان شديد اللوم لأخوة الملك الذين لم يراعوا ظروفهم القاسية فكان فيهم من يقضى وقته في لعب الميسر .

وينص جوانثيل ذاته صراحة على أنه خاف من أن تثار الشكوك حوله ، فجعل فراشه في مكان بين تراه العين ، ولعل هذه الطهارة النفسية هي التي جعلته يعدّ لويس مثلاً صالحاً يضربه للتاريخ فيدون سيرته — وإن كانت بإيحاء غيره — « ليطالعه من يطالعها فيقتدى بها » كما جاء في إهدائه هذا الكتاب إلى لويس العاشر .

. . .

نص جوانثيل على أن مصادره فيما ذكر من الأحداث في كتابه ثلاثة ، منها ما رآه بعينه ، ومنها ما تلقفه بالسمع من فرد أو أفراد كانوا شهوداً لما رأوا ورووا ، أما المصدر الثالث فهو استعانته بكتاب يتضمن سيرة الملك لويس التاسع ، دون أن ينص على اسم هذا الكتاب مما سنعرض له في ثنايا هذه الكلمة . على أن هناك مصدراً أشار إليه إشارة عابرة دون أن يسميه أيضاً ، وذلك في معرض كلامه عن ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .

ونريد أن نعرض أولاً لقيمة أخباره ومقدار مطابقتها للتاريخ فنرى أنه ليس ثم شك في أنه كان حريصاً أشد الحرص على إيراد الأحداث إيراداً صحيحاً بقدر استطاعته ، وأنه كان يتمتع بذكرة لا شك أنها كانت صافية رغم تقدم

سنه حين شرع في تدوين تلك الأخبار على الصورة التي يطالعها القارىء في
بردتها العربية الآن لأول مرة .

ولا يعرف على وجه التحقيق متى بدأ جوانثيل كتابة مذكراته ، وكم من
الزمن استغرقته هذه المذكرات ، بل أنه لم يذكر متى طلبت منه الملكة البدء في
تدوين هذه المذكرات ، وهل شرع في تدوينها مباشرة عقب هذا الطلب
أم انقضت فترة من الزمن ؟ ، وكم كان طول هذه الفترة ؟ وقد عرض لهذا
الموضوع المؤرخ ويللى فرجيج أن يكون جوانثيل قد شرع في تأليفه في المدة
الواقعة بين مارس ١٣٠٥ ومارس ١٣٠٦ م ، وليس ثم ما يدعونا إلى استعراض
الأدلة التي ساقها ويللى للوصول إلى هذه النتيجة .

وقد ذكر جوانثيل في آخر فقرة من مذكراته أنه أنهى كتابته إياها في
أكتوبر ١٣٠٩ ، أى بعد قرابة خمسة وخمسين عاماً من أول مصاحبة له . للويس
التاسع في حربه على مصر والشام . أضف إلى هذا أنه هو ذاته كان في العقد
التاسع من عمره ، وهى سن من المحتمل جداً أن يركن صاحبها إلى الخمول الجسمى
والفكرى ، وتحنون الذائكة فيها صاحبها .

فإذا أخذنا برأى المؤرخ ويللى بأن بدء تاريخ كتابة هذه المذكرات كان
في الفترة الواقعة بين ١٣٠٥ و ١٣٠٦ م تبين لنا أن تأليفه إياها وجمعه شتاتها قد
استغرق منه قرابة أربع سنوات ؛ على أن جوانثيل نفسه يشير إلى جون الثانى
كونت بريتانى « بالكونت الحالى » ، والمعروف أن هذا الكونت مات
سنة ١٣٠٥ ، ومن هذا يستدل على أن الكتاب - أو أجزاء من الكتاب -
دونت قبل تلك السنة .

ومهما يكن الأمر من حيث البعد الزمنى بين كتابة جوانثيل مذكراته

وبين وقوع أحداثها فإننا نلمح فيها حرصاً قوياً على إيراد الأحداث إيراداً يعتمد على ذاكرته أولاً .

لكن حرص جوانفيل المشكور في إيراد الحقائق لم يحل دون وجود ثغرات وزلات تضمنتها أخباره ، ولم يعن مترجموها بالتنبيه عليها في مواضعها ، غير ما فعله ويللى الذى تعد ترجمته لذكرات جوانفيل عن حياة لويس أصدق ترجمة حافظ فيها على الأصل الذى طابقت الصورة الفرنسية الحديثة .

ويلاحظ أن جوانفيل مهد في البداية بتاريخ لويس ومولده ، وكان المتوقع منه — والكتاب ترجمة لحياة لويس وأعماله — أن يتبع أخباره وأن يستشير أو يستشير بطانته وحاشيته فيما استغلق عليه فهمه ، أوفاته من أخباره في ظروف لم تساعد على أن يكون في رفقته وشاهد عيان لها ، وهذا أمر لم يغيب عن ذهن جوانفيل أحياناً ولكن ليس دائماً ، وربما كان السبب في هذا — وهو قليل — راجعاً إلى أن المؤلف لم يكن قد فكر في وضع تاريخ للويس وإنما كان وضعه إياه متأخراً استجابة لإشارة الملكة الوالدة ، وقد جاءت هذه الإشارة متأخرة فعمد إلى جمع ما وعته ذاكرته الصافية التي أعانتها إلى حد كبير ، يتجلى في مطابقة بياناته — إلى حد ما — بالتاريخ الواقعي المدون .

وتستغرق أخبار لويس التاسع الجانب الأكبر من هذه المذكرات التي كان من الممكن أن يتجنب فيها المؤلف مزالق الخطأ والتحريف غير المقصود اعتماداً على عاملى السماع والمشاهدة ، بيد أنه كان ينطلق في بعض الأحيان إلى إيراد أحداث تاريخية سابقة لزمه دون أن يتوفر بين يديه من المصادر والمراجع ما يدعمها أو يمكنه من إيراد سنوات حدوثها في غير زلل في الحوليات ، ولو كان جوانفيل وضع أمامه ثبتاً بالسنوات وأحداثها لجنب نفسه الأخطاء

التي وقع فيها . ولعل الخطأ التاريخي الذي وقع فيه جوفانفيل والذي خانه فيه .
تقدم سنة ، هو إشارته إلى هجوم المغول على بغداد ، إذ يستشف القارئ أن هذا
الحادث الضخم جرى إبان وجود لويس التاسع في الشام ، غير أن سنة الحادث
تكذب هذا ، إذ زالت الخلافة على يد المغول عام ١٢٥٨م أي بعد أربع سنوات
من عودته إلى فرنسا التي بلغها في سبتمبر عام ١٢٥٤ .

لكن هناك ظاهرة نستشفها من مطالعة هذه المذكرات هي رغبة المؤلف
في استجلاب العطف على لويس القديس ، من حيث إشارته إلى قيام البعض
بتقدير المؤامرات ضده وخروجه منها سالماً بفضل فهمه أحياناً وبفضل « رعاية
الرب » دائماً .

وجوفانفيل في هذه المذكرات تغلب عليه سمة معظم كتاب عمره في الغرب
والشرق على السواء من حيث بروز الجانب الديني ، ولن يعاب عليه ذلك بحال
من الأحوال إلا بمقدار ما تضيع معه الحقيقة التاريخية على طالبها ، ومن الأمثلة
التي حاول بها جوفانفيل أن يدعم العطف النفسي بالحادث التاريخي ما أورده من قصة
مؤامرة البارونات واتحادهم جميعاً فيما بينهم لتقوية أنفسهم باقتطاع بعض المناطق
من بلانش . الملكة الوصية ، مستغلين ظروف الوقت إذ ذاك من نعومة سن
الملك الطفل وعدم وجود مؤيدي الملكة « الأجنبية » بين الفرنسيين ؛ ثم الحاققة
الأخرى في تلك السلسلة من المؤامرات حين اتحاد الأمراء والبارونات ضد الكونت
ثيبوت الرابع لوقوفه في صف الملك ، متخذين من حادثة تراجع الكونت عن
الزواج بابنة بيير موكليرك — أحد كبار النبلاء — ذريعة لمحاربته ، ثم الاتفاق
بين ملكة قبرص وثيبوت الرابع . وقد ذكر جوفانفيل هذه الأحداث التي
وقعت فعلاً ولكن في غير تواريخها .



وقد فات جوانثيل الإشارة إلى زواج لويس من الملكة مرجريت
دى بروفانس، على حين نلتقى بالملكة الشابة في أكثر من موضع من المذكرات،
دون أن يهد المؤلف — ولو في إشارة عابرة — إلى زواجها الذي تم
سنة ١٢٣٤ .

ولعل من أجلى الصور التي أبرزها جوانثيل في مذكراته هذه ما رواه عن
طائفة الإسماعيلية أو الحشاشين ببلاد الشام ، ولقد أضاف جوانثيل اللثام عن
ناحيتين هامتين : أولاها هي رغبة هذه الطائفة في هذا الوقت بالذات في عقد
تحالف مع لويس التاسع ، وثانيهما علاقتها بجماعة الفرسان الداوية والاسبتارية .
وليس من شك في أن الحشاشين كانوا يؤلفون مصدر خطر على القوات السنية
في مصر والشام والعراق .

وقد ترك لنا جوانثيل صورة حية عن هذه الطائفة ، على أن الطريف
الجديد فيها هو إشارته إلى دفعها شبه جزية سنوية إلى فرسان المعبد والاسبتارية ،
غير أن تسميته إياها « بالبدو » وكلامه الساذج عن الرسول العربي عليه السلام
والإمام على كرم الله وجهه تبين ضحالة معلوماته ، وهذا جانب ملحوظ في كتاب
الغرب في العصور الوسطى عامة .

هذه هي هنات جوانثيل في مذكراته هذه ، غير أنها لا تطعن في قيمته
كمؤرخ لحياة الملك لويس ، ولا لحملة الصليبية على مصر والشام التي استغرقت
جانبا كبيرا من عنايته بجلى في إيراد الأحداث بصورة تفصيلية نستطيع
بضمها — إلى الشذرات المبعثرة في ثنايا الحوليات العربية الإسلامية عن حملة
المنصورة وبقية الكتابات الغربية — كتابة تاريخ الحملة الصليبية على مصر
عام ١٢٤٩ م وما آلت إليه من فشل ذريع ، وأي فشل أبلغ في مداه من أن

يفدو الملك — الذى كان يتطلع إلى تملك البلاد — أسيراً فى بيت لا يزال
موجوداً حتى اليوم. ويعرف باسم صاحبه ابن لقمان ، ولقد خلد الشعر العربى
السخرية به فى قول أحد الشعراء :

أتيت مصرًا تبتغى ملكها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أردعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم ~~سوى~~ إلا قتيل أو أسير جريح
فقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على خالها والقيد باق ، والطواشى صبيح .

ثم شاءت الأقدار أن يلقى أحد إخوته مصرعه فى المنصورة ، وأن يلمس
الملك فكاك أسره هو ورجاله بأموال ضخمة ترك للمصريين تقديرها ، وأن
يقسم على الوفاء بهذه الاتفاقات قسماً يضعه جماعة من رجاله العلمانيين والمدنيين
الذين وقعوا فى الأسر كما يذكر جوانقىل .

والواقع أن ما صاحب الحملة من أحداث تاريخية واتصالات خاصة
ومفاوضات بين الجانبين المصرى والفرنسى على الصورة التى ذكرها جوانقىل
هى أخبار جديدة كل الجدة ، ويحتاج إلى بحث من جانب المؤرخين ، مع
الاستعانة بأضواء أحداث التاريخ المصرى إذ ذاك .

ومذكرات جوانقىل حافلة بشتى الأخبار التى تتعلق بهذه الفترة من
القرن الثالث عشر الميلادى ، ولست هنا بصدد سردها واحدة واحدة ، وإنما
أترك ذلك لقارىء هذا الكتاب .

على أن القارىء سوف يتبين في جلاء ما بعده من جلاء أن جوائنجيل
كان ملماً إماماً طيباً فوق مستوى الرجل العادى بالأحداث الجارية فى تلك
الحقبة من تاريخ العالم ، وهو مع هذا الإمام الكبير تغلب عليه روح المدقق ،
فيأبى أن يذكر شيئاً عن حملة لويس الصليبية على تونس عام ١٢٦٧ لأنه لم
يساهم فيها بنفسه .

لكن هل نستطيع من هذه المذكرات أن نطالع شخصية لويس التاسع ؟
ليس من شك فى أنه كان يدرك مقدار التنازع بين أمراء مصر والشام
فى هذه الفترة ، وهو نزاع أدى إليه انتقال الحكم من البيت الأيوبنى فى مصر
إلى أيدى جماعة المماليك البحرية ، ولعله وجد فى تولى شجرة الدر أمور السلطنة
بارقة أمل فى أن يتمكن من تحقيق هدفه فيمحو بذلك فشل هزيمة فى
المنصورة وعار أسر بها ، وفاته أنها لم « تدع أحداً يطمع فى الملك لمظمتها فى
النفوس . . . واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة
تديرها . . . وبايموها بالسلطنة فى أيام أرسالا » على حد قول أحد
المؤرخين^(١) . ثم انبسط الأمل أمام لويس حين قام أمراء القيمرية فى دمشق
فأنكروا على شجرة الدر ولايتها على مصر ، ورفضوا الاعتراف بشرعية
حكومتها وامتنعوا من الخلف لها^(٢) .

ولم يقف القيمرية عند هذا الحد بل كاتبوا صاحب حلب الملك الناصر
الدين يوسف بن العزيز محمد بدعونه للمسير إليهم لملك دمشق كي يجابهوا

(١) راجع النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) راجع السلوك المقرئى (طبعة زيادة) ج ١٠ ص ٣٦٧ .

به - وهو فرع الدوحة الأيوبية - حكومة شجر الدر وأتباعها المماليك .

وزاد من أطماع لويس في تفرق شمل كلمة الإسلام موقف الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي كره أن تتولى امرأة السلطنة ، فأنفذ كتاباً إلى أمراء مصر يؤنبهم على سماحهم لشجرة الدر بأخذ مقاليد الأمور في يدها في عبارة قاسية مخبرا إياهم « إن كانت الرجال قد عدت عندهم فليعلموه حتى يسير إليهم رجلاً » .

كل هذه الأحداث المتتالية حملت لويس بلا شك على محاولة استغلال هذا النضال لصالحه الصليبي الخاص عساه يمكنه من استخلاص بيت المقدس، أو عساه على الأقل يؤمن وجود الإمارات اللاتينية في الشام .

على ضوء هذه الأحداث يمكن تفسير ذهابه إلى بلاد الشام عقب فكك أسره من مصر وطول إقامته بها طويلاً لا نلاحظ فيه قيامه بأي عمل حربي ، ولعله - وقد أدرك فشله المطلق في مصر، واللطمة التي أصابته بها حين وقع في الأسر - أراد أن يعرض هذا بمحاولته إظهار سلطانه على أمراء الشام ، ومظهر هذا السلطان عمله على إزالة العلاقات التي بين بعضهم والبعض الآخر .

لم يكن أمراء الصليبيين في الشام في حال من المودة والاتفاق فيما بينهم ، والفضل في ذلك راجع إلى أطماعهم الشخصية التي لم تقف عند حد سلب الأراضي من جيرانهم المسلمين ، بل ربما تكون أقرب إلى الواقع إذا قلنا إن هؤلاء الصليبيين قد أسقطوا هذه الفكرة من حسابهم منذ أمد بعيد، بعد أن أيقنوا - كما أيقن أسلافهم من قبل - عدم جدوى هذه المحاولة الفاشلة، لا سيما بعد تكتل القوات الإسلامية على يد زعمائها أمثال نور الدين محمود

وصلاح الدين الأيوبي ، فقتل الأمراء الصليبيون بما في أيديهم ، وعدوا المحافظة عليها غاية آمالهم في محيط لم يكن من حولهم فيه ينظرون إليهم نظرة صداقة أو رضا أو عطف .

انصرف الأمراء الصليبيون إلى التنازع فيما بينهم وليس أدل على ذلك مما شاهدته لويس التاسع بنفسه من موقف الأميرة لوسيا صاحبة أنطاكية في تصرفها حسب أهوائها وبغثرتها أموال الصليبيين في غير نفع للصليبيين ، ثم إظهارها الإقامة في طراباس استجابة لنزعاتها الخاصة ، وقد حملت كل هذه الفعال ابنها بوهيمند السادس على التأفف منها ، فراح يث شكواه إلى لويس وهو في يافا ، وأفهمه صراحة أن أنطاكية موشكة على الضياع ، ونجح لويس في التوفيق بين الشاب وأمه لوسيا توفيقاً أجدى على الصالح الصليبي في أنطاكية كما يستدل من كلام جوانفيل .

لم يكن لويس — أثناء إقامته السلمية في بلاد الشام — يترك فرصة تمر دون أن يغتنمها لتقوية الروح الصليبية والتوفيق بين الجماعات المسيحية ، حتى لا تجند القوات المعادية لها ثغرة تنفذ منها إليها ، ويبرز هذا الاتجاه عند لويس في محاولته إزالة العداء بين اليونان وبين اللاتين في آسيا الصغرى ، فيحدثنا جوانفيل في مذكراته هذه بنجر وفادة صاحب طرابيزون إليه ملتمسا منه إرسال أميرة من عنده ليتزوج بها ، كما يحدثنا أيضاً أن لويس أشار على الوافدين عليه أن يطلبوا من مولاهم التفتيش عن طلبته لدى بلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية اللاتيني .

وقد يبدو لنا في تاريخ بيزنطة في ذلك الحين أن إشارة لويس هذه تنطوي على السذاجة وجهل بالأوضاع لما كان بين البيزنطيين واللاتين من

عداء عنيف استحكمت حلقاته منذ أن غير الصليبيون وجهة حملاتهم الصليبية
الرابعة من مصر والشام إلى القسطنطينية، ومنذ أن أزالوا إمبراطورها الشرعي
وأقاموا لهم إمبراطورية لا تينية في العاصمة، ولم تعرف هذه الإمبراطورية الجديدة
طعم الاستقرار، فما استطاع بطش أباطرتها وحكامها أن يفل من غرب حدة
اليونان في التمسك باستقلالهم واستعادته والإطاحة بمغتصب حقوقهم، وإذا
كان البيزنطيون قد لقوا الهزيمة أمام الصليبيين في القسطنطينية، وإذا كانت
إمبراطوريتهم قد زالت فسرعان ما أقاموا لهم حكومة قومية في الداخل
خارج القسطنطينية، فكانت شوكة تقض مضجع المحتل الغريب. لكل هذا
أراد لويس التاسع — وكان واهما فيما أراي — أن يزيل مظاهر العداء بين
الوطني والمغتصب، فأشار على سفراء الإمبراطور البيزنطي أن يطلبوا إلى
مولاهم أن يلتمس الزواج من بنت إمبراطور القسطنطينية اللاتيني. عليه بذلك
يزيل الإحن الموروثة؛ كما أنه أراد من ناحية أخرى أن يفشل ريح اليونان
ويبث القرقة بين ضفوفهم، ورأى — كما يقول جوانفيل — أن إتمام هذا
الزواج سوف يؤدي إلى وقوف طرايزون والقسطنطينية ضد إمبراطورية
نيقية اليونانية التي لم يلق إمبراطورها نالا إلى الصليبية في العاصمة، وكانت كل
الدلائل تشير إلى أن سقوط الإمبراطورية اللاتينية سيكون على يد نيقية
بالدرجة الأولى.

* * *

إذا كان لويس قد اتجه إلى تقوية الإمارات اللاتينية وإزالة البغضاء بين
أمرائها بعضهم وبعض، وإذا كان قد حاول تكثيل القوى النصرانية الشرقية
والغربية للعمل يدا واحدة في ميدان أكبر من ميدان التنازع المحلي فإنه قد

رسم سياسة أخرى تتفق مع هذه في هدفها العام وإن أتجهت نحو قوى غير نصرانية ، ونعني بذلك جماعتي التتار والحشاشين .

كان التتار قد ظهوروا على مسرح أحداث الشرق كقوة حيوية فتيحة طامعة، وإن اتسمت بالتخريب أكثر من اتسامها بالفتح والاستقرار ، وطبيعي أن تحتك هذه القوة الجديدة بالخلافة العباسية والدول الإسلامية في تلك البقعة من عالم ذلك الوقت ، ولم يكن احتكاكها احتكاكاً سلمياً بل كان ينزع إلى الفتك والإغارة والسلب والتدمير، وأدرك الغرب الأوربي مدى نفعه من ظهور التتار في القضاء على دول المنطقة الإسلامية ، فلما جاء لويس لم تفتحه هذه الناحية ورغب في استغلالها لقضاء مآربه ، كما رغب المغول من جانبهم — أيضاً — في الاستعانة بلويس كذلك .

على أن العلاقة بين التتار والغرب لم تكن وليدة يومها ، إذ ظهرت في مستهل القرن الثالث عشر قوة المغول هائلة مخيفة تكتسح كل ما في طريقها، واندفعوا كالآتي* المزبد حتى سلبوا بولندة والمجر ، ودقت جيوشهم أبواب ألمانيا ، وأدرك الغرب المسيحي خطر هذا الجنس ، فكان من جراء ذلك ما دبره البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) من محاولة تكتيل الغرب المسيحي في حملة صليبية ضدهم عام ١٢٤١ ، إلا أن صراعه مع فردريك إمبراطور ألمانيا حال دون مثل هذا التكتيل ، ولقد تبين لجريجوري ألا جدوى عملية تنتظر من الإنجليز الذين اكتفوا بالعطف على حركته دون أن يتجاوزوا هذا الحد .

لذلك أخذت هذه الحركة الغربية اتجاهاً جديداً هو محاولة التقريب بين التتار والغرب المسيحي وساعد على هذا الاتجاه عاملان :

أولهما ما كان من عدم معارضة المغول لحركة التبشير بين رعاياهم .
وثانيهما التفكير في تكوين تآلف حربي من المغول والمسيحيين لمحاربة
المسلمين بعمامة ومصر بخاصة .

وكان من أكبر المحبذين للفكرة الثانية البابا إنوسنت الرابع
(١٢٤٣-١٢٥٤) معاصر لويس التاسع ، فقد أرسل البابا سفارة من لدنه قبل
سنوات قلائل من حملة لويس على مصر إلى كيوك خان إيلخان المغول ، ثم
عقب البابا بسفارة أخرى على رأسها أنسلم Ansellimus الراهب المباردي ،
ولسنا يعني هنا الدخول في تفاصيل هذه السفارة ولكن نكتفي بأن نقول إنها
نهجت نهج سابقها من حيث دعوة التتار إلى اعتناق المسيحية الكاثوليكية ،
ثم انكفأت إلى أوروبا حاملة رد المغول ، كما صحبت معها رسولان تتاريين
إلى البابا في رومة ، وتلقاهما أنوسنت الرابع في منتهل عام ١٢٥١ .

جرت هذه الاتصالات الدبلوماسية البابوية ولويس في حملته على مصر
وأثناء إقامته بالشام ، على أنه ينبغي الإشارة إلى أن التتار اتخذوا قرابة هذا الوقت
موقفاً إيجابياً حين كان لويس في طريقه إلى مصر ، إذ وفد عليه في قبرص
رسولان من قبل كيوك خان يعرضان عليه رغبة مولاهم في محالفته واستعدادهم
لأن يكون إلباً معه على المسلمين فيساعده على تحقيق هدفه من استخلاص
بيت المقدس من أيديهم ، وهنا قد يتساءل المرء : أكان ذلك العرض المغولي
بلا مصلحة شخصية ؟ . . . تولى الرد على هذا التساؤل الأستاذ برهيه حين
ذكر أن المغول كانوا في هذه اللحظة يتأهبون لمحاربة الخلافة العباسية في بغداد ،
أي أنهم يهيئون سبيلهم لتكوين تحالف مع الصليبيين ، أما لويس فقد نظر إلى
المسألة من ناحية أخرى دخل فيها عامل نشأته الأولى ونعني بذلك تربيته

الدينية وطمعه في أن يحقق للمسيحية نصراً تطمئن له روحه، وذلك بحمله التتار على التنصّر ، وإذ ذاك يكونون حرباً على المسلمين في الشرق ، ولعله فاته أن التتار — من جانبهم — كانوا يريدون تكوين قوة ارتكاز لهم في هذه المنطقة الحيوية ، كما فاته أيضاً أن عطفهم على المسيحية كان يمثله عطفهم على بقية الأديان والمذاهب الأخرى التي تعيش في رحابهم: خطة حكيمة ابتدعوها لأنفسهم وكانوا فيها بناة دولة .

وأنفذ لويس مع هذه السفارة المغولية رسلاً من قبله حملهم بالهدايا التي كان من بينها — كما يذكر جوانثيل — كنيسة صغيرة وأدوات القداس .

على أننا لا نعرف على وجه الدقة أبلغت هذه السفارة بلاط كيوك ايلخان التتار أم أنها وصلت إلى معسكر جغتاي خاله ، فذلك مالا ينصر عليه جوانثيل في مذكراته ، على أن الأرجح أن المبعوثين واصلوا رحلتهم حتى بلغوا بلاط الإيلخان الذي كان قد مات ، فتلقاهم أخيراً منكوخان الذي لم يمنعه ترحيبه بالبعثة من أن يعد هديتها دليلاً — يسوقه إلى من لم يدخلوا بعد في طاعته — على تبعية الملك لويس له ، وحذّرهم من أنه سيدفعه إلى محاربتهم إن لم يبادروا إلى هذه الطاعة ، فلما عادت السفارة الصليبية من البلاط المغولي وأفضت بكل ما جرى لام لويس نفسه على إيقاد تلك البعثة .

على أن نهاية تلك السفارة المذلة للويس لم تصرفه عن معاودة الاتصال بالمغول مرة أخرى ، لاسيما بعد أن وردت إليه الشائعات تقول إن سارتاك — أحد خانات المغول — اعتنق للمسيحية — ولم يكن لهذه الشائعات نصيب من الصدق ، فأنفذ وفادة على رأسها ولیم روبروك — أحد الرهبان الفرنسيين سكان

— الذى غادر قيسارية عام ١٢٥٢ م حاملاً معه رسالة خاصة من لويس يـرجو فيها الإذن للمبشرين الكاثوليك بالدعوة للمسيحية فى بلاد التتار .

هذه إيضاحات لما هو وارد فى مذكرات جـوانثـقيل .

* * * *

لكن قبل أن نختـم هذه الكلمة نحب أن نبين أن المـدى الجغرافى الذى تضمنته هذه المذكرات يشمل أقساماً ثلاثة : هى مملكة فرنسا فى القرن الثالث عشر ، ثم بلاد الشام ، ثم مصر السفلى .

وربما لم يكن ثم شىء من هذه الأقاليم الجغرافية فى حاجة إلى كلمة إيضاحية مثل « مملكة فرنسا » ، إذ ربما وقع القارىء غير الملم إلماماً قوياً بتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى فى حيرة وارتباك مصدرهما إشارة جـوانثـقيل — وغيره من كتاب تلك العصور ومؤرخيها — إلى ما كان يعرف إذ ذاك بفرنسا ، بحيث لو تتبع المطالع خريطة فرنسا فى العصور الحديثة لظن أن هناك خطأ فى إيراد الأحداث أو عدم فهم لتقسيمات فرنسا الجغرافية . لكن الواقع غير هذا وذاك .

ذلك أن « مملكة فرنسا » تحددها معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م التى جعلتها ثلاثة أقسام كما يعرف طلاب التاريخ ، وما مملكة لويس التاسع غير ذلك القسم الذى كان من نصيب شارل الأصـلع ، وكانت حدوده من الشرق : نهر المـويز والسامون والرون ، ومن الشمال إسكوت Escout ، ومن الجنوب جبال البرانس .

على أننا نختلف فى تقدير مدى ما كانت عليه هذه المملكة من اتساع زمن لويس التاسع حيث كان قد انضاف إليها قبل ذلك بزمن أبرشيتا فيفيه وأوزيه ، إلا أن

هذه الإضافة الإقليمية إلى ممتلكات فرنسا لم تغير شيئاً من حقيقة ثابتة هي اتخاذ الرون حداً شرقياً فاصلاً بين المملكة وبين الأقاليم المجاورة لها، ويستدل من وثائق المنح والهبات الإقطاعية أن حق ملك فرنسا قد أصبح مؤكداً على الأقل في أبرشية فيقيه منذ عام ١١٨٨ ، حيث يؤكد صاحبها سيادة الملك عليها .

على أن جغرافية « مملكة فرنسا » تختلف في منتصف القرن الثالث عشر حين قام لويس بحملته على مصر في مستهل القرن الرابع عشر ، وكانت حدودها مبرنة مطاطة تتلاءم مع قوة الملك وضعفه ، ومع التيارات السياسية الداخلية لاسيما الحركات الإقطاعية وزعماء الإقطاع ، وعلى ذلك فإن دراسة مملكة فرنسا إبان هذه الحقبة يجب أن تكون مقرونة بدراسة الأطلس ، بل إنه يتجلى من الوثائق أن بعض الإقطاعيات والولايات كانت زئبقية رجراجة ، ونذكر على سبيل المثال أن قراءة الخريطة تبين لنا أن مقاطعتي روكورت Roucourt وكورني لم تعودا ضمن حدود « مملكة فرنسا » في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وحقيقة الواقع أنه في السنة الأولى من مطلع هذا القرن أصبح كونت شمبانيا فصلاً إقطاعياً تابعاً للملك فرنسا ، وتجلت فصليته له في حكمه بعض الحصون ومنها حصناً روكورت وكورني .

والمقارن لحدود فرنسا الحالية من ناحية الجنوب بحدودها زمن أحداث هذه الذكريات يستطيع أن يرى في غير عسر عدم الاختلاف الشديد ، اللهم إلا أن نفارة السفلى ومنطقة روسيلون لم تكونا داخلتين ضمن حدود فرنسا لويس التاسع ، كما أن مطالعة قاموس Expilly : Dictionnaire Geographique de Gaule et de France ربما دلت القارئ على أن نفارة السفلى كانت نواة مملكة نفارة التي ظهرت في القرن الثالث عشر مملكة قوية مستقلة

بفضل ما تهيأ لها من ظهور شائجة القوى الذى استطاع غزوها، وبذلك تخلصت.
نقارة السفلى من أن تصبح تابعة لمملكة فرنسا .

لكن ما هو مدى اتساع حكم الملك الجغرافى ؟

الواقع أن هذه الناحية جديدة فى موضوعها طريقة فى مظهرها ، ذلك أن سلطة ملك فرنسا فى مطلع القرن الثالث عشر لم تكن تتجاوز النواحي التى تشغل الآن الإقليم الأوسط منها ، وهو الذى عرف فى تاريخ العصور الوسطى باسم جزيرة فرنسا وبيكاردى، وفيرماندوا، وايفيرو، وأورليانية، وبرسى، وجاتينية وكونتية دى سان ، كما انضاف إلى هذه المناطق بعض الإقطاعيات ، وكانت هذه الإضافة بطريق المصادرة لاسيا على يد فيليب أغسطس ، ثم جاءت اتفاقية (١٢٢٩) التى أصبحت من حق الملك بمقتضاها امتلاك جزء من منطقة لانجدوك .

وفى عهد لويس التاسع نفسه — وفى عام ١٢٣٧ بالذات — تمكنت مملكة فرنسا من أن تضيف إليها منطقة جغرافية جديدة لم تكن لها من قبل هى كونتية ماكون Macon .

هذا هو القسم الأول من « مملكة فرنسا » زمن لويس التاسع موضوع هذه المذكرات .

أما القسم الثانى فهو الإقطاعيات التابعة لها ويبلغ مقدارها قرابة ستين إقطاعية أى أنها تزيد عدا ومساحة عن مساحة فرنسا القرن الثالث عشر ، والواقع أن تاريخ هذه الإقطاعيات هو تاريخ تبلور القومية والتوحيد السياسى، وليس هذا موضع دراسة تاريخ فرنسا ، لذلك لن أعرض فى هذه المقدمة لتلك الإقطاعيات والإمارات اكتفاء بما أضفته من الحواشى المتعلقة بها فى هذه الترجمة العربية .

* * *

أما فيما يتعلق بالأصل الذى كتبه جوانفيل فليس لدينا هذا الأصل ، لكن المذكرات وصلت إلينا فى صور يختلف بعضها عن بعض باختلاف السنوات والنسخ ، وقد عمد المؤرخ المحقق ناتالى دى ويللى Natalis de Wailly فى القرن التاسع عشر إلى سبع نسخ منها ، قارن بينها وأخرج منها النسخة التى هداه تعمقه التاريخى واللغوى إلى أنها أقرب النسخ إلى الأصل كما وضعه جوانفيل بالفرنسية القديمة ثم ترجمها ويللى إلى الفرنسية الحديثة ، فأنخذتها أصلاً أترجم عنه .

ثم عمدت إلى ترجمة بالفرنسية موجزة حديثة لمقارنتها بالأصل ، كما عمدت إلى ترجمتين بالإنجليزية لمذكرات جوانفيل إحداهما هى النسخة التى ترجمها الكولونيل / John of Hafod ونشرها عام ١٨٤٨م والتى كان اعتمادها فى ترجمتها على نسخة معروفة بنسخة مينارد ، والتى تختلف عن نسخة ويللى فى كثير من الأحداث والترتيب بالزيادة حيناً والنقص حيناً آخر ، والتقديم والتأخير ، والإطالة والإيجاز فى بعض الأحيان ، وأشارت إلى ما قد يكون من اختلاف كبير بينها وبين الأصل الفرنسى القديم الذى نشره ويللى . أما الترجمة الإنجليزية الأخرى فهى الترجمة التى نشرت فى مجموعة إفريمان تحت عنوان Memories of the Crusades (Everyman's Library) وهى فى الواقع ترجمة لنسخة ويللى .

ولما كان ويللى قد قسم المذكرات إلى أجزاء جعل لها عناوين وأخرى مرقمة مسلسلة فقد اتبعت نفس الترتيب ، لا سيما وأنه كثيراً ما ترد الإشارة إليه إلى المراجع الغربية الحديثة التى تكتب عن هذه الفترة وتستعمل المذكرات ، غير أنى أبحث لنفسى التغيير فى العناوين تبعاً لمقتضى الحال .

كما أنني لم أشأ إتمام الترجمة بالحواشي والتعليقات إلا حيث وجدت إلا
محيص لي عن ذلك ، ذلك لأنني أريد أن أقدم للقارئ العربي مذكرات العصور
الوسطى كما كتبها أصحابها، وأدعه يكون لنفسه صورة من مطالعته الخاصة عن
حقيقة الحروب الصليبية وأهدافها التي كانت مرتسمة في أذهان أهل الغرب
في تلك العصور ، وإن ألبسوها مسوح الدين .

وأحب أن أشير إلى أن هذه هي أول مرة تترجم فيها هذه المذكرات
إلى العربية .

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت ، وما توفيقى إلا بالله ؟

الدقي ١٩٦٨/١/٣١

حسن حبشي

حياة القديس لويس

— ١ —

الإهداء وتقسيم الكتاب

١ — إلى سماحة سيدي لويس^(١) الصالح بن ملك فرنسا الذي هو بفضل الله ملك نفارة وكونت شمبانيا^(٢) وبري، يرفع تابعه جون دي جوانفيل سنكال شمبانيا إليه تحايا وحب واحترامه وطاعته^(٣).

٢ — مولاي العزيز :

لعله ما يرضيك أن تعرف^(٤) أن السيدة الجليلة والدتك المملكة — قديس الله روحها — التي كانت كثيرة الحب لي ، سألتني ملحة أن أضع لها كتاباً

(١) يقصد بذلك لويس العاشر بن فيليب الجليل ، راجع فيما بعد فقرة رقم ٣٧ .
(٢) تعتبر كونتية شمبانيا من أهم كونتيات فرنسا وأغناها ، وكانت تتألف في منتصف القرن الثالث عشر — زمن أحداث هذه المذكرات — من ست مقاطعات رئيسية هي مقاطعة جواني (التي ضمت إليها سنة ١٢٠١) والتي خرج منها جوانفيل صاحب هذه المذكرات ، ومقاطعة جرانديبريه Grandpré (١٢١٦) ، ومقاطعات بورسيان Porcien وريثيل Relhel وروسي Rousy وبرين التي ضمت إليها عام ١٢٥٠ ، راجع ذلك بالتفصيل في : Longnon : Etudes sur les Pays de la Gaule ; Histoire des ducs et des Comtes de Ghampagne t. VII .

(٣) جاء بعد هذا في نسخة جونز، ص ٣٥٠ « ويدعوه في صلواته أن يكلاًه المسيح بحبه القديس » .

(٤) في جونز، شرحه بعد هذا « أيها المولى الشريف القادر » .

يتضمن ما لم يكنه الراحل القديس لويس من أقوال طاهرة وفعال كريمة^(١) ،
فوعدها الامتثال لأمرها ، وتم الكتاب الآن بعون الله في قسمين : يروى
القسم الأول منهما كيف حكم نفسه طول أيام حياته وفق إرادة الرب
والكنيسة ، وكيف ساس الأمور سياسة انطوت على خير مملكته .

أما القسم الثاني من الكتاب فيسرد أعماله المنطوية على الفروسية ، وفعاله
النابهة في القتال^(٢) .

٣ - مولاي :

لقد جاء في الكتاب المقدس « أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره » ، وهذه
كلها تزداد لكم » ، ولذلك فقد شرعت بادئ ذي بدء في تدوين ما بدا لي أنه
مطابق للأمور الثلاثة السابقة ، أعني ما يتعلق بصلاح الروح وخير الجسد
وحكم الناس .

وقد دونت هذه الأمور الأخرى^(٣) كلها إجلالا لذلك القديس الصادق
لأنها سوف تمكن الناس من أن يروا بجلاء أنه^(٤) لم يوجد قط في أيامنا
رجل علماني عاش العيشة الطاهرة التي عاشها الملك لويس منذ بداية حكمه حتى
ختام حياته .

(١) في Op.cit. loc. cit. « وقد حمى على ذلك ما عرفته من تفاني في خدمته تفاني
الطبع الحب » .

(٢) إنجيل متى : ٣٣/٤ .

(٣) يعني بذلك جميع الأعمال غير الحربية وإن كانت كلمة « الأخرى » محذوفة في الترجمة
الإنجليزية .

(٤) جاءت هذه العبارة على النحو التالي في « م » ، ص ١٣٥ ، س ٢٨ « لم يسلك
أي رجل علماني في وقتنا عيشة طاهرة جميع أيامه حتى منذ بداية حكمه إلى ختام حياته » .

لم أكن حاضراً ساعة وفاته ، ولكن ابنه بطرس كونت ألبانسون^(١)
الذى أحببني كثيراً كان موجوداً إذ ذاك وأنبأني بالنهاية السعيدة التى صادفها
الملك مما ستراه فى ختام هذا الكتاب^(٢) .

من أجل هذا فإنه يخيّل إلى أنه لم يُقدّر التقدير الكافى من أولئك
الذين لا يدرجونهم فى عداد الشهداء بعد وقوفهم على خبر الآلام العظيمة التى
التى تحملها فى حجة الصليبي خلال السنوات الست التى رافقته فيها ، ورأيت على
الأخص خلالها يقتفى خطى سيّدنا فى مسألة الصليب .

فإذا كان السيد قد مات على الصليب ، فقد لقي الملك القديس نفس
الميتة ، لأنه كان صليبياً يحمل الصليب على صدره حين وافاه الأجل
فى تونس^(٣) .

* * *

٦— أما الكتاب الثانى فسيحدثك عن أعمال بطولته المنطوية على
الفروسية وعن بسالته، حتى لقد رأيت يعرض نفسه لخطر الموت أربع مرات —
كما ستسمع — لتخليص رجاله من الأذى .

. صور من تقواه .

٧— كانت أول مرة عرض نفسه فيها لخطر الموت حين أصبحنا أمام دمياط،

(١) راجع عنه القترات ٥١٤ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٢) راجع رقم ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٣) يقصد بذلك حملته الصليبية على تونس التى شنها عام ٦٦٨ هـ (= ١٢٧٠ م) ،
وانتهت بعوته هناك وفشل فرنسا فى الاستيلاء عليها ، راجع المقرئى : السلوك لمعرفة دول
الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

فقد سمعت أن جميع من حوله من أهل الرأي محضوه النصح بالبقاء في سفينته حتى يرى مصير فرسانه الذاهبين إلى الشاطئ .

٨- وقد حملهم على إسداء هذه النصيحة إليه من أنه لو أرسى وإياهم ثم قتلوا وقتل هو معهم فمعنى ذلك القضاء المبرم على الحملة ، أما إذا بقي حيث هو على سفينته فإنه يتمكن من معاودة فتح مصر بنفسه ، لكنه لم يُعِرهم أذناً صاغية بل قفز إلى الماء وهو في كامل عدته ، ودرعه حول عنقه ، ورمحه في يده ، وكان هو أحد الأوائل الذين مسّت أقدامهم الساحل .

٩- أما المرة الثانية التي عرض نفسه فيها لخطر الموت فكانت حين رحيله عن المنصورة قاصداً دمياط ، إذ نصحه مشيروه — كما فهمت — بالذهاب إليها في أحد الأغربة ، وقيل إن السبب في إشارتهم عليه بذلك هو أن يتمكن من إطلاق سراح رجاله من ربة الأسر إن ألمت بهم كربة .

١٠- أضف إلى هذا أنهم نصحوه بذلك لما رأوا ما هو عليه من الضعف الناجم عن الأمراض العدة التي نخرت جسمه ، فقد عاودته الحمى الثلاثية مرتين ، واعتزته الدوسنطاريا الحادة ، وأصابه المرض المتفشي بالجيش^(١) في فمه وساقيه ، ولكنه لم يستجب لأحد ما بل قال إنه لن يترك رجاله أبداً ، ولا بد له من أن يشاركهم نفس المصير الذي سوف يلقونه ، وأصبح من الضروري لسبب ما به من الدوسنطاريا قطع الأجزاء السفلى من سراويله ، كما تعددت

(١) سيسميـه جـوانفـيل — كما وردت الإشارة إليه — بمرض الجيش ، وقد شرحه هو بنفسه فذكر أنه عبارة عن تضخم في اللثة شديد الألم ، وقروح في الساقين ، وكان علاجه قمح اللحم المتراكم .

مرات إغمائه بسبب الألم الشديد الذى انتابه من مرض الجيش ، كما ستعلم فيما يعد .

١١— أما المرة الثالثة التى عرض نفسه فيها لخطر الموت فكانت حينما أقام أربع سنوات فى الأرض المقدسة بعد عودة إخوته إلى فرنسا، وكنا إذ ذاك فى خطر مقيم نتوقع الموت ، حيث لم يعد بصحبة أثناء تلبثه بعكا سوى رجل مسلح واحد مقابل ثلاثين ممن لدى أهل عكا بعد استيلاء المسلمين عليها .

١٢— ولست أدري السبب الذى حال بين الأتراك^(١) وبين الهجوم علينا حينذاك فى المدينة وأسرنا بها إلا أن أعزو ذلك إلى حب الرب للملك ، فقد بث الخوف فى قلوب أعدائنا فلم يجرؤوا على مهاجمتنا مصداقاً لما هو وارد فى الكتاب المقدس : « إذا كنت تخاف الله فسيخافك الجميع » .

ومن ثم لبث الملك فى الأرض المقدسة رغم نصيحة مشيريه— كما ستسمع — معرضاً نفسه للخطر، دفاعاً عن أهل تلك البقعة الذين كان لابد وأن يهلكوا لو لم يبق الملك معهم .

١٣— أما المرة الرابعة التى عرض نفسه فيها للخطر فكانت فى طريق عودتنا من الأرض المقدسة ، إذ حدث حين وصولنا أمام جزيرة قبرص أن ارتطمت سفينتنا ارتطاماً خطيرة بصخرة قدقها مسافة ثلاث ياردات من القاعدة التى بنيت عليها .

١٤— حينذاك أرسل الملك فى طلب أربعة عشر ملاحاً من كبار الملاحين

(١) يعنى بذلك جماعة المالك :

الذين في صحبته ^(١) ، سائلاً إياهم أن يشيروا عليه بما ينبغي عليه عمله ، فانهقد
إجماعهم على نصحه ^(٢) بالانتقال إلى سفينة أخرى لأنهم لم يروا كيف تستطيع
السفينة المعطوبة ^(٣) مقاومه ضربات الأمواج بعد أن فُكَّت المسامير التي كانت
تشد ألواحها بعضها إلى بعض ، وبيدوا للملك بالأمثلة مدى الخطر المحدق
بالمركب ، مخبرين إياه عما جرى أثناء سفرنا إلى الأرض المقدسة حيث غرقت
السفينة التي أصابها ما أصاب هذه السفينة الآن .

ولقد رأيت بنفسى فى مركب « جَوَانِي » امرأة وطفليها هما كل من
قدّر له النجاة من بين ركابها .

١٥— فلما فرغوا من قولهم أجابهم الملك « أيها السادة إننى أعرف أن
سيهجر هذه السفينة الأشخاص الثمانمائة الذين عليها لو أننى غادرتها ، ولما كان
كل واحد منهم يحب نفسه حبى أنا لنفسى فلن تواتى الشجاعة أحدهم على البقاء
بها بعد مغادرتى إياها ، بل سيقيمون جميعاً فى قبرص ، ولهذا السبب -
ومرضاة للرب - فإننى لن أعرض لخطر الموت أناساً كثيرين كالذين هنا ،
بل سأبقى حيث أنا لإيقاظ جماعتى » .

١٦— ومن ثم أقام حيث هو ، وحفظنا الرب الذى كانت ثقته به عظيمة
مدة ستة أسابيع من أخطار البحر ، حتى تهيأ لنا الوصول أخيراً إلى مرفأ
أمين ^(٤) .

(١) فى نسخة م ، ص ١٣٧ ، س ٢٢ - ٢٤ « ثم بعث الملك فى طلب أربعة عشر ملاحاً
من كبار ملاحى هذه السفينة أو غيرهم ممن فى صحبتها » .
(٢) بعدها شرحه ، س ٢٥ . « كما ستعلم فيما بعد » .
(٣) هذه الصفة محذوفة من م ، ص ١٣٧ ، س ٢٦
(٤) شرحه ص ١٣٨ ، س ١ « كما ستسمع » .

بهذا^(١) أنقذ الملك من الخطر الثمانمائة شخص الذين كانوا بالسفينة ،
وقد حدث أن ترك « أوليفر دى تيرم » الملك وراءه وأقام فى قبرص ولم نره
مدة عام ونصف عام .

وكان أوليفر هذا قد برهن من قبل على سلوك كريم وشجاعة فائقة .

١٧— وسنتكلم فى القسم الأخير من هذا الكتاب عن نهاية الملك وكيف
مات ميتة كريمة طاهرة .

١٨— والآن فإنى مخبرك ياسيدى اللورد وياملك نفارة أننى كنت قد وعدت
سيدتى الملكة والدتك — عليها رحمة الله ورضوانه — بتأليف هذا الكتاب،
فدوتته وفاء بوعدى لها ، ولست أرى أحداً أحق منك — وأنت وريثها —
بأن أرسلك إليه هذا الكتاب لتقف عليه أنت وإخوتك وغيركم ممن سيسمعه
مقروءاً ، ولتتخذوا منه قدوة ، وتضربوا أمثلة من ذاتكم للعمل الطيب
فتدركون عطف الرب .

* * *

(١) العبارة فى شرحه ، ص ١٣٨ ، ص ٥ — ٦ .

الكتاب الأول

فضائل القديس لويس

١٩ - باسم الله القوي أملى أنا - جون لورد جوانفيل سنكال شمبانيا - قصة حياة مليكنا المقدس لويس ، مضمنا إياها ما رأيته وسمعته في مدى السنوات الست التي رافقته فيها في الحج إلى الأراضى المقدسة ، وأملى أيضاً ما رأيته وسمعته بعد رجوعنا ، وسأخبرك بتعاليمه الخيرة وكلماته القدسية قبل استعراض عظيم فعاله وبسالته .

٢٠ - كان هذا الرجل القديس يحبّ الرب بكل قواه ويقتنى خطاه في جميع أعماله ، وكما مات السيد من أجل حبه لشعبه كذلك عرض القديس لويس نفسه للخطر من أجل حبه هو الآخر لشعبه ، بينما كان في مقدوره تجنب هذا الخطر كما سنخبرك فيما بعد .

٢١ - وقد تجلّى حبه الشديد لشعبه حين اشتدت به العلة في «فونتنبلو» شدة أنذرت بالخطر، إذ استدعى إليه ابنه الأكبر مولاي لورد لويس وقال له : «أتوسل اليك يا ولدى العزيز أن تجعل نفسك جديراً بحب أهل مملكته ، فإننى أوثر - صدقاً - أن أرى أسكتلندياً يأتى من اسكوتلانده أو من أى بلد بعيد، ويحكم أهل المملكة حكماً طيباً عادلاً عن أن أراك أنت تدير أمورها تديراً يكون قذى في عيون الجميع» .

وهكذا كان الملك القديس يحب الحق حباً شديداً ، حتى إنه - كما ستعلم فيما بعد - لم يرض مطلقاً أن يكذب على المسلمين أو يتراجع في أى اتفاق اتفق وإياهم عليه (١) .

٢٢- أما فمه فكان طاهراً على الدوام ، فلم يأت له أبداً أن أسمع طالبا طعاماً معيناً أو شراباً خاصاً كما يفعل كثير من الأغنياء ، ولكنه كان يُقبل راضياً على تناول كل ما يعده له طهاته ويقدمونه إليه .

وكان عفيفاً في كلامه ، فلم أسمع في يوم من أيام حياتي يغتاب أحداً ، ولم تجر أبداً على لسانه كلمة « الشيطان » ، وهو لفظ شائع الاستعمال في كافة أرجاء المملكة ، بينما أعتقد أن الرب غير راض عن هذا الأمر (٢) .

٢٣- وكان يشعشع الخمر بالماء بقدر يتلاءم مع قوة الشراب وتأثيره، وحدث ذات مرة ونحن في قبرص أن سألني لم أشرب النبيذ صرفاً صراحاً ، فأخبرته إنني أفعل ذلك استجابة لنصيحة الأطباء الذين أخبروني أن لي رأساً كبيرة ومعدة قوية فلا يتسنى للخمر أن تلعب برأسي ، فأجابني بأنهم خدعوني ، ونصحتني أن أمزجها بالماء ، لأنني إذا لم أعتد هذا في أيام شبابي ثم حاولته على كبريُ بليت بمرض النقرس وغيره من أمراض المعدة ، ولن أعرف العافية بعدئذ أبداً .

أما إذا دأبت على شرب الخمر الصراحية في شيخوختي فسأيت كل ليلة نخبوراً ، وإنه لما يقدح في كرامة الرجل الفاضل أن يمسى صريع الشراب .

(١) راجع فيما بعد الفقرتين ٣٨٧ ، ٧٦٤

(٢) راجع فيما بعد الفقرة رقم ٦٨٧

٢٤ — وسألني [مرة أخرى ^(١)] عما إذا كنت أريد أن أكون موقراً في هذه الدنيا وأن تكون الجنة مثواي عند موتي فأجبتة نعم ، فقال لي « إذن نزه نفسك وصن لسانك عن ارتكاب موبقة أو التفوتة بقول إذا ذاع خبرها أخجلت أن تقول نعم فعلته ، أو أجل قلته » .

ونهاني نهياً باتاً عن أن أكذب أو أفند في خشونة أي شيء يقال في حضرتي ، اللهم إلا إذا كان الصمت خطيئة أو كانت فيه مضرة تحوق بي ، وذلك لأن الكلمات الخشنة كثيراً ما تؤدي إلى معارك تسيل فيها الدماء ويلقى فيها الآلاف حتفهم .

٢٥ — وقال أيضاً أن واجب كل شخص أن يلبس ويدرع ما يلائم منزلته و ثروته كي لا يدع مجالاً لتقريعه من كبار المكانة والسن ، فيشيرون إليه قائلين إنه أسرف كل الإسراف ؛ أو أن يحمل الشباب على أن يقولوا « هذا الرجل قتر على نفسه كل التقدير » ، فتضيع مكانته في المجتمع .

ويذكرني هذا بأن السيد الملك — والد الملك الحالي — كان يتكلم عن أبهة الملابس وسترات الأسلحة المزركشة التي عم انتشارها في أيامنا هذه في صفوف الجيش . ولقد ^(٢) أخبرني الملك الحالي أنه أثناء وجوده بالأراضي المقدسة مع أبيه وجيشه لم تقع عينه قط على سترة مزركشة أو سرج مطرز في حوزة أبيه الملك أو أي لورد من لورداته ، فقال إنه أخطأ في تزيين أسلحته وأن لديه

(١) غير الواردة في م ، س ١٤٠

(٢) هذه العبارة واردة في م ، س ١٤٠ ، س ٢٨ - ٢٩ على الصورة التالية : « ولقد أخبرته أنني لم أرقط - أثناء رحلتنا فيما وراء البحار - ألبسة حرب مزركشة للملك أو لغيره » .

بعض سترات كلفته ثمانمائة دينار بباريسى ، فأخبرته أنه أجدى عليه لو تصدق
بها وخاط ستراته من « الستان » الجيد كما كان يفعل أبوه من قبل .

٢٦— وفى ذات مرة استقدمنى الملك إليه لمحادثة قائلاً لى : « إننى لا أجرؤ على
الكلام معك فى الأمور المتعلقة بالرب لما أعرفه فيك من قوة الفهم ، لذلك
استدغيت هذين الراهبين الموجودين هنا ، وإنى لأسألك أمامهما أيها السنكال
سؤالاً يتعلق بالله : ماهى ماهية الرب ؟ »

فأجبتة : « إنه الخير كل الخير ولا خير يشأوه بامولائى » ، فقال : « الحق
أقول لك ، لقد قلت قولاً سيديداً لأن إجابتك هذه واردة فى هذا الكتيب
الذى بيدي . »

٢٧— ثم قال : « والآن فإنى مُلق عليك سؤالاً آخر ، أيهما تؤثر أن تكونه :
« أمتلى بالبرص ؟ أم مرتكباً للمصيبة ؟ أو موشكاً على ارتكابها ؟ » فأجبتة
— أنا الذى لم أكذب عليه قط — « إننى أؤثر أن أرتكب ثلاثين خطيئة
مهلكة من أن ابتلى بالبرص . »

فلما انفصل عنا الراهبان استدعانى إليه على انفراد وأجلسنى عند قدميه
وقال لى : « كيف جرؤت على أن تقول لى ما قلته بالأمس ؟ » ، فأجبتة إنه
لو قدر لى أن أجيب على هذا السؤال مرة أخرى لاصطنعت نفس الرد ، فقال
« إنك لتنطق عن حق وجنون ، ولقد خدعتك نفسك لأنه يجب أن تعرف
أنه ليس من برص أقبح وأخزى من الخطيئة الكبرى ، كما أن الروح التى
دنستها الخطيئة أشبه ما تكون بالشیطان فى الجحيم . »

٢٨— « ومن نافلة القول وصدقه أن البرص يزایل المرء حين موته ، أما الخاطيء

فلا يعرف على وجه التحقيق عند قبض روحه عما إذا كان قد كفر في حياته عن خطيئته وتاب عنها توبة نصوحا غفر الله له من أجلها ذنبه ، ومن ثم تراه في هول مقيم مخافة أن يظل برص المعصية ملازماً له طيلة بقاء الرب في الجنة ، لذلك ألتبس منك أولاً بحق حبك للرب وحبك إياي أن تستوعب في قلبك أن أقبح برص يلم بجسمك هو أهون وقعاً عليك من ارتكابك المعصية .

٢٩ — ثم سألتني بعد ذلك عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء يوم الخميس المقدس فقلت له : « واحرباه ، لم أفعل ذلك ولن أغسل أقدام هؤلاء لأن ذلك يُمرضني » فرد عليّ قائلاً : « لقد قلت شراً لأنه لا يجوز لك مطلقاً أن تتأفف من شيء فعله الرب لتعليمنا ^(١) ، لذلك أتوسل إليك من أجل حبك لله أولاً ، ولى ثانياً، أن تعود نفسك غسل أقدام الفقراء .

* * *

تقديره للفقراء

٣٠ — كذلك كان الملك لويس يحب كل طاهر مؤمن بالله محب إياه، حتى إنه لما سمع بالشهرة الطيبة العظيمة التي يتمتع بها سير جيل دي برون من خشية الرب وحب إياه منحه كونستابلية فرنسا رغم أنه لم يكن من مملكة فرنسا ؛ والواقع أنني أعتقد اعتقاداً جازماً أنه جدير بهذا الصيت الكريم .

٣١ — وحدث نفس الأمر للأخ روبرت دي سوربون إثر ما سمعه الملك عن

(١) جاء بعد هذا في ترجمة جونز ، ص ٣٥٤ مايلى «لأن السيد الذى هو صاحب الكون قام في مثل هذا اليوم — أعني يوم الخميس المقدس — بغسل أقدام جميع رسله قائلاً لهم إنه ينبغي أن يعمل بعضهم مع البعض الآخر بما عمله هو معهم رغم أنه سيدهم » .

صدقه واستقامته [فأخذ أحد^(١) رجال بطانته] وأذن له أن يجالسه إلى مائدته ،
وحدث ذات يوم أن كنت جالساً إلى جوار الأخ روبرت ونحن نتناول الطعام
على خوان الملك الذي رأنا نتحدث معاً في همس فعنفنا قائلاً : [خطأً تفعلان
إذ تهامسان^(٢) ، لكن] ليكن حديثكما بصوت مرتفع حتى لا يذهب الظن
برفاقكما أنكما تتناولانهم بالسوء ، فإذا جلستم إلى الطعام وكان لديكم حديث
بهمج مقبول فأشركا فيه رفقتكم وأسمعهم إياه ، وإلا فأمسكاه عنه ولوذا
بالصمت .

٣٢ — وجرت عادة الملك — إذا كان منشراح الصدر — أن يكثر من سؤالى
فى حضرة الأخ روبرت ، وحدث ذات مرة أن قال لى :

« يا سنكال ، خبرنى عن الأسباب التى من أجلها يكون الرجل السرى
الأخلاق خيراً من الأخ الراهب » ، واحتدم النقاش وطال بينى وبين الأخ
روبرت حتى قال الملك : « أيها الأخ روبرت تمنيت لو أننى مُنِعْتُ بالمستقيم
على أن يطابق الخبر الخبر ، أما ما يتبقى بعد ذلك فخذ لك ، لأن الاستقامة والظهر
أمران جليلان ورائعان حتى أنهما ليملاآن الفم زهواً حين ينطق بهما » .

٣٣ — ثم أضاف إلى ذلك قوله « وعلى العكس من ذلك فإن أشد
خروب الإثم هو سلب الآخرين حقوقهم ، وهذا هو ما يفعله الشيطان فى خبث ،
لأنه يشغل كبار المرايين واللصوص فيجعلهم يعطون الله ما كان ينبغى عليهم
رده إلى الناس » .

(١) لم ترد هذه العبارة فى م .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى نسخة ويلى ولا فى م ، فأضيفت من جونز ، ص ٣٥٩ .

٣٤ — وحدث أن طلب إلى أن أنوب عنه في تحذير الملك ثيبوت^(١) في أنه ينبغي عليه أن يأخذ حذرَه من بيت « الآباء المبشرين » في بروفس الذي كان يبنيه إذ ذاك ، فلا يظلم روحه من جراء ما يصرفه على هذا الدير من مبالغ جسيمة ، إذ ينبغي على نظار الأموال أن يسلكوا في حياتهم مسلك منفذ الوصية الذي يتحتم عليه قبل كل شيء أن يسدد كل ديون الميت فيدفع لكل ماله ، حتى إذا فرغ من ذلك كله استطاع أن يتزكى بما يتبقى من أملاك الراحل .

رأيه في ملابس الناس

٣٥ — كان الملك القديس ذات يوم من أيام عطلة عيد العنصرة في كوربيل في ثمانين فارساً ، فلما فرغ من تناول الغذاء نزل إلى الساحة الواقعة دون الكنيسة ووقف عند بابها يتحدث مع كونت بريتاني - أبي الكونت الحالي^(٢) حفظه الله - وحينذاك قدم الأخ روبرت دي سوربون مفتشاً عنى هناك ، وجذبني من أطراف عباةتي وأخذني إلى حضرة الملك وفي إثرنا بقية الفرسان ، وإذا ذاك قلت للأخ روبرت « ماذا تريد أن تفعل بي يا سيد روبرت ؟ » .

فقال : « أريد أن أسألك أترك تستحق اللوم إذا ما جلس الملك في هذه الساحة على حين تجلس أنت على أريكته وأصبحت تعلوه » فقلت له « أجل ، بكل تأكيد » .

(١) هو زوج ابنة الملك لويس التاسع .

(٢) يقصد بكونت بريتاني جون الأول (ت أكتوبر ١٢٦٨) ، أما ابنه فيعرف بحون الثاني المتوفى عام ١٣٠٥ ، والإشارة إليه بأنه كان لا يزال حياً تبين متى كتبت هذه الفقرة على الأقل ، راجع المقدمة .

٣٦ - فقال لى : « إذن فأنت أجدر باللوم حين ترتدى من الثياب ما هو أغلى من ثياب الملك فتتدثر بالفراء والملابس الخضراء ، بينما لا يفعل هو ذلك » فأجبتة « يا سيد روبرت إننى لم أفعل شيئاً استحق عليه الملامة لأن لما تراه على من فراء وثياب خضر ليس بالجديد على فقد خلفه لى أبى وأمى ، بيد أنك أنت المعلوم لأنك ابن لرجل وامرأة من عامة الناس ، ولكذك هجرت زى أبيك وأهلك ورحلت ترتدى ملابس صوفية أغلى مما يرتديها الملك نفسه » ، ثم أمسكت بطرف معطفه مقارناً إياه بمعطف الملك وقلت له : « أنظر أترانى كاذباً فيما قلت ؟ » وإذ ذاك انبرى الملك للدفاع عن الأخ روبرت بكل قواه (١) .

٣٧ - بعد الفراغ من هذا النقاش بعث مولاى الملك فى استدعاء ابنه سيدى لورد فيليب وهو أبو الملك الحالى الجالس على العرش وكذلك الملك ثيبوت وجلس هو ذاته عند مدخل محرابه معتمداً على الأرض بيده وقال لهما : « اجلسا على مقربة منى كى لا يسمع أحد ما يدور بيننا من حديث » فأجاباه : « لعلك تعقينا يا مولانا من هذا لأننا لا نجرؤ على الجلوس جد قريبين منك » ، فأتجه الملك نحوى قائلاً : « يا سنكال اجلس هنا » ففعلت ما أمرنى به واقتربت حتى مسّ ثوبى ثوبه ، وإذ ذاك اقتعدا - بأمره - مكاناً ورائى وقال لهما « لقد سلكتما أسوأ مسلك إزائى ، فأنتما ابنائى ولكنكما لم تبادرا إلى تلبية أمرى لأول وهلة ، ألا فاستمعا لى ، إننى أرجو ألا يقع ذلك منكما مرة أخرى » ، فقالا إن ذلك لن يتكرر ثانية .

(١) جاء بعد ذلك فى جوتز ، ص ٣٥٧ « مبيناً ما عليه روبرت من شدة التواضع ومشيداً برحمته على الجميع » .

٣٨ — ثم التفت إلى ذاكرأ أنه استدعانا جميعاً إليه ليعترف لنا بخطئه في الدفاع عن الأخ روبرت وقال « ولكن رأيت أنه قد غلب على أمره حتى أصبح في مسيس الحاجة إلى مساعدتي إياه ، ومع ذلك فيجب عليك ألا تفكر فيما قلته في معرض الدفاع عنه ، لأن الأمر لا يخرج عما قاله السنكال من أنه ينبغي عليكم أن تلبسوا من الثياب الجيد الملائم حتى يزداد حب زوجاتكم لكم ، ويزداد احترام الناس لكم ، لأن ملابسنا — كما يقول الحكيم — ينبغي أن تكون على الصورة التي إذا رآها المسنون الفضلاء لم يظنوا أننا أسرفنا فيها ، وإذا رآها الشباب لم يرمونا بالتقتير . »

. . .

تحذير الرب وتحوله إلى خير

٣٩ — وستقف هنا على درس من الدروس التي لقنني إياها ونحن بالبحر حينما كنا عائدین من وراء البحار ، فقد حدث أن هبت ریح خفيفة تسمى « بالجريان » ليست واحدة من الرياح الأربع الكبرى جعلت سفينتنا تتجبح أمام جزيرة قبرص ، فما كادت الصدمة تصيبها حتى تسرب اليأس إلى نفوس ملاحينا فشقوا ثيابهم وشدوا لحاهم ، فوثب الملك من فراشه حافى القدمين لأن الوقت كان ليلاً وليس عليه من الدثار سوى قميصه ، وانطلق لتوه إلى حيث تمثال سيدنا وانبطح على الأرض أمامه على هيئة الصليب مثل رجل لا يتوقع غير الموت .

وفي اليوم التالي لوقوع هذا الحادث استدعاني إليه على انفراد وقال لي « يا سنكال ، لقد أرانا الرب قلامة ظفر من عظيم بأسه ، إذ بعث إحدى تلك الرياح التي بلغت من التفاهة حدأ لم يكثرث معه الناس في الاتفاق على

تسميتها ، لكنها أوشكت أن تفرق ملك فرنسا وأطفاله وزوجته ورجاله ،
ويفسر القديس أنسلم هذه الأمور بأنها تحذيرات من سيدنا كأن الرب
يريد أن يقول لنا : أنظروا ما أيسر أن أبلوكم بالموت لو أردت ذلك » ،
ويقول القديس^(١) « أيها السيد الرب ، لماذا تهددنا بهذه الصورة ، أن تهددك
إيانا ليس بمجديك نفعا وليس بخيرك ، لأنك لو قضيت علينا جميعا لما كان
أفقر منك ولو انقذتنا جميعا لما كان هناك أغنى منك ، ومن ثم فإن تحذيرك
ليس لنفك بل لنفعنا^(٢) نحن لو أدركنا مرماه » .

٤١ — فلنتخذ من هذا التحذير الذي ساقه لنا الرب عبرة في وجوب مبادرتنا
إلى إزالة أى شيء نحسه في قلوبنا أو أجسامنا قد يفضب الرب ، فلو فعلنا
ذلك فإن الرب سيفقد علينا رحماته في هذه الدنيا ، وستكون نعمه علينا في العالم
الآخر فوق كل تصور ، أما إذا لم نفعل ذلك فإنه سينزل بنا ما ينزله السيد
الصالح بخادمه اللثيم الذي إن لم يجده التحذير نفعا في تقديم نفسه عاقبة مولاه
بالموت أو بما هو أسوأ من الموت » .

٤٢ — فليكن هذا تحذيرا للملك لأنه نبى من خطر كبير يعادل ما كنا فيه أو
ربما أكبر ، ومن ثم فدعه يتخلص من فعالة الشريرة حتى لا يقتليه الله ببلاء
شديد في نفسه أو فيما يملكه يداه .

(١) في جونز ، ص ٣٥٨ « وأضاف الملك الصالح إلى ذلك قائلا » .

(٢) هكذا في الأصل ولست أدري المعنى المقصود من ذلك .

رأيه في العقيدة

٤٣ — لقد بذل الملك التقي قصارى جهده كما تستمع حالا لتثبيت إيماني بالعقيدة المسيحية التي منحنا إياها الرب ، وقال : إنه يجب علينا أن نؤمن بإيماننا قوياً بمواد الإيمان ، فلا نفعل فعلاً أو نقول قولاً منافياً له خوف الموت أو أى ألم يلمّ بالجسد ، وقال : إن عدو الإنسان [وهو الشيطان ^(١)] خبيث جداً حتى إنه ليبذل قصارى جهده ليشتبكك مَنْ على فراش الموت في بعض مواد الإيمان ، وهو يفعل ذلك لأنه يدرك تمام الإدراك عجزه عن حرمان الشخص من الأعمال الطيبة التي عملها ، ويعرف أيضاً أنه لا حكم له على المرء لو أنه مات في ظل الإيمان الحقيقي ^(٢) .

٤٤ — ومن ثم فإنه يتحتم على كل فرد منا أن يحافظ على نفسه ويدافع عنها ضد هذا العدو حين يدرك أنه يريد إدخاله في تجربة قاتلة له : « أغرب عني فلن تستطيع غوايتي فتحملني على أن أكف عن الاعتقاد المتين بجميع مواد الإيمان ، وسأحيي وأموت في ظل الإيمان ^(٣) حتى ولو بدت جميع أطرافي » .

فإن فعل المرء هذا الفعل قهر العدو مهما كان سلاحه الذي يريد أن يصرفه به .

٤٥ — وقال ^(٤) : إن الإيمان والعقيدة المسيحية أمران يجب أن نعتقد فيهما اعتقاداً جازماً حتى ولو لم نكن متأكدين منهما إلا بالسمع .

(١) ما بين الحاصرتين وارد في جونز ، ص ٣٥٩ .

(٢) في جونز ، شرحه ، « الإيمان الكاثوليكي » .

(٣) راجع فيما بعد الفقرة رقم ٧٧٥

(٤) يعني بذلك الملك لويس نفسه .

ولما وصل إلى هذه النقطة سألتني ما اسم أبي فأخبرته أن اسمه سيمون ،
فقال : « وكيف عرفت ذلك » فقلت : « إنني واثق من ذلك تمام الثقة
ومعتقد إياه كل الاعتقاد ، لأن أمي شهدت بذلك^(١) ، وأخبرتني به مراراً » ،
فقال لي : : « هكذا يجب عليك أن تؤمن بجميع مواد الإيمان التي كان الرسل
عليها شهوداً كما تنشد يوم الأحد في العقيدة » .

وليم أسقف باريس

٤٦ — وأخبرني أن وليم^(٢) أسقف باريس ذكر له كيف جاءه ذات يوم سيد
كبير من رجال اللاهوت سائلاً إياه أن يأذن له بمحادثته ، فقال له الأسقف :
« هات ما عندك أيها السيد » ، فلما شرع الرجل في الكلام استخرط باكياً
بكاءً حاراً ، فقال له الأسقف : « تكلم يا صاح ولا تيأس فغفو الرب أكبر
من ذنبك مهما جلّ ذنبك » ، فأجابه الآخر : « أحب أن أقول لك إنه
ليس أمامي من سبيل سوى البكاء خشية أن أكون كافراً لأنني لا أستطيع
أن أحمل قلبي على الاعتقاد في القربان المقدس الموضوع على الهيكل كما
علمتنا إياه الكنيسة المقدسة ، ومع ذلك فإنني واثق تمام الثقة أن هذه تجربة
أدخلني فيها العدو » .

٤٧ — فقال له الأسقف : « خبرني أيها السيد ، هل تشعر بالراحة حينما يدخلك

(١) راجع الفقرة رقم ٧٧١

(٢) هو وليم الثالث المعروف باسم d'Auvergne وقد كان أسقف مدينة باريس من

سنة ١٢٢٨ حتى ١٢٤٨ م .

العدو في هذه التجربة ؟ » فأجابه : « كلا يا سيدي ، بل إنها لتعذبني شأنها في ذلك شأن أي ألم آخر » فقال له الأسقف : « والآن فإني أسألك عما إذا كنت قد نطقت — بدافع من إغراء المال — نطقاً يعتبر قذفاً في تناول القربان أو في أي سر من أسرار الكنيسة المقدسة الأخرى ؟ » .

فقال له : « أحب أن تعلم يا سيدي أنه لا يوجد شيء أبداً في العالم يستطيع إغرائني على إتيان ذلك الأمر ، وإنه لأهونُ على نفسي أن يتمزق جسدي إرباً إرباً من أن أرتكب مثل هذا المنكر » .

٤٨ — فقال له الأسقف : « والآن سأقول لك شيئاً آخر : إنك تعرف أن ملك فرنسا في حرب مع ملك إنجلترا ، وتعرف أيضاً أن القلعة الواقعة على حدود الاثنين هي قلعة « روشل »^(١) أن بواتو » فهل إذا عهد الملك إليك بحراسة تلك القلعة الواقعة في تلك المنطقة الخطرة وعهد إلى بحراسة قلعة « مونتليري » التي هي في قلب فرنسا حيث لا خطر يهددني ، فما ظنك — حين تضع الحرب أوزارها — لمن سيكون الملك مدينًا أكثر : ألك أنت الذي قمت بحراسة قلعة بواتو أم لي أنا الذي قمت بحراسة قلعة مونتليري ؟ » .

فأجابه الرجل : « سيكون مدينًا لي — باسم الرب — لقيامي بحراسة قلعة روشل دون أن أخسرها » .

٤٩ — فقال الأسقف : « يا سيدي ، إن قلبي مثل قلعة مونتليري لأنني لم أدخل في تجربة ولم يداخني الشك في أسرار المذبح المقدس ، ومن أجل هذا أخبرك أنه إن كان الرب مدينًا لي لتمسكي بهذا الإيمان واطمئناني إليه فإنه مدين لك بأضعاف هذا الدتن ، لأنك حافظت على قلبك وسط حرب البلية ولأن عندك طوية كريمة نحوه ، فلم تتخل عن إيمانك جرياً وراء نفع دنيوي أو خشية

(١) Rochelle - en - Poitou .

أَذَى يَلْمُ بِجَسَدِكَ ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَقُولُ لَكَ كُنْ مُطْمَئِنِّ الْبَالُ قَرِيرَ الْعَيْنِ لِأَنَّ
حَالَتَكَ هَذِهِ تَسِرُ الرَّبُّ أَكْثَرَ مِنْ حَالَتِي أَنَا .

فَلَمَّا سَمِعَ الرَّجُلُ هَذَا الْقَوْلَ رَكَعَ أَمَامَ الْأَسْقَفِ وَأَحْسَنَ بِالطَّمَأْنِينَةِ .
تَغْمِرُ نَفْسَهُ .

إِيمَانُ دِي مونتفورت وعدم جدوى مجادلة اليهود

٥٠- أَخْبَرَنِي الْمَلِكُ الْقَدِيسُ^(١) أَنَّ فِئَةً كَبِيرَةً مِنْ جَمَاعَةِ الْأَلْبِيْجَنْسِيِّينَ جَاءُوا
إِلَى كُونْتِ دِي مونتفورت ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُتَوَلِّيًا أَمْرًا وَلَا يَتَّهِمُ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ
وَسَأَلُوهُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ لِرُؤْيَا جَسَدِ سَيِّدِنَا الَّذِي اسْتَحَالَ إِلَى لَحْمٍ وَدَمٍ فِي يَدِي
الْقَدِيسِ ، فَقَالَ لَهُمُ الْكُونْتُ دِي مونتفورت : « اذْهَبُوا أَنْتُمْ وَشَاهِدُوهُ
بِأَنْفُسِكُمْ يَا مَنْ كَفَرْتُمْ بِهِ ، أَمَّا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ لِأَنِّي شَدِيدُ الْإِيمَانِ بِهِ وَفَقِ
تَعَالِيمِ الْكَنِيسَةِ الْمُقَدَّسَةِ بِشَأْنِ أَسْرَارِ الْمَذْبَحِ الْمُقَدَّسِ ، وَلَسَكُنْ هَلْ تَعْلَمُونَ
مَاذَا سَيَكُونُ كَسْبِي فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ الَّتِي آمَدْتُ فِيهَا وَفَقِ
تَعَالِيمِ الْكَنِيسَةِ الْمُقَدَّسَةِ ؟ إِنِّي سَأَحْظِي بِتَاجٍ فِي السَّمَوَاتِ أَعْظَمُ مِنْ تَاجِ
الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَرَوْنَ الرَّبَّ وَجْهًا لَوَجْهِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَّا
الْإِيمَانُ بِهِ^(٢) » .

(١) يُسْتَفَادُ مِنْ رِوَايَةِ Giovanni Villani, l, ch.7 أَنَّ هَذَا الْحَادِثَ حَدَثَ لِلْمَلِكِ
لُوِيْسِ الثَّامِسِ نَفْسَهُ وَلَيْسَ لَكُونْتِ دِي مونتفورت ، رَاجِعْ تَرْجُمَةَ جُونَزْ ، ص ٣٦١ ،
حَاشِيَةُ ١ .

(٢) رَاجِعْ فِيمَا بَعْدَ الْفَقَرَتَيْنِ ٧٧٢، ٧٧٣ .

وحدثني أنه جرى ذات مرة جدال شديد في دير كلوني بين رجال الدين
وجماعة من اليهود ، وحدث أن كان بالدير إذ ذاك فارس تَحَنَّن عليه رئيس
الدير فأجرى عليه به رزقا محبة في الله ، فالتمس الفارس منه أن يأذن له بأن
يكون أول المتكلمين فأجابه بعد لأي ، فوقف متكئا على عكازه ، وطلب من
اليهود أن يدلوه على حبر يكون من أكبر أحبارهم وأعلمهم فدلوه عليه ،
وإذ ذاك سأله قائلا : أسألك أيها الحبر عما إذا كنت تؤمن بأن العذراء مريم
التي حملت الرب في جسدها وبين ذراعيها كانت لا تزال عذراء حين وضعتَه ،
وأنها أم الرب ؟ » .

٥٢ — فأجابه اليهودي أنه لا يعتقد قط في شيء من هذا القبيل ، فقال الفارس
إذ ذاك إن اليهودي سلك مسلك الفبي إذ لم يتورع رغم عدم إيمانه بها أو حبه
إياها عن دخول دبرها وهيكلها وقال « الحق أقول لك إنك ستدفع الثمن
غاليا » .

ثم رفع عكازه وضرب اليهودي ضربة أصابته بجوار أذنه فجندله أرضا ،
وإذ ذاك انطلق اليهود هاربين حاملين كبيرهم دامي الجراح . وهكذا انتهى
الجدل .

٥٣ — حينذاك جاء رئيس الدير إلى الفارس وأخبره أنه ارتكب حماقة كبرى ،
فرد عليه الفارس بأنه هو ذاته قد فعل فعلا أشد شناعة حين جمع الناس لمثل
ذلك الجدل لكثرة من كان موجودا إذ ذاك من المسيحيين الطيبين الذين
غادروا المكان قبل نهاية المناقشة وقد كاد إيمانهم أن يتزعزع لعدم فهمهم
ما قاله اليهود تمام الفهم .

ثم قال الملك « وأحب أن أخبرك أنه لا يجوز لأحد أن يناقش اليهود إلا إذا كان خبيراً علامة ، أما الرجل العلماني فلا يملك من وسائل الدفاع عن العقيدة المسيحية — إن أمىء إليها — إلا سيفه يطعن به المجدف ، ويظل يدخله في جسده إلى أقصى ما يمكن للسيف أن يدخل » .

...

تقواه وعدله في بلده

٥٤ — كان العرف قد جرى في وطنه أن يستمع كل يوم إلى أغنية الساعات وإلى قداس Requiem دون نشيده ، فإذا كان الوقت ملائماً استمع إلى قداس اليوم أو قداس القديس مع أغنية .

وكان يذهب كل يوم للاستراحة في فراشه بعد تناول الطعام فإذا نام واستراح أنشد هو وأحد قسيسيه في حجرتة نشيد الموتى ، وذلك بعد سماع تراتيل صلاة الغروب .

٥٥ — وحدث ذات مرة بعد مغادرتنا البحر أن وفد عليه أحد الإخوان الفرنسيين^(١) في قلعة Hyères فقال في موعظته إنه قرأ الإنجيل والكتب التي تتكلم عن الحكم الوثنيين فلم يلحظ قط بين المؤمنين أو الكفرة أن قد هلكت مملكة أو بدلت حكماها إلا وسبق ذلك ضياع العدل فيها ، ثم قال « فليأخذ الملك الذهاب إلى فرنسا نفسه بوجوب مراعاة تطبيق العدالة والحكم الصالح بين شعبه ليكفل سيدنا بقاء مملكته ناعمة بالسلام طيلة أيام حياته » .

(١) هو Hugues de Dignes ، راجع فيما بعد الفقرات رقم ٦٥٧ — ٦٦٠ .

٥٦ — ويقال إن هذا الرجل العادل المستقيم الذى أسدى لذلك هذه النصائح
يرقد فى مرسلها حيث أظهر الله — من أجله — كثيراً من المعجزات العظيمة ،
وعلى الرغم من إلحاح الملك عليه بالبقاء معه إلا أنه لم يقبل أن يطيل إقامته
أكثر من يوم واحد .

كيف حقق العدالة

٥٧ — لم ينس الملك تعاليم الأخ الفرنسيسكانى فأخلص فى حكم بلاده إخلاصاً
يرضى الرب مما ستقف على خبره فيما بعد . فأمر أن يذهب سيدى لورد نيزل^(١)
Nesle وكونت سواسون^(٢) الطيب وأن نذهب نحن الذين كنا حوله بعد
سماع القداس لسماع شكايات الناس عند البوابة المسماة ببوابة التوسلات .

٥٨ — وكان إذا آب من الكنيسة صباحاً^(٣) أرسل فى طلبنا وجلس عند قدم
سريره وأجلسنا جميعاً حوله وسألنا عما إذا كانت هناك شكايات لا يستطيع
حلبها أحد سواه هو شخصياً ، فنسمى له أصحاب الحاجات ، وإذا ذاك يرسل فى
استقدامهم ويسألهم « لماذا لا تقبلون ما يعرضه عليكم رجالى ؟ » فيجيبونه
« لأنهم يقدمون لنا يا مولانا شيئاً ضئيلاً جداً » فيقول « أنكم تحسنون صنعاً
إذا تقبلون ما قديم لكم من اقتراحات وفق رغبات رجالنا » .

(١) هوسيمون كونت نيزل ، وكان أحد أوصياء الملكة أثناء قيام لويس التاسع بحملته
الصليبية على تونس .

(٢) هو جان الثانى المسمى بجان الطيب و Le Béque كونت سواسون من
١٢٣٧ — ١٢٧٠ وكان ابن راءول كونت سواسون من زوجته الثانية جولاند جوانفيل
وابن خالة جوانفيل صاحب هذه المذكرات .

(٣) هذه الكلمة واردة فى جونز ، ص ٣٦٣ .

ثم يحاول الرجل القديس أن يفض المنازعات بما يرضيهم ، ويسلك إزاءهم مسلكاً حكماً .

٥٩ - وطالما حدث أن ذهب بعد سماع قداسه وجلس في غابة قنسن وأسند ظهره الى شجرة بلوط وأجلسنا حوله فيتحدث إليه كلّ بما يشغل باله دون تدخل من أحداً ما ، ويقول « هل عند أحد منكم شكاية ؟ » ، فيقف أصحاب الشكايات فيقول إذ ذاك : « ليلتزم الجميع الصمت ، ولتسكلم كل بدوره واحداً بعد الآخر » ، ثم يستدعى سيدى بطرس لورد دى فونتين ، وجوفرى دى فييه ويقول لأحدهما « فض لى هذه المشكلة » .

٦٠ - وكان إذا رأى اعوجاجاً فى قول من بنوبون عنه أو سواهم قوم الاعوجاج بنفسه ، ولقد رأيت في بعض الأحيان في الصيف يذهب إلى حديقة باريس ليقضى بالعدل بين شعبه ، وليس عليه غير قميص من العبك ، وجلباب من الصوف بلا أكمام ، وملفحة من قماش أسود حول رقبته ، وقد أحسن تمشيط شعره ، وعلى رأسه قبعة من ريش الطاوس الأبيض ، ثم يأمر بفرش سجادة لتجلس معه . أما جميع أصحاب الحاجات فيقفون حوله ، ثم ينظر في مشكلاتهم ، كما أخبرتك من قبل ، كما كان يفعل في غابة قنسن .

رفضه طلب الأساقفة الجائر

٦١ - ورأيت مرة أخرى في باريس حيث سأله جميع أساقفة فرنسا أن يأذن لهم في التحدث إليه ، فذهب إلى القصر الذي هم فيه ليستمع إليهم ، وكان من بين الحاضرين الأسقف جى دوسير d'Ausserre ابن سيدى وليم لورد ميللو ، الذي ناب عن بقية الأساقفة في مخاطبة الملك قائلاً له : « مولاي » إن

السادة الحاضرين هنا - من أساقفة ورؤساء أساقفة - عهدوا إليّ بأن أخبرك بأن
اللة المسيحية تتلاشى على يدك ، على حين أنه كان ينبغي أن تكون أنت
جاميها وراعيها » ، فما كاد يسمع هذا القول حتى رسم الصليب على صدره
وسأله : « خبرني كيف كان ذلك ؟ » .

٦٢ - فقال جى دوسير « لم يعد الناس يامولاي يابهون بقرارات
الحرمان ولا يأخذونها مأخذ الجد ، حتى إنهم ليلقون الموت قبل أن يطلبوا من
الكنيسة الغفران أو يحاولوا جلب مرضاتها عليهم . لذلك فإن هؤلاء السادة
يسألونك - إرضاء للرب وتنفيذاً لما يقتضيه واجبك - أن تأمر نوابك
وعمالك وقضايتك إذا صادفوا من انقضى عليه عام ويوم وهو محزوم أن يكرهوه
على طلب الغفران ، وذلك بالاستيلاء على كل ما يملك » .

٦٣ - فأجابهم الملك إنه سيصدر هذه الأوامر عن طيب خاطر لو استطاعوا
أن يثبتوا له خطيئة المحرومين من الغفران ، فرد عليه الأساقفة بأنهم
لا يرتضون هذا الشرط أبداً ولا يقبلونه ثمناً لتحقيق شكواهم ، فأنبأهم
الملك أنه لن يفعل شيئاً آخر يكون مثيراً لغضب الرب ومنافياً للعدل ، إن
هو أجبر المحزومين على التماس المغفرة دون سماع دفاعهم عن أنفسهم ، في الوقت
الذى يخطيء فيه رجال الدين » .

٦٤ - ثم قال لهم : « سأضرب لكم المثل على ذلك بكونت بريتانى الذى ظل
سبع سنوات محزوماً من غفران الكنيسة ، وتظلم من أساقفة بريتانى ودأب
على الشكاية حتى انتهى الأمر أخيراً بأن أدانهم البابا ، فلو أننى صادرت
أملاك كونت بريتانى فى نهاية السنة الأولى لأحمله على تبرئة نفسه لأجرت
حنيداك فى حق الرب » .

وإذ ذاك انصرف الأساقفة ؛ ولم أسمع بعدئذ باتخاذ أية خطوة في المسائل الآنف ذكرها .

إستقامة لويس

٦٥ — تم الصلح بينه وبين ملك إنجلترا على غير رضا من أعضاء مجلس مشورته الذين قالوا له : « يبدو لنا يامولانا أنك ستضيع المناطق التي وهبتها إلى ملك إنجلترا الذي ليس له حق فيها بعد أن فقدها أبوه شرعاً » ، فأجابهم الملك إنه عالم تمام العلم أن ليس للملك إنجلترا الحق في هذه الأرض ، ولكن هناك سبباً يدعو لإعطائه إياها عن طيب خاطر ، ذلك أن « زوجتي وأختان وأبناءنا أبناء خثولة ، فمن الأوفق أن يسود السلم بيننا ، أضف إلى ذلك أنه يشرفني كل الشرف أن يصبح ملك إنجلترا — الذي عقدت السلم معه — تابعاً لي ، وهو وضع لم يكن من قبل » .

٦٦ — وتتجلى إستقامة الملك في حالة رينودي تري Trie الذي أحضر ذات مرة إلى الرجل القديس كتاباً يتضمن أن الملك منح ورثة كونتيسة بولونيا التي توفيت أخيراً إقطاعاً هو كونتية دامارتان Damartin في جديل ، وكان الخاتم الملكي المهوررة به الوثيقة مكسوراً لم يتبق منه غير نصف أرجل المهوررة التي به ، والمسند الذي يريح الملك عليه قدميه ، فأطلعنا الملك وأطلع جميع من كانوا بمجلسه على هذا الخاتم سائلاً أن نسديه الرأي .

٦٧ — فأجمعنا الرأي على أنه غير ملازم بأن يعتبر الوثيقة صحيحة ، وخينذاك أمر كاتم سره سير جون ساراسان أن يأتيه بوثيقة عينها له ، فلما أخذها بين يديه قال لنا :

« أيها السادة ، هذا هو الخاتم الذي استعملته قبل ذهابي إلى الأرض المقدسة وتستطيعون أن تتحققوا بأنفسكم التشابه التام بين الرسم الذي على الخاتم المكسور والرسم الصحيح الموجود هنا ، ومن ثم فإن ضميري يؤنبني إذا أنا احتفظت بالكونتية المشار إليها . »

ثم استدعى إليه لورد رينودي ترى وقال له : « إني أرد إليك الكونتية . »

* * *

الكتاب الثانى

ميلاد القديس لويس وتنويجه

٦٨ - هنا يبدأ القسم الثانى من هذا الكتاب الذى أنبأتك من قبل أنك ستطالع فيه أعمال فروسيته الكبرى^(١).

لقد كتبنا آنفاً - باسم الله القوى - جزء من أقوال ملكنا القديس لويس وتعاليمه الطيبة ليقف عليها من يستطيع القراءة منظمة مسلسلة ، وليكون الانتفاع بها أعم مما لو أنها أدرجت بين أعماله التى أشرع الآن فى تدوينها باسم الله وباسمه .

* * *

طالما سمعت أنه ولد^(٢) يوم عيد القديس مرقس الرسول الإنجيلى وذلك بعد عيد الفصح ، وفى هذا اليوم خرج الناس فى مواكب فى كثير من مناطق فرنسا رافعين الصليبان المسماة بالصليبان السوداء^(٣) ، فكان هذا أشبه بنبوءة

(١) ابتداء من أول هذه الجملة فى هذه الكلمة غير وارد فى ويلى ولا فى الأصل الفرنسى الذى نشره ولكن فى جوتز ، ص ٢٦٧ .

(٢) ولد يوم ٢٥ أبريل ١٢١٥ فى مدينة بواسى Poissy ، ويذكر جوتز أنه لا يزال يوجد فى كنيسة بواسى من الحجر الرملى يقال إنه الوعاء الذى عمده فيه القديس لويس .

(٣) هو موكب يقام دائماً يوم عيد القديس مرقس ، وهو موكب تعترف به الكنيسة =

بالجموع الكثيفة ممن كتب عليهم أن يموتوا في الحريين الصليبيين اللتين قام بهما الملك لويس، وأعني بهما الحملة على مصر، والأخرى التي مات فيها هو ذاته وهي الحملة على تونس^(١)، وقد ترتب عليها حزن طافح في هذه الدنيا ومباهج جمة في الجنة، إذ مات الصليبيون الصادقون في هذين الحجين.

٧٠ - لقد توج أول أحد في عيد البشارة^(٢)، وكان منتهل القداس الذي رتل في هذا الأحد هو *ad Te Levani animam* وما جاء بعده، ومعنى هذا: «أيها الرب الرحيم، لقد دفعت قلبي وروحي إليك، وأضع ثقتي فيك^(٣)»؛ كما شب على الإيمان التام بالله منذ نعومة أظفاره حتى غيبته الردى، إذ كانت آخر كلماته - وقد حضرته الوفاة - أن هتف بالرب وقديسه لا سيما القديس جاك والقديسة جنيفيف.

٧١ - لذلك جازاه الرب برعايته إياه منذ أن كان في المهد حتى وافته أجله، وكانت رعاية الله إياه على الأخص أيام شبابه حيث كانت الحاجة شديدة إلى هذا الحفظ، كما ستسمع حالا.

كذلك يرجع الفضل أيضاً في خلاص روحه إلى التعاليم الطيبة التي تلقنته إياها أمه إذ ثبتت في نفسه الإيمان بالله، ونشأته وهو في صدر شبابه

وتسميه عيد *Litania major* وقد بدأه البابا جريجورى الكبير ثم عرف باسم «الصليب الأسود»، إذ تغطي المذابح والصلبان بالسواد في ذلك اليوم.

(١) في الأصل «قرطاجنة» ويعني بها تونس.

(٢) وذلك يوم ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦.

(٣) جاء بعد هذا في جوائز «وجهة الكلمات» كان للملك ثقة كبرى في المهمة التي نهض بها.

على حبه والخوف منه [فعاش^(١) منذ ذلك الحين حياة طاهرة مقدسة] ،
وحملته أمه على أن يجمع حوله أهل الدين الذين كانوا يلتقون في أيام الأحاد
والأعياد كلمة الرب ، وكانت تأخذه في طفولته بتلاوة كتاب الصلوات
والإنصات إلى مواعظ الأعياد ، وكثيراً ما روى أن أمه طالما قالت إنها
تؤثر موته على أن ترتكب إحدى الخطايا المهلكة .

٧٢ — كان لويس في حاجة إلى معونة الرب له في أيام شبابه ، إذ كانت أمه
من اسبانيا — [وهي^(٢) بلد أجنبي] — وبقيت في مملكة فرنسا دون أن
يكون معها أحد من أهلها أو أصدقائها ، فلما رآه بارونات فرنسا طفلاً وأمّه
غريبة الدار ليس لها من معين سوى الله فقد رأوا سوا عليهم كونت بولونيا^(٣) —
عم الملك — واتخذوه مولى لهم يأتمرون بأمره .

وحدث بعد تتويج هذا الملك الصالح^(٤) أن عمد بعض بارونات فرنسا العظام
إلى التمرد والمصيان ، فطلبوا من الملكة أن تعطيهم [الأراضى^(٥) التابعة
للتاج الفرنسي] ، فأبت عليهم ذلك الطلب [متذرة^(٦)] بأنه لم يعد من شأنها

(١) هذه العبارة غير واردة في ويلي .

(٢) الإضافة من جوتر .

(٣) هو فيليب أخو لويس الثامن ، أما كونتية بولونيا Boulogne فقد ضمت إلى
كونتية أرتوا Artois عام ١٢١٢ ، حيث وصلت إلى يدى الأمير لويس صاحب أرتوا ، وذلك
حين تحالف فصيله كونت رينو مع الإنجليز .

(٤) كلمة غير واردة في ويلي .

(٥) ما بين الحاصرين وارد في جوتر ، أما ويلي فجاء فيه « الأراضى الكبرى
grans terres » فقط .

(٦) غير واردة في ويلي .

أن تتنازل عن أجزاء من مملكة فرنسا ضد مشيئة ولدها الذي توج [، ومن ثم
اجتمع هؤلاء البارونات في Corbeil كوربيل^(١) .

٧٣— وقد أخبرني الملك القديس أنه لم يجرؤ هو أو أمه — عندما كانا
في مونثيري Monthery — على العودة إلى باريس حتى قدم سكانها [في^(٢)
قوة كبيرة] مسلحين لحراستهما في عودتهما ، وأضاف إلى ذلك قوله إن
الطريق بأكمله من مونثيري إلى باريس كان غاصا من جانبيه بالمسلحين
[وغير^(٣) المسلحين] الذين التمسوا من السيد الرب أن يطيل عمر الملك في
هناءة ، وأن يقيه شر أعدائه ، وهذا ما استجاب له الرب^(٤) ، كما ستسمع في ثنايا
هذا التاريخ .

٧٤— انعقد إجماع البارونات في هذا المجلس الذي عقدوه في كوربيل على
دفع الفارس الطيب بطرس كونت بريتاني^(٥) إلى الثورة على الملك ، ولكي تزداد

(١) كان ذلك في سنة ١٢٢٧ .

(٢) غير واردة في الأصل .

(٣) هذه العبارة واردة في الأصل الفرنسي وكذلك في ترجمة ويللي ، ولكنها ساقطة
في ترجمة م ، ص ١٥٤ وجوز ٣٦٩ .

(٤) أضاف جونز بعد ذلك قوله « في أماكن كثيرة وأوقات مختلفة .

(٥) هو Pirre de Dreux وقد خرج عن طاعة الملك والولاء له ، أما فيما يتعلق
بكونتية بريتاني فقد ظلت محافظة على حدودها منذ القرن الثالث عشر حتى العصر الحديث ،
هذا وقد كانت تتألف من إمارة Goello ولامبل Lamballe ، وقد أعطاهما أحد الآباء
واسمه « كليرك » حوالي سنة ١٢٣٥ إلى ابنته يولانده حين زواجها من هيج دي لوزيان ،
وكذلك كونتية ليون وكونتية Porhoet

الخيانة ضد الملك الصالح فقد وعدوا كونت بريتانى أنهم سيلبون الأوامر الملكية ، فإذا ما بعث إليهم الملك لمحاربة الكونت فلن يستصحب أحد منهم أكثر من فارسين فقط كي يتيسر للكونت هزيمة الملك الصالح لويس وأمه التى كانت غريبة كما علمت من قبل .

أخذ البارونات فى تنفيذ هذه المؤامرة وفق الاتفاق الذى أبرموه مع كونت بريتانى ، ولقد سمعت الكثيرين يقولون إنه كان فى قدرة الكونت هزيمة الملك وأمه وإخضاعهما له ، لو لم يلاق لويس العون من الرب الذى لم يخذله أبداً .

٥٧ - وكان العناية الإلهية قد دفعت تيبو Thibaut كونت شمبانيا - الذى صار فيما بعد ملك نغارة^(١) - لأن يضع نفسه وقواته فى خدمة الملك الصالح فى هذا الوقت العصيب حيث اخطر محقق به ، فجاء فى ثلاثمائة فارس فى كامل سلاحهم وعدتهم ، ووصل فى الوقت الملائم .

ويرجع الفضل فى نجاح الملك إلى المساعدة التى أمده الله بها ، فقد تمكنت قوات كونت شمبانيا من إرغام كونت بريتانى على الاستسلام للملك والتماس رحمته به ، وسلم إليه كونتيتى أنجو وبيرش^(٢) .

(١) وقد اشترك تيبو فى الحملة الى قادها لويس على تونس فى يوايو .

(٢) تطلق كلمة Perche على اتحاد مؤلف من خمس بارونيات ظهرت فى مستهل القرن الحادى عشر من جراء زواج وليم جوت Jouet الأول صاحب موتيميرال من ماهوت Mahaut صاحبة برو Brou ، راجع فى ذلك Merlet : Dictionnaire Topographique d' Eure-et-Loire.

ولم يكن للملك رغبة فى الانتقام ، وعد النصر الذى ناله من فضل الله عليه حين بعث إليه فى ساعة الحرج كونت شمبانيا ، ومن ثم فقد عفا عنه ، ولذا ذاك أخذ الملك يتنقل فى طمانينة فى وبوع مملكته .

حملة ريتشارد قلب الأسد

٧٦ — لما كانت هناك أحداث تجري وتستحق الاهتمام فإنني مضطر أن أترك الموضوع الرئيسي لتاريخي للإشارة إليها .

ومن ثم فإنني مخبرك هنا أنه كان لتكون هنري الكبير إبنان من الكونتس ماري — أخت^(١) فيليب وريتشارد ملكي فرنسا وإنجلترا — واسم أكبر هذين الابنين هنري والآخر Thibaut ثيبو ، وقد حمل الابن الأكبر هنري : الصليب ، وصحب الملك فيليب والملك ريتشارد في الحملة الصليبية على الأراضي المقدسة حيث حاصروا عكا واستولوا عليها^(٢) .

٧٧ — لم يكذبتم الاستيلاء على عكا حتى انقلب الملك فيليب على عقبيه إلى فرنسا : الأمر الذي اشتد لوم الناس له عليه ، على حين أقام الملك ريتشارد في الأراضي المقدسة ونهض فيها بفعال جليلة جدا ضد الكافرين والمسلمين الذين باتت الخوف الشديد يملأ قلوبهم منه ، حتى لقد ورد في كتاب تاريخ هذه^(٣) الحملة إلى الأرض المقدسة أن النسوة المسلمات كن يتخفن أطفالهن إذا بكوا بقولهن لهم « صه ، صه ، ها هو الملك ريتشارد » ، فيلزم الأطفال الصمت خوفاً من اسم الملك ريتشارد ، وكانت جياد المسلمين إذا جفأت خائفة — من شجرة

(١) المقصود بفيليب : فيليب أوجستس جد الملك لويس التاسع .

(٢) كان ذلك في ١٣ يوليو ١١٩١ .

(٣) يقصد بذلك ما ورد في كتاب وليم الصوري عن تاريخ الإمبراطور هرقل في

Rec. Hist. Gr. (Occid.) III, 189 Seq . أما النسخة الإنجليزية فقد ترجمت

العبارة بقولها « كتاب الأرض المقدسة » .

أو شبح — ضربها را كبوها بالمهاميز وصاحوا بها « أتظنون أن الملك ريتشارد هناك ^(١) » .

[وكل ^(٢) هذه براهين جلية على أنه قام بأعمال حربية عظيمة ضد المسلمين أنزلت الخوف منه في قلوبهم] .

٧٨ — نال الملك ريتشارد هذا شهرة كبيرة لشجاعته، وزوج ملكة بيت المقدس التي كانت وريثة مباشرة للملكة إلى هتري كونت شمبانيا، الذي قاتل من قبل إنه قد بقي معه، وقد ولدت له ^(٣) ابنتين صارت كبراهما ملكة قبرص، أما الأخرى فقد تزوجها سيدى إيرارت دى برين الذى استولدها ذرية صالحة ^(٤) كبيرة كما هو معروف فى فرنسا وشمبانيا ، ولن أقول لك شيئاً الآن عن زوجة سيدى دى برين ، ولكن سأحدثك عن ملكة قبرص ، إذ أرى الصواب أن أتابع موضوعي .

مهاجمة البارونات لكونت تيبو

٧٩ — بعد أن تمكن الملك من التغلب على كونت بطرس دى بريتانى اشتد الغضب بجميع بارونات فرنسا على تيبو كونت شمبانيا ، حتى لقد أجمعوا

(١) وردت فى ترجمة جوتز ، ص ٣٧١ ، أن المراجع الغربية وكتابات مؤرخى الإنجليز عن سنة ١١٧٢ م قد خلت من الإشارة إلى ما هو ما ورد بالمتن عن تخويف المسلمين صفارهم ريتشارد ، وانظر المصادر التى رجع إليها المترجم هناك .

(٢) الإضافة من جوتز ٣٧٢

(٣) أى للكونت هنرى .

(٤) غير واردة فى الترجمتين الإنجليزيتين .

الرأى فيما بينهم على أن يطلبوا من ملكة قبرص — وكانت حفيـدة كونت شـمبانيا من ابنه الأكبر — أن تحرم كونت تيبو من ميراثه ، وكان كونت تيبو حفيداً لكونت شـمبانيا من ابنه الثانى .

٨٠ — غير أن هذه الخطة بدت لبعضهم أنها لن تجسـدى نفعاً ، ورأى الآخرون أنها لن تحقق إرـبتهم ، فعمدوا إلى تهدئة ما بين كونت بطرس وكونت تيبو ، وأدت المفاوضات بين الجانبين إلى أن يتعهد كونت تيبو — رغبة منه فى تأكيد السلم — بالزواج من ابنة بطرس كونت بريـتاني ، وحددوا لعقد القران يوماً تمضى فيه العروس الشابة إلى أحد أديرة الإخوان المبشرين قرب قلعة تيميرى ، وأغلب ظنى أنهم يدعونه « قال سكرية » Val Sacree ، ومن ثم فإن كونت بريـتاني خرج — كما سمعت — محاطاً ببارونات فرنسا الذين كان معظمهم من أقاربه — مع العروس ، ومضوا إلى الدير ، وبعثو فى استقدام كونت شـمبانيا الذى كان إذ ذاك فى قلعة تيرى ليبنى بمروسة^(١) [وفاء^(٢) بعـهده الذى كان هو نفسه راغباً فى البر به] .

٨١ — لكن بينما كان كونت شـمبانيا ماضياً لإتمام الزواج جاءه لورد جوفرى دى لاشابل نائباً عن الملك وحاملاً^(٣) منه إليه رسالة يقول له

(١) يعنى بها إليـكس ابنة هنرى الثانى كونت شـمبانيا وإيزابلا وريثة أمورى الأول ملك بيت المقدس ، هذا وقد أصبحت إليـكس ملكة لقبرص من زواجها من هيـج دى لوزنيان .

(٢) الإضافة من جوتز ٣٧٢ .

(٣) فى م « بخطاب اعتماد من الملك وقال له : سيدى اللورد كونت شـمبانيا : لقد سمع الملك أنك اتفقت مع كونت بطرس على أن تتزوج بابنته ... »

فيها « أيها السيد تيبو كونت شيمانيا ، لقد علمت أمك عقدت اتفاقاً مع بطرس كونت بريتاني على الزواج بابنته ، وإنني لمرسل إليك هذا طالباً منك ألا تنفذ هذا الاتفاق إرضاء لجميع من تحبهم في فرنسا ، وإنك لمدرّك تمام الإدراك ما حداني لأن أطلب إليك هذا الطلب ، ألا وهو أنني لم أجِد أحداً قط يبرز كونت بريتاني فيما تنطوي عليه نفسه من الرغبة الملحة في إيدائي والإضرار بي . »

فلما^(١) قرأ كونت تيبو هذه الرسالة بحث الأمر مع الرسول وانكشف راجعاً في الحال إلى قلعة تيبري .

٨٢ — فلما سمع كونت بطرس وبارونات فرنسا الذين كانوا في انتظاره في « قال سكرّيه » بما جرى^(٢) اشتد بهم الغضب عليه شدة حملتهم على أن يرسلوا في الحال إلى ملكة قبرص التي مالبت أن جاءتهم وانضمت إليهم .

وما كادت الملكة تحضر حتى ناقشوا الموضوع ، واتفقوا على أن يبعث كل منهم في جمع أكبر عدد مستطاع من المحاربين لمهاجمة شيمانيا ، ولما كانوا على وفاق مع دوق برجنديا الذي كان متزوجاً من ابنة روبرت كونت درو ، فقد رضى الدوق بمهاجمة دوقية شيمانيا من ناحية برجنديا ، على أن يدخل بقية الأدواق بـ *Brie* من ناحية فرنسا ، وضربوا فيما بينهم يوماً يجتمعون فيه أمام

(١) في نسخة جوتر ، « وبعدئذ عاد كونت شيمانيا إلى قلعة تيبري نزولاً على نصيحة أولئك الذين كانوا معه » .

(٢) زادت بعض النسخ قولها « وأدركوا أن كونت شيمانيا غرر بهم » .

مدينة تروى للاستيلاء عليها إذا أمكنهم ذلك ، غير (١) أن خبر هذه الاستعدادات بلغ مسامع الملك لويس فاستدعى من لديه من المحاربين وطلب إليهم مرافقته لنجدة ثيبو كونت شميانيا .

٨٣ - جمع الدوق كل من استطاع جمعه من الناس والبارونات الذين راحوا في الواقع يخرّبون ويضرمون النيران في كل ناحية ساروا فيها ، وفعل فعلهم حليفهم دوق برجنديا (٢) .

فلما رأى كونت شميانيا أن العدو يهاجمه هو ودوقيته من كل النواحي عمد إلى حرق وتدمير عدة مدن من مدنه مثل ابرني Epernay وفيرتس Vertus وسوزان ، حتى لا يجد مهاجموه فيها ذخيرة أو م ذخراً يستفيدون منه في محاربتهم إياه .

* * *

دفاع والد جوانفيل عن تروى .

والسلم بين الكونت وملكة قبرص .

٨٤ - فلما رأى أهل تروى أنهم فقدوا معونة سيدهم لم يمشوا في الحال إلى سيمون جوانفيل والد جوانفيل كاتب هذه المذكرات ، ملتجئين منه القدوم لنجدة لهم ، فلبى (٣) هبّذا الرجل الطيب رجاءهم ، وعلم رجاله في الحال بالخبر الذي جاءه

(١) من هنا حتى آخر الخبر وارد في م فقط .

(٢) في نسخة م بعد هذا أن ملك فرنسا جاء من ناحية أخرى لمحاربتهم .

(٣) في م « وجمع جوانفيل جميع رجاله من حملة السلاح وتحرك ليلاً حينما وصلته الأنباء ، ووصلوا إلى تروى قبل انبلاج النهار » .

فما لبثوا أن اجتمعوا في مدينة تروى قبل مضي يوم واحد وخرجوا من جوانثيل ليلا ، وجاء لورد جوانثيل بالأعاجيب في مساعدة الأهالي ، وعجز البارونات عن أخذها فمروا بها دون قتال ، وساروا قدما حتى عسكروا في سهل إيل Isle حيث كان في انتظارهم دوق برجنديا .

٨٥ — فلما علم ملك فرنسا بمكانهم زحف بجيشه رأسا لمحاربهم ، وإذا ترمى خبر ذلك الزحف إلى البارونات بعثوا إليه ملتمسين منه الانسحاب بجيشه ، لأنهم ماضون لمحاربة كونت شمبانيا ودوق اللورين وبقية^(١) رجال الملك في قوة تقل عما لدى الكونت والدوق بثلاثمائة فارس .

فرد عليهم الملك أنهم لا يستطيعون محاربة فصل من أفصالة دون أن يساهم هو ذاته في الوقوف إلى جانبه^(٢) ، وسرعان ما أرسلوا رسولا مرة أخرى إلى الملك يقولون له إنهم راغبون — إذا وافق الملك — على حمل ملكة قبرص على تقديم شروط الصلح إلى كونت تيمو دي شمبانيا ، فرد عليهم الملك قائلا إنه لن يستمع إلى أية شروط صلح ، ولن يدع كونت شمبانيا يفعل ذلك إلا إذا هم غادروا دوقية شمبانيا .

٨٦ — فلما سمعوا مقالته بادروا إلى الانسحاب من إيل ، وضربوا معسكرهم تحت أسوار مدينة «جويلي» ، على حين عسكر الملك عند «إيل» التي أجلاهم عنها ؛ فلما رأى البارونات أن الملك في أعقابهم قوضوا معسكرهم وضربوه في شورس

(١) ساقطة في م .

(٢) جاء بعد هذا في «م» : «بعث جواب الملك الاضطراب في صفوف البارونات» ،

أما في جوتز « لكن الملك أخبرهم أنه لا ينبغي عليهم القتال بدونه لأنه سيبقي مع رجاله بنفسه » .

ولم يجرؤوا على انتظاره، ورحلوا إلى مدينة لين Laignes التابعة لحليفهم كونت نيفير^(١) Nevers الضالع معهم في مشروعهم هذا، واستطاع الملك أن يوفق بين ملكة قبرص وكونت شمبانيا [رغم^(٢) محاولة البارونات الفاشلة] ، وتم الصلح بين الاثنين على صورة مرضية اتفق بمقتضاها أن يقوم كونت شمبانيا بإعطاء ملكة قبرص ألفي دينار سنوياً من دخل الأرض نظير حقوقها في الولاية ، كما دفع لها الملك — نيابة عن الكونت — مبلغ أربعين ألف دينار^(٣) .

٨٧—ولكى يتمكن الكونت من رد هذا المبلغ وقدره أربعون ألف دينار إلى الملك فقد باع للملك الإقطاعيات التالية وهي :

إقطاعية دوقية بلوا^(٤) .

إقطاعية دوقية شارتر .

إقطاعية دوقية سانسير .

إقطاعية دوقية شاتودون .

(١) يلاحظ أن كونت نيفير كان تابعاً على الدوام لكونت شمبانيا ، ومع ذلك فقد وقف ضد مولاه كما هو وارد بالمتن .

(٢) الإضافة من جوتر .

(٣) كان هذا لتغطية نفقات مصروفاتها .

(٤) كانت كونتية Blois في العصور الوسطى واحدة من مجموعة من الكونتيات الصغيرة الهامة المذكورة بالمتن أعلاه، والتي كان التنازع عليها شديداً بين الملوك والأمراء، ومن هذه المجموعة أيضاً كونتية Chartres ، أما كونتية Sancerre فيتبين من النص أعلاه أنها أصبحت ملكاً للملك فرنسا منذ سنة ١٢٣٤ ، ويلاحظ أن حدودها كانت غير ثابتة على الدوام، راجع d'Arbois: Catalogue des acies des Comtes de Champagne

وقال البعض إن الملك استولى على هذه الإقطاعيات رهناً حتى يتم الدفع ،
فكان ذلك زعماً باطلاً ، لأننى سألت الملك عن هذه المسألة أثناء وجودنا
بفلسطين فأخبرنى أنه استولى عليها شراءً .

٨٨ — أما الأراضى التى تخلى عنها كونت شمبانيا إلى ملكة قبرص فكانت
جزءاً من إقطاعية بيرين Brienne^(١) الحالية ودوقية جوانى Joigny ، لأن جدة
كونت دى برين كانت ابنة ملكة قبرص وزوجة الكونت الكبير جوتيه^(٢)
دى برين .

٨٩ — واسكى تعرف كيف جاءت هذه الإقطاعات التى باعها كونت شمبانيا
إلى الملك ، فإنى منبئك أنه كان للكونت ثيبو^(٣) — الملقب بالكبير والمدفون فى
لاجنى — ثلاثة أبناء أكبرهم اسمه هنرى ، وثانيهم ثيبو ، وثالثهم اتين^(٤) .

وقد أصبح هنرى ، فيما بعد كونت شمبانيا وبرى معا ، ولقب بهنرى
العظيم لأنه كان كريماً تجاه الرب والخلق .

أما فيما يتعلق بكرمه تجاه الرب فيتجلى فى إنشائه كنيسة سانت استيفن

(١) كانت كونتية بيرين Brienne تؤلف جزءاً من كونتية شمبانيا ، راجع نفس
المرجع السابق ، أما فيما يتعلق بكونتية جوانى Joigny التى استمد منها جواثيل اسمه فهى
أيضاً تابعة لشمبانيا .

(٢) هو جوتيه الرابع كونت دى برين ويانا ، وقد تزوج الأميرة مارى ابنة اليكس
ملكة قبرص .

(٣) هو المعروف بثيبو ، الذى عاش من سنة ١١٠٢ إلى ١١٥٢ .

(٤) الواقع أن اسمه « ستيفان » أو « ستيفن » وليس « اتين » راجع رقم ٩٢ .

في تروى وغيرها من الكنائس الجميلة التي أقامها في شمبانيا^(١) .

أما فيما يتعلق بكرمه تجاه الخلق فقد تجلّى ذلك في مسلكه إزاء أرتو^(٢) دى نوجنت ، وغير ذلك من الأمثلة العدة ، غير أنني يجب أن أذكر قصة أرتو بالذات .

٩٠ — كان أرتو يتمتع أكثر من جميع مواطنيه بمحبة الكونت هنرى ، وازدادت ثروة أرتو حتى بنى قلعة نوجنت ، وحدث في يوم أحد الزحف أن نزل الكونت هنرى من قلاعته في تروى ليسمع القداس في كنيسة القديس ستيفن ، فتلقاه على درجها فارس فقير راكماً على ركبتيه يهتف به بصوت عال : « سيدى الكونت ، إننى ألتمس منك باسم الله أن تصلى بشيء مما أنعم الله به عليك ، كي أستطيع إتمام مراسيم زواج ابنتى الملتين تراهما هنا » .

٩١ — فما كان من أرتو دى نوجنت الذى كان خاف الكونت إلا أن أجاب الفارس الفقير بقوله : « سيدى الفارس ، لقد أخطأت إذ رحت تقدم هذا الالتماس إلى سيدى الكونت ، لأنه قد أعطى كثيراً حتى لم يعد معه ثم ما يجوده » .

فلما سمع الكونت العظيم ذلك القول استدار على عقبيه ، والتفت إلى أرتو وقال : « أيها السيد ، لقد كذبت حين زعمت أنني لم أعد قادراً على العطاء ، فأنت رهن إشارتى ، وإننى لأهبك لهذا الفارس » ثم التفت إلى الفارس وقال له : « والآن ياسيدى الفارس أهبك هذا الرجل ، وأجعله فى رقتك » .

(١) جاء فى نسخة جوتر ، ما يلى بعدئذ : « وكان ينفق عليها جيباً فى كل يوم كثيراً من الهدايا كما هو معروف جيداً فى جميع أرجاء شمبانيا » .

(٢) واسمه Artaud du Nogent .

فاستولت الدهشة الكبرى على الفارس الفقير ، وأمسك في الحال بالمواطن من جزة رأسه ، وقال إنه لن يدعه من بين يديه حتى يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، فاضطر أرتو لدفع غرامة قدرها خمسمائة دينار .

٩٢ — أما الأخ الثاني لهنرى المسماح فاسمه ثيبدو كونت دى بلوا، وأما الثالث فاسمه ستيفن كونت دى سانسير . غير أن هذين الأخوين كانا يتوليان أقاليمهما تحت إشراف أخيهما الأكبر هنرى العظيم ، ثم من بعده تحت إشراف ورثته الذين آلت إليهم دوقية شمبانيا ، حتى جاء كونت ثيبدو هذا فباعها إلى ملك فرنسا [القديس لويس] كما أشرت آنفا .

...

عقد محكمة فى سومير ١٢٤١

٩٣ — والآن لنعد إلى موضوعنا الأصلي فنذكر أنه بعد فترة قصيرة من هذا الحادث عقد الملك لويس اجتماعا كبيرا عاما فى سومور بأنجو^(٢) وكنت حاضره ، وأشهد أنه أروع منظر رأيته فى حياتى ، وأعظم مشهد بولغ فى تنميته وتهيئته ، فقد جلس إلى المائدة التى يجلس عليها الملك — بعده — كل من كونت

(١) كانت كونتية Anjou من الكونتيات التى اغتصبها فيليب أغسطس ملك إنجلترا ، كما اغتصب فى نفس السنة (وهى سنة ١٢٠٣) كونتية Le Maine ، وقد آلت فيما بعد إلى ملك فرنسا حيث نجد أنها أصبحت فى سنة ١٢٢٥ ملكا لجان ثالث أبناء الملك لويس الثامن ، وقد صدر مرسوم سنة ١٢٤٦ بأيلوتها إلى شارل أصغر إخوة الملك لويس التاسع الذى سيرد ذكره فى ثانيا حملة المنصورة الصليبية .

دى بواتيه^(١) الذى كان الملك قد جعله فارساً فى آخر يوم من أيام الاحتفال بعيد القديس يوحنا ، وبعده الكونت جون دى درو الذى جعله الملك هو الآخر فارساً حديثاً ، ومن بعده كونت دى لامارش وكونت بطرس دى بريتانى .

وكانت هناك مائدة أخرى قبالة مائدة الملك على الجانب الذى يجلس عليه كونت دى درو Dreux ، وقد جاس إليها ملك نافارا يتناول غذاءه ، وارتدى أعلى مالدیه من الثياب المطرزة بالذهب ، وعليه سترة وعباءة وقبعة من الذهب الرائع ، وكنت أنا أوزع الطعام أمامهم .

٩٤ — وجاس أمام الملك أخوه كونت دارتوا^(٢) ، وكان كونت دى سواسون يقطع اللحم ويوزع الطعام .

(١) هو ألفونس أخو الملك لويس التاسع الذى صحبه فيما بعد فى حملته على المنصورة ولقى مصرعه بها، وفى هذا اليوم الذى نصبه أخوه فارساً أعطاه كونتيه بواتيه القوهمها لويس الثامن إلى ثلاث أبنائه ، وكانت هذه الكونتيه تنقسم إلى قسمين هما سنكالية بواتيه وسنكالية سنتون Saintonge .

(٢) هو الكونت روبرت الأول ، الذى أصبح فارساً منذ سنة ١٢٣٧ ، ومما يلاحظ فى تاريخ فرنسا السياسى خلوجغرافيتها السياسية - قبل مستهل القرن الثالث عشر - من لفظ « ارتوا » ، والمرجح أن فيليب الإلزامى كونت فلاندرز قد وهبها مهرأ لابنة أخيه إيزابلا Isabella de Hainaut أول زوجة لفيليب أوجست ، فلما جاء ابنها لويس الثامن خلعها على ابنه روبرت المذكور بالمتن، راجع Nain de Tillemont : Histoire de Saint Louis t. I, p. 16 ومنذ ذلك الحين ضمت إليها بعض كونتيات أخرى أمثال بولونيا وجين Guines وسنت بول .

أما حراسة مائدة الملك فقد وكلت إلى سير همبرت دي بيجو^(١) الذي صار فيما بعد كونستابل فرنسا ، وإلى سير أنجراند دي كوسي^(٢) وسير أرشيبولد دي بوربون^(٣) .

ووقف خلف هؤلاء البارونات الثلاثة : ثلاثون فارساً من فرسانهم في ملابسهم الحربية للقيام بخدمة من هم دونه ، كما وقف خلف هؤلاء الفرسان جمع كبير من العسكر المزودين بالسلاح الذي عليه رنك كونت دي بواتييه ، وكان الملك مرتدياً رداء من القطيفة الزرقاء ، ومعطفاً وعباءة من القطيفة الحمراء ، عليها فراء كفراء الرهبان ، وعلى رأسه قلنسوة من القطن بدت كريمة لعدم ملاءمتها لرأسه الذي كان إذ ذاك رأس شاب .

٩٥ — أقام الملك هذه الوليمة في قاعة سومور التي بناها — كما يقولون — هنري العظيم ملك إنجلترا ليقيم فيها احتفالاته ، وكانت هذه القاعة قد بنيت

(١) كانت إمارة Beaujeu هي الأصل الذي نشأت عنه فيما بعد منطقة Beaujolais ، ومن النظم الإقطاعية الملحوظة في هذه الإمارة أن متوليها كان فصلاً اسكوتلندياً ، أما الإمارة نفسها فكانت تابعة تبعية مباشرة للملك ، راجع : *Inventaire des Titres de la maison de Bourbon*, t. I, pp. 22, 105 and 116.

(٢) كانت إمارة Coucy تتألف من منطقتين جغرافيتين هما كوسي الأصلية ولا فير La Fère

(٣) فيما يتعلق بإمارة Bourbon في القرون الوسطى يلاحظ أنها كانت في منتصف القرن الثالث عشر تابعة لكونت أوفون ، ثم إنه كان لصاحبها أفضال يتبعونه مباشرة في هذا الوقت بالذات .

على نمط أديرة جماعة الرهبان البيض من طائفة السستريان ، ولا أظن أن في العالم قاعة تضاهيها في الضخامة ، وسأخبرك سر اعتقادي هذا ، ذلك أنه كان يوجد إلى جانب الناحية التي يتناول الملك فيها طعامه حيث يحوطه فرسانه وعسكره الذين يشغلون ساحة كبيرة — أقول كانت إلى جانب هذا قاعة طعام أخرى لإطعام عشرين أسقفًا ورئيس أساقفة ، وإلى جوارهم كانت تجلس الملكة بلانش أم الملك لتناول الطعام عند طرف الدير في الجانب الآخر المقابل للملك .

٩٦ — وكان يقوم على خدمة الملكة كونت دي بولونيا الذي أصبح فيما بعد ملك البرتغال ، وكونت هيج دي سنت بول ، وشاب ألماني في الثامنة عشرة من عمره يقال إنه ابن القديسة إليزابيث ثورينجيا ، ولهذا السبب يقال إن الملكة بلانش كانت تقبله من جبهته ، وهذا مظهر من مظاهر العبادة لأنها كانت تظن أن أمه لا بد أن قبلته من هذه الجبهة كثيراً .

٩٧ — وفي نهاية هذا الرواق — على الجانب الآخر — توجد المطابخ وحجرات التخزين والكرار ومخازن الأكل ، وكانت اللحوم والخمر والخبز توزع على الملك والملكة من هذه الأماكن .

وكان الفرسان يأكلون بالجناحين والوسط ، وكان عددهم كبيراً لا يستطيع حصره ، وقال الكثيرون إنهم لم يربوا أبداً في أي احتفال مثل ما في هذا الحفل من كثرة الملابس والعبي والثياب المطرزة بالذهب والفضة ، وقيل أيضاً إن المجتمعين إذ ذاك كانوا لا يقلون عن ثلاثة آلاف شخص .

معركة تيلبورج ١٢٤٢

٩٨ - بعد هذا الحفل أخذ الملك كونت دي بواتييه إلى بواتييه ليسترد إقطاعياته^(١)، وقد حدث أن أراد الملك - حين وصوله إلى بواتييه - العودة إلى باريس لأنه وجد أن الكونت دي لامارتن^(٢) الذي كان قد شاطر الملك طعامه يوم الاحتفال بعيد القديس يوحنا قد حشد جمعا كثيفا من المسلمين فن استطاع جمعهم في لوزينيان القريبة من مقاطعة بواتييه .

أقام الملك في بواتييه مدة خمسة عشر يوما لم يستطع الانتقال أثناءها، حتى عقد كونت دي بواتييه صلحا مع كونت دي لامارش ، ولا أعرف كيف كان ذلك .

٩٩ - وكثيراً ما رأيت كونت دي لامارش قادماً من لوزينيان للتحدث إلى الملك في بواتييه ، وكثيراً ما كان يُحضر معه زوجته ملكة^(٣) إنجلترا التي كانت أم ملك إنجلترا ، وقال الكثيرون إن الملك وكونت دي بواتييه قد عقدوا صلحا كريها مع كونت دي لامارتن .

(١) يقصد جوائيل بذلك أن الكونت دي بواتييه عاد إلى إقطاعياته ليؤدب أفضاله الذين خرجوا عن طاعته .

(٢) هو هيج العاشر المعروف باسم Le Brun ويلاحظ أن نسخة م أشارت إلى أن كونت دي لامارتن وملك إنجلترا قد دبرا الهجوم ، على حين أن نسخة ويلي خات من الإشارة إلى ملك إنجلترا ، راجع Hist. de Joinville, ed. de Wailly p. 57.

(٣) هي إيزابلا أرملة جان المفلس وأم هنري الثالث ، وكانت قد تزوجت مرة ثانية عام ١٢١٧ من هنري العاشر .

١٠٠ — لم ينقض غير أمد قصير على عودة الملك من بواتيميه إلى باريس حتى نهض ملك إنجلترا إلى غاسقونيا لمحاربة ملك فرنسا، فأخذ ملكنا القديس في الاستعداد للقتال، بجمعه أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين، وذهب إلى هناك^(١) ملك إنجلترا وكونت دي لامارتن، واستعدا للحرب أمام قلعة تيلبورج الواقعة على نهر شديد الخطورة يسمى نهر شارنت، لا يستطيع أحد عبوره إلا على جسر صخري شديد الضيق .

١٠١ — لم يكد ملك إنجلترا يصل إلى تيلبورج وتأتى الجيوش : جيشا في إثر آخر حتى قام رجالنا — وكانت في يدهم القلعة — فأقدموا على خطر جسيم، فعبر بعضهم النهر على ذلك الجسر، وركب آخرون القوارب لعبوره وأغاروا على الإنجليز، وبدأ القتال قويا عنيفا، فلما رأى الملك شدة القتال اندفع بنفسه وبرجاله للمعركة، وانطوى عمله هذا على الخطر العظيم لأن الإنجليز كانوا أكثر من رجاله عشرين^(٢) مرة .

ومع ذلك فقد تقدم الملك كما أراد الرب، حتى إن الإنجليز — حين رأوا الملك قد عبر النهر — هلعت قلوبهم ولاذوا بأذيال الفرار، واتجهوا إلى مدينة سانتس Saintes التي دخلوها، فدخلها في أعقابهم كثير من رجالنا وراحوا أسرى .

١٠٢ — ولقد علم بعض رجالنا الذين أسروا في سانتس أنهم سمعوا في تلك الليلة ما حدث من شقاق كبير بين ملك إنجلترا وكونت دي لامارش في سانتس،

(١) يعنى بذلك غاسقونيا .

(٢) في بعض النسخ « مائة مرة »

وأن ملك إنجلترا قال إن كونت دي لا مارش بعث إليه مدعياً أنه^(١)
واجد مساعدة كثيرة من فرنسا .

وفي هذه الليلة رحل ملك إنجلترا من سانتس ذاهباً إلى غسقونيا .

• • •

استسلام كونت دي لا مارش

١٠٣ — أدرك كونت دي لا مارش أنه غير مستطيع معالجة الموقف ، ومن ثم
فقد وضع نفسه في سجن الملك ، وأخذ معه زوجته وأبنائه ، ولهذا السبب أخذ
الملك منه — في سبيل الصلح — كثيراً من أراضيه ، ولست أعرف عددها
لأنني لم أكن حاضراً ساعة توقيع الاتفاق ، ولم أكن قد ارتديت^(٢) بعد
سترة القتال ، غير أنني سمعت أن الكونت دي لا مارش أعطى الملك —
بالإضافة إلى الأراضي — مبلغاً قدره عشرة آلاف جنيه باريسى كانت له
في خزانة الملك ، كما تعهد أيضاً بدفع مثل هذا المبلغ سنوياً .

١٠٤ — وحينما كنا في بواتييه رأيت فارساً اسمه جوفري دي دانسون كان
كونت دي لا مارش قد ارتكب في حقه خطأ كبيراً ، فأقسم — رانسكون —
كما يقولون — على الآثار المقدسة ألا يخلق رأسه كما يحلقها الفرسان ، بل
سيرسل شعره ضفائر كما تفعل النساء ، حتى ينتقم هو أو غيره لنفسه من
كونت دي لا مارش .

(١) أى الملك .

(٢) كناية عن أنه لم يصبح بعد تابعاً لإقطاعيا للملك لويس .

فلما رأى رانسون الكونت وزوجته وأبناءه راكعين أمام الملك يسترحمونه ، بعث رانكون في طلب مساند خشبية ، وجزّ غداً شعره ، وبادر في الحال إلى المثول في حضرة الملك حيث كونت دى لامارش والحاضرون .

١٠٥ — ولقد أخبرني من عادوا من تلك الحملة التي قام بها الملك ضد ملك انجلترا والبارونات أن لويس وزع كثيراً من الهدايا العظيمة ، لكن لم يحدث أبداً أن طلب الملك أو أخذ نظير هذه الهدايا أو المصاريف التي تكلفها في هذه الحملة أو سواها سواء خارج حدوده أم داخلها ، أقول لم يحدث أبداً أن طلب أو أخذ نظير ذلك أية مساعدة مالية من باروناته أو من فرنسا أو رجاله أو مدنه بصورة جعلت واحداً من هؤلاء يجار بالشكوى .

ولا عجب في ذلك لأنه كان يسترشد في سلوكه بنصيحة أمه الطيبة التي كانت معه والتي كان يأخذ برأيها ، كما كان يسترشد بمشورة الفضلاء من الرجال الذين لا زالوا حوله منذ زمن أبيه وجده .

...

مرض لويس ١٢٤٤

١٠٦ — لم يلبث الملك طويلاً بعد هذا الحادث أن مرض بباريس مرضاً خطيراً ، وساءت حاله سوءاً شديداً أشرف فيه معه على الموت ، حتى إنني سمعت أن إحدى السيدات اللاتي كن يمرضنه ظنت ذات مرة أنه قد قضى نحبه فأرادت تغطية وجهه بغطاء ، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من الفراش ، لم تحتمل رؤية هذا المنظر فقالت إنه لا يزال حياً .

١٠٧ — وبينما كانت هاتان السيدتان في جدلهما حوله نفخ الله فيه من روحه ،
وأنطقه بعد سكون ، وبث فيه القدرة على الكلام ، فطلب إليهما أن تأتياه
بالصليب ففعلتا ما طلب ، فلما سمعت [السيدة الطيبة] [الملكة ^(١)] أمه
أنه استرد القدرة على الكلام ازدهاها السرور الشديد ثم جاءت إليه ، فلما
أبصرت الصليب على صدره اعتراها الألم البالغ ، وتعالى نحيبها كأنما قد
رأته ميتا .

١٠٨ — وفعل فعله في أخذ الصليب إخوته الثلاثة روبرت كونت دارتوا ، وألفونس
كونت بواتييه ، وشارل كونت دانبجو الذي صار فيما بعد ملك صقلية .

كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز أخو جى كونت
فلاندرز ^(٢) المتوفى حديثاً ، والكونت الباسل هيج دى سانت بول ، وابن أخيه
جوشيه الذى أبدع فى الحملات إبداعاً دل على أنه مسعر حرب وابن كريهة ، ولو
عاش لدوى ذكره فى الآفاق .

(١) واردة فى نسخة ويل .

(٢) تعتبر كونتية Flandres من الكونتيات التى أخذت فى التضخم فى العصور الوسطى ،
فقد كانت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر تشمل ما يعرف الآن بقرب بلجيكا والقسم
الشمالى الأقصى من فرنسا على حساب الملكية الإقطاعية ، ويستدل من اتفاقية ١٢٥٧ المبرمة بين
أبناء الكونتيسة مرجريت أن كونتية فلاندرز كانت تمتد جنوباً حتى تبلغ أرض الإمبراطورية ،
إذ كان لها فيها مقاطعات كريفيكر وآرلو Arleux ، راجع فى ذلك :

Warnkonig : Histoire des la Flandre (trad. Fr.), t. I, p. 374 sq.

١٠٩ — كذلك كان من بين هؤلاء كونت دي لامارش الذي أشرتُ إليه آنفاً ، وابنه هيج لي برون Brun ، وكونت ساربروك ، وأخوه جوبرت دابرمونت اللذان ركبت البحر في صحبتهما — أناجون لورد جوانثيل — ، وقد ركبت معهما في سفينة استأجرناها لأننا جميعاً أبناء عم ، ومضيفنا مع عشرين فارساً ، منهم عشرة معي وعشرة مع أبناء عمي .

...

جوانثيل يرحل مع الحملة الصليبية

١١٠ — وفي عيد فصح ١٢٤٨ استدعيت إلى جوانثيل جميع رجالى وأفصالى فجاءونى ليلة العيد ، حيث ولد ابنى جان أمير انسفيل Anceville من زوجتى الأولى أخت كونت جرانيريه .

وأمضيفنا هذا الأسبوع بأكمله نامو ونرقص ، وقام أخى فوكواير Vaucouleurs وغيره من أثرياء الناحية بإقامة المآدب واحدة بعد أخرى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس^(١) .

١١١ — فلما كان يوم الجمعة خطبت فيهم قائلاً : «أيها السادة، إنكم لتعلمون أننى على وشك السفر إلى ما وراء الحدود ، ولست أدري إن كان مقدراً لى أن أعود أم لا ، فإن يكن بينكم من أسأت إليه من قبل فليتقدم الآن كى أسترضيه ، وإن يكن لأحد شىكوئى منى أو من رجالى فليذكرها كى نعالجها» ، ثم نظرت

(١) فى جوتر « وبعد الفراغ من الطعام والشراب أخذنا نتلى بالأغانى وقضينا فترة هائلة » .

في مطالبهم واحداً بعد آخر ، وانسحبت من مجلسهم هذا كي لا يكون لحضوري مناقشاتهم تأثير على أحداً ما ، ونزلت على قراراتهم دون أدنى معارضة مني .

١١٢ — ولما كنت كارهاً أن أحمل معي شيئاً من المال ولودائقاً واحداً يكون قد جاء عن طريق غير مشروع ، فقد ذهبت إلى ميتر بمنطقة اللورين ، ورهنت الجانب الأكبر من أرضي^(١) .

وأحب أن تعلم أنه لم يكن معي يوم رحيلي عن وطني إلى الأراضي المقدسة أكثر من ألف^(٢) دينار من دخل أرضي السبوي ، لأن سيدتي^(٣) الوالدة كانت لاتزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد استصحبته معي تسعة من الفرسان ، وكنت ثالث ثلاثة من حاملي الرايات^(٤) .

ولقد ذكرت لك هذه الأشياء كلها لتدرك أنه لولا معونة الرب الذي لم ينسني قط لما كنت قادراً أبداً على احتمال مثل هذا العبء الذي احتملته مدة السنوات الست التي قضيتها في الأرض المقدسة .

١١٣ — وبينما كنت على وشك الرحيل أرسل إلى جون لورد أبريمونت وكونت ساربروك عن طريق زوجته يخبرني أنه^(٥) قد رتب أموره للرحيل إلى

(١) في جوتز أنه رهن الأراضي عند بعض أصدقائه .

(٢) في جوتز « ألف ومائتا دينار » ، لكن راجع فيما بعد رقم ١٣٦

(٣) راجع المقدمة .

(٤) سيرد فيما بعد أنه كان أحد فرسان أربعة من حملة الرايات .

(٥) اعتبر جوتز أن جون لورد أبريمونت وساربروك شخصان ، على حين أن الذي يريده جواشيل هو أن جون كان صاحب أبريمونت وفي الوقت ذاته كان كونت =

الأراضي المقدسة ، وأنه استصحب معه عشرة فرسان ، واقترح - إن رضيت -
أن نستأجر فيما بيني وبينه سفينة لنقلنا إلى وجهتنا ، فقبلت العرض مرحباً به ،
واستأجر رجاله ورجالي سفينة في مرسيليا (١) .

• • •

كاهن يقتل ثلاثة جنود

١١٤ - استدعى الملك إليه بياريس (٢) جميع البارونات وطلب إليهم
تجديد اليمين والطاعة له والولاء لأطفاله فيما لو جرى له مكروه خلال حملته في الأرض
المقدسة ، واستدعاني أنا الآخر أيضاً إليه ، ولكنني لم أقسم (٣) له اليمين لأنني
لم أكن إذ ذاك تابعاً له (٤) .

١١٥ - وبينما كنت في طريقى إلى باريسن وجدت ثلاثة رجال مسجونين
على عربة وقد قتلهم أحد رجال الدين ، وعلمت أن القوم ماضون بهم إلى الملك ،
فلما سمعت ذلك أرسلت واحداً من أتباعي ليعرف الخبر ، فأنبأني أن الملك خرج من

== ساربروك بفضل زواجه من سيدة اسمها Laurette ، ولذلك جاء قوله : Jehans sires
d'Apermont et eueus de Salebruche de par sa femme, envoia a
may que il avoit sa besoigne areé pour aler autre mer.
Mathew de Paris, Hist. des Croisades Occid., t. IV, p.24. (١)

(٢) جاء في نسخة جوتز بعد هذا « قبيل مغادرته المملكة » .

(٣) راجع المقدمة بشأن تبعية جواشيل الفصلية .

(٤) في جوتز بعد هذا « أضف إلى هذا أنه لم يكن في نيتي التخلي عن الركب » .

كنيسة وذهب إلى الباب ليرى القتلى ، واستفسر من مدير باريس عن كيفية حدوث هذا الأمر .

١١٦ — فأنبأ المدير أن القتلى الثلاثة من جنوده في شاتيليه ، وأنهم كانوا قد خرجوا إلى الشوارع لسلب الناس ، وذكر للملك «أنهم وجدوا هذا الرجل وليس عليه من شيء سوى قميصه ، فذهبوا إلى منزله وأخذوا فرسه وأمسروا طفلاً وجدوه هناك أن يأتيهم بسيفه القصير ، فلما رآهم الرجل ثانية صاح بهم وقال لا بد من موتهم ، ثم سحب قوسه وسدده نحوهم ورمى به أحدهم في قلبه ففر الآخران ، ثم أخذ الكاتب القوس من يدي الصبي وتبعهم في ضوء القمر الساطع .

١١٧ — «ورأى أحد الهاربين أن يثب من سور إلى داخل إحدى الحدائق ، فرماه الكاتب بسهم أصاب رجله فكسرها عند الحذاء كما ترى .

«ثم تتبع الكاتب الرجل الثالث الذي رأى الاحتماء ببيت غريب كان أهله لا يزالون يقظانين ، ولكن الكاتب قوّق إليه مهماً شقّ رأسه عند أسنانه كما ترى .

«ولقد أطلع الكاتب الجيران — يامولاى — في الشارع على ما فعل ، ثم جاء وقدم نفسه عن طواعية ليكون نزيل سجنك ، ولقد أحضرته لك يامولاى لتنظر في أمره وتأمر بما ترى ، وها هو ذا .

١١٨ — فقال الملك للكاتب: «أيها السيد الكاهن ، لقد خسرت كهونتك ببطشك ، وإننى من أجل قوتك أضمتك إلى خدمتي وستذهب معى في حملتي الخارجية ، وإننى أفعل ذلك معك لأننى أحب أن يعرف رجالى تمام المعرفة أننى لا أحميهم إن كانوا شريرين .

فلما سمع من كانوا حاضرين هذا القول هتقوا بمخلصنا ، ودعوا الله أن يسعد الملك بالعمر الطويل ، وأن يردّه فرحاً سالماً .

• • •

جوانقيل يترك قلعة

١١٩ — عدت بعدئذ إلى مقاطعتي واتفقت أنا وكونت ساربروك أن نرسل حوائجنا في العربات إلى «أوسون Ausonne» لتحمل من هناك في السفن في نهر الساءون ، ثم إلى آرل عن طريق الساءون والرون .

١٢٠ — فلما كان يوم رحيلي من جوانقيل بعثت في استدعاء راهب شمينون Cheminon الذي كان مبشراً إذ ذاك من أعظم الرهبان البيض ، وقد سمعت هذه الشهادة في حقه من فم راهب آخر قالها في حضرة الملك القديس في كليرفو يوم عيد سيدتنا ، وقد رآني هذا الراهب وسألني إن كنت أعرفه ، فاستفسرت منه عن علة سؤاله إياي هذا السؤال ، فأجابني لأنه يظن أنه أعظم الرهبان البيض في الدنيا بأجمعها .

١٢١ — ثم قال : واعلم أيضاً أن ما أرويّه لك قد قصه ثقة ممن ينامون في نفس قلالية رئيس شمينون ، فقد عرّى صدره بسبب الحر الشديد ، وفعل مثله أيضاً ذلك الرجل الثقة الذي يشاركه النوم في نفس القلاية ، فأبصر أم الرب تذهب إلى فراش رئيس الدير ، وتغطّي صدره بثوبه حتى لا تؤذيه الريح .

* * *

١٢٢ — أعطاني رئيس رهبان شمينون تليفعتي وحوائج الحج ، وإذ ذاك رحلت من

جوانثيل راجلا غير منتعل وليس على من ثيابي غير قميص ، وذهبت إلى بليسكرت Blicourt وسنت أربان وغيرها من الأماكن الأثرية المجاورة .

وآليت على نفسي ألا أدير بصرى نحو جوانثيل حتى لا يأسى القلب على ترك مثل هذه القلعة الجميلة ، وحتى لا يتفطر على فراقى لولدى الاثنين .

١٢٣ — وتناولت طعامى أنا ورفاقى هذا اليوم فى «نبع الأسقف» أمام دونجو Donjeaux ، وهناك قام أسقف سنت أربان — عليه رحمة الرب — فأعطانى وأعطى فرسانى التسعة كثيرا من المجوهرات الثمينة .

ثم رحلنا إلى أكسون حيث ركبنا بسلاحنا سفينة مخرت بنا نهر السامون حتى بلغت ليون ، وأخذنا بعضا من جياذ الحرب التى سارت موازية للقوارب .

١٢٤ — وحين بلغنا ليون ركبنا نهر الرون للذهاب إلى آرل لى بلانك ، ووجدنا على الرون أطلال قلعة يسمونها قلعة جلون Rocche- de- Glun كان الملك قد أمر بهدمها بسبب تعرض صاحبها — المسمى روجر — للحجاج والتجار ، وسلبهم ما معهم .

* * *

تحرك الصليبيين فى أغسطس ١٢٤٨

١٢٥ — فلما كان شهر أغسطس ركبنا سفنا عند قلعة مرسيليا ، وفى يوم ركوبنا إياها فتحوا بابها ووصفوا بها كل جياذنا التى كان لابد من أن نستصحبها معنا فى رحلتنا ، ثم أغلقوا الباب غلقا محكما وسدوا ما بين ثقبويه بالقار سدا متينا

كما لو كانوا يفعلون بدنّ خمر أدلوا به في الماء ، ذلك لأن باب السفينة بأجمعه يكون غاطساً في الماء حين تصبح في عرض البحر .

١٢٦ — ولما صارت الجياد في السفينة صاح كبير ملاحينا ببهارته الذين كانوا واقفين عند مقدمتها ، وسألهم : « هل أنتم مستعدون ؟ » ، فأجابوه : « نعم أيها السيد ، وادع الآن الكهنة والقسس للتقدم » .

وما كاد هؤلاء يأتون حتى هتف بهم كبير الملاحين : « رتلوا باسم الرب » .

فأنشدوا جميعاً في صوت واحد « Veri Creator Spiritus » تعال أيها الروح الخالق ، فصاح كبير الملاحين بملاحيه : « أنشروا القلاع باسم الله » ، ففعلوا ما أمرهم .

١٢٧ — وسرعان ما هبت الريح وأخذت تدفع القلاع ، وغاب عنا منظر الأرض ، ولم يعد يظالعنا سوى السماء والبحر ، وكانت الريح تبعدنا كل يوم أكثر عن الأرض التي ولدنا بها .

وإنني أقصّ عليك نبأ هذه الأخبار لتدرك تماماً حق المرء الذي يحتاج ما ليس له ، أو يقدم على ارتكاب المعصية ، ثم ينام بالسفينة وهو لا يدري إن كان يتنفس الصباح عنه وهو على ظهرها ، أم وهو مغيب في قاع البحر .

١٢٨ — وقد جرت لنا عجيبة فاذرة بالبحر ، ذلك أننا مررنا بجبل تام الاستدارة أمام ساحل بلاد المغرب ، وكان مرورنا أمامه حوالى وقت صلاة الغروب ، وظلت سفينتنا مبحرة طول ليلها ، وظننا أننا بعدنا عنه بما يقرب من خمسين

فرسخًا ، فلما كان الصباح ألقينا أنفسنا لا نزال أمام نفس الجبل ، وقد حدث هذا الأمر لنا مرتين أو ثلاث مرات ؛ فلما رأى البحارة ذلك استولت الدهشة عليهم جميعًا ، وأنباؤنا أننا كنا في خطر داهم ، إذ كنا على مقربة من بلاد مسلمى المغرب .

١٢٩ — حينذاك تكلم قسيس طيب محترم يدعى موروبت Maurupt ، وأخبرنا أنه لم تحدث مضرة ما في أبرشيته كالحاجة إلى الماء أو شدة انهماك المطر أو غير ذلك من الضربات ، لأنه أقام القداس ثلاث مرات في ثلاثة سبوت ، فأنقذنا الرب وأمه ، فلما جاء يوم السبت أقمنا القداس الأول حول صاريقي السفينة ، وقد حضرت القداس محمولاً على أذرع الرجال لوعكة شديدة أصابتنى ، ومن ثم لم نعد نرى الجبل ، فلما كان السبت الثالث بلغنا جزيرة قبرص .

...

وفادة التتار ودخول جوانفيل خدمة الملك .

١٣٠ — حين وصلنا قبرص ألقينا الملك بها ، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة ، وأعنى بها ما نحتاجه من المثونة والطعام والخازن ، وكانت حوائج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر ، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك ، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى ، فإذا ما نظرت إليها من بعد خيّل إليك أنها بيوت كبيرة .

١٣١ — وكذا سوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول ، فإذا نظرت إليها خيّل

إليك أنك ترى جبلاً ، ذلك لأن الأمطار التي طال سقوطها عليها جعلتها تتفتح فتبدو جوانبها لمطالعيها كأنها الحشائش الخضراء ، فلما عمدوا إلى أخذ ما يحتاجونه منها في مصر ، قطعوا الطبقة العليا العشوشية ، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين ، كما لو كانا قد جمعا منذ أمد قريب .

١٣٢ — وكان الملك — كما سمعت في سورية — يتوق للرحيل إلى مصر دون تراث ، لولا موقف أمراءه الذين أشاروا عليه بالانتظار حتى يصل إليه من لم يأت بعد من رجاله .

١٣٣ — وبينما كان الملك مقيماً في قبرص^(١) أنفذ إليه ملك التتار العظيم رسولان^(٢) من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة^(٣) ، وكان من بين ما ذكره ملك

(١) وذلك في ديسمبر ١٢٤٨ م .

(٢) في الأصل « رسلا » .

(٣) ربما احتاجت صلات التتار بالصلبيين إلى قليل من الشرح ، ففي سنة ١٢٣٢ م قضى المغول على الدولة الخوارزمية ، وشعر الحشاشون في « الموت » ببلاد الشام بمدى الخطر الذي يهددهم ، فأرسلوا سفارة من بلدهم إلى أوربة الغربية لطلب المساعدة ، ثم أخذت الأمور تتعقد في أوربة من جراء تفكير الإمبراطور فردريك في غزو الأملاك البابوية في إيطاليا ، وحينذاك أخذت فكرة بحى متص من الشرق تهم أوربة ، وبدأ التفكير في حملة صليبية للقضاء على القوة الإسلامية Langlois: La vie en France au moyen age II, p. 44-56 ، ولقد عمد البابا إنوسنت الرابع في سنة ١٢٤٥ إلى إرسال سفارتين إلى منغوليا لبلاط الإيلخان ، كانت أحدهما برئاسة الأخ الفرنسيكاني Pian del Carpine ، التي وصلت بعد رحلة ١٥ شهراً إلى قراقورم في أغسطس ١٢٤٦ ، في الوقت الذي اختير فيه Guyuk إيلخاناً وكان بلاطه غاصاً بمجموعة من النساطرة ، لكن ذلك لم يزعجه عن فكرته في أن يعترف أمراء الغرب بسلطانه عليهم ، إلا أن هذا الاتجاه منه لم يحمل البابا على اليأس من الاستعانة بالمغول ، فأنفذ سفارة ثانية برئاسة الأخ الدومنيكاني =

التتار استعداده لمعاونة الملك في غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من
أيدي المسلمين .

١٣٤ — ولقد بالغ الملك في إكرام وفادة الرسل، وأنفذ بالتالي سفارة من لدنه
إلى ملك التتار عادت بعد عامين ، وأرسل معهم إليه خيمة على هيئة كنيسة، وهي
خيمة غالية لأنها مصنوعة بأكلها من القماش القرمزي الجميل الرائع ، وأراد
الملك أن يرى ما إذا كان في قدرته اجتذاب أولئك التتار للإيمان بديننا ، فأمر
بنقش الخيمة بصور تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح ، وجميع أسس عقيدتنا ؛
وأرسل الملك هذه الأشياء جميعها بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان
لغة^(١) التتار ، ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان .

== اسلين Ascelin اللباردي الذي التقى في تبريز بالقائد التتاري بيتشو Baichu الذي
أبدى استعدادا للتجالف ضد الأيوبيين ، وأرسل معه اثنين من بلاطه يؤكدان للبابوية
ما تطم فيه .

أما الرسل الذين يشير إليهم جوائيل فقد كانوا في الواقع اثنين فقط أحدهما يدعى « مارك »
والآخر « داود » ، كما أنهما لم يكونا من قبل الإياخان بل من ناحية نائبه بالموصل ،
لكن الرسائل التي كانا يحملانها كانت نفيز بما يث الأمل الحلو في نفس لويس الذي ردعابه
بسفارة دومنيكانية برئاسة « أندرو » وأخ له ، وقد وصلت هذه السفارة « لتجدد جويوك »
قد مات وقامت مكانه رملة أغل قيمتس بالوصاية ، ولقد برهنت أغل هذه على اعتدادها بنفسها ،
حيث اعتبرت هذه السفارة رمزاً لتدسية الملك لويس الإقطاعية للمغول .

(١) راجع ما يلي رقم ٤٧٢ — ٤٩٢ ، على حين أن Runciman : History of
the Crusades, Vol. III, p, 260. يذكر أنهما كانا يعرفان العربية .

١٣٥ — وقد عاد هذان الأخوان إلى الملك وقت أن كان إخوة الملك قد رجعوا إلى فرنسا ، ووجدوا أن الملك الذي كان قد غادر عكا حيث رحل عنه إخوته قد وصل إلى قيصرية لتحصينها ، ولم يكن بينه وبين المسلمين حينذاك هدنة أو سلام ، وسأروى في مكان آخر كيف كان استقبال انتصار لرسل الملك كما قصوها بأنفسهم على الملك ، وستسمع فيما نقلناه الشيء العجيب المدهش ، لكنني لن أذكر شيئاً من ذلك الآن ، لأن ذلك يحملني على أن أقطع ما بدأت بذكره .

١٣٦ — أما أنا الذي لم أكن أملك غير ألف دينار سنوياً من دخل أرضي فقد أخذت على عاتقي — حين أزمعت ركوب البحر — أن أتكفل بإعاشة تسعة من الفرسان واثنتين من حملة السناجق ، وحدث حين وصلت إلى قبرص أن لم تعد عندي فضلة من المال — بعد دفع أجر السفينة — غير مائتين وأربعين ديناراً ، وحينذاك أنبأني فرساني أنني إذا لم أجهز نفسي بالمال اللازم فإنهم سينصرفون عني ؛ بيد أن الرب — الذي لم يخذلني قط هياً لي ما احتاجه ، حيث أرسل إلى الملك — وكان حينذاك في نيقوسيا — واستخدمني عنده ، ووضع في خزانتي ثمانمائة دينار ، وبذلك أصبح في يدي من المال أكثر مما كنت أحتاج إليه .

• • •

وصول امبراطورة القسطنطينية إلى قبرص

١٣٧ — بينما كنا لانزال مقيمين في قبرص بعثت إلى امبراطورة القسطنطينية^(١)

(١) هي ماري ابنة جان دي برين صاحب عكا وزوجة بلدوين الثاني ، راجع نـ

Stevenson, Crusaders in the East.

كلمة تنبئني فيها بوصولها الى ألباف - إحدى مدن قبرص - ، وتأمرني أن أذهب إلى هناك في طلبها أنا وسيدى افرارد صاحب برين .

فلما بلغنا ألباف أخبرنا القوم أن ريحا عنيفة هبت فقطعت حبال المرساة التي تربط سفينتها^(١) ودفعتها نحو عكا، ولم يبق من متاعها كله سوى عباءتها وميدعتها التي ترتديها أثناء تناول الطعام ، فأخذنا الملكة إلى ليماسول حيث استقبلت أحسن استقبال من الملك والملكة ومن جميع بارونات فرنسا وكذلك من الجيش .

١٣٨ - وفي الصباح بعثت لها بشئ من القماش لتصنع منه ثوبا لها ومعه فراء القاقم الثمين، كما أرسلت اليها بعض « التفتاه »^(٢)، وحدث أن التقى سيدى فيليب دى نانثيل الفارس المعلم الذى كان فى خدمة الملك بخادمى وحامل ترسى وهو فى طريقه إلى الامبراطورة ، فلما رأى هذا السيد الجليل ماهو جار انطلق الى الملك مخبراً إياه أننى أخجلت الملك والبارونات أشد الخجل بإرسال تلك الثياب الى الإمبراطورة ، بينما هم لم يدركوا ماهى فى حاجة اليه .

١٣٩ - وكانت الإمبراطورة قد حضرت تطلب من الملك مد يد المعونة لزوجها الذى خلفته فى القسطنطينية^(٣) وأنها قد حضرت لهذا الغرض ، فرجعت ومعها أكثر من مائتى رسالة منى ومن سواى من أصدقائها ، وقد أقسمنا فى هذه الرسائل أغلظ الأيمان أن نذهب إلى هناك إن رغب الملك أو النائب بإرسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية عقب عودته من رحلته .

(١) أى سفينة الملكة .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce,

(٣) الواقع أن مجيئها كان لطلب النجدة ضد إمبراطور نيقية البيزنطى .

١٤٠ ـ ولكي أفي بيمينى طلبت من الملك وقت أن حان ميعاد عودتنا إلى فرنسا ـ وفي حضرة كونت أيو Eu الذى أحمل كتابه ـ أن يأذن لى بالذهاب إلى القسطنطينية ـ وفاء بعهدى ـ إذا قبل إرسال ثلاثمائة فارس إليها ، فأجابنى الملك بأنه لم يعرف بماذا يجيب ، وأن خزائنه قد أوشكت على الإفلاس رغم أنها كانت عامرة بالمال من قبل (١) .

وبعد أن بلغنا مصر رحلت الإمبراطورة إلى فرنسا مستصحبة معها أخاها
أحنا دى بريين صاحب عكا ، الذى زوجته إلى كونتس دى مونتفورت .

...

سلاطين الروم وأرمينيا ومصر

١٤١ ـ حينما جئنا إلى قبرص كان سلطان الروم أغنى ملوك المسلمين ، وقد جاء بأمر بالغ الدهشة إذ أذاب جانباً كبيراً من ذهبه فى جرار فخارية كتلك التى يستعملها أهل تلك البلاد لحفظ الببند ، سعة كل منها ما بين ثلاثة وأربعة أرتال ، ثم أمر بكسر الجرار لتبقى السبائك الذهبية ظاهرة للعيان فى قلاعه ، فيستطيع كل من يدخل القصر رؤيتها ومسها ، وكان هناك من هذه السبائك ما لا يقل عن ست أو سبع سبائك .

(١) أشار رنسان History of the Crusades, III, p. 261 إلى أن لويس كان يميل إلى استجابة رجاء الإمبراطورة ماري دى بريين ، إلا أنه صارحها بأن السيوف أحجى بأن توجهه أولاً إلى المسلمين .

١٤٢ — وكان في الاستطاعة رؤية ثروته الضخمة من فسطاط كان ملك أرمينيا قد أرسله إلى ملك فرنسا ، ويبلغ ثمنه قرابة خمسمائة دينار ، وأخبر ملك أرمينيا ملك فرنسا أن تابعاً من أتباع سلطان قونية قد أعطاه إياه . أما التابع فهو التابع المستول عن فسطاط الملك ، والموكل إليه حفظ بيوته نظيفة .

١٤٣ — أما ملك أرمينيا فقد أراد أن يتقذ نفسه من الخضوع لسلطان الروم ، ومن ثم مضى إلى ملك التتار واستسلم له ليضمن مساعدته إياه ، ورجع بعدد من المحاربين الذين استطاع بهم لمحاربة سلطان الروم ، وقد استمرت المعركة مدة طويلة ، وتمكن التتار من قتل الكثيرين من رجال السلطان الذين لم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً ما .

ونظراً لشهرة هذه الواقعة التي كان لها صدى عظيم في قبرص فقد ذهب بعض رجالنا إلى أرمينيا ليجمعوا بين المساهمة في القتال والمشاركة في الأسلاب ، غير أنه لم يقدر لأحد منهم أن يعود إلينا .

١٤٤ — أما سلطان مصر فقد توقع وصول الملك في فصل الربيع إليها ، وكان يظن أنه قادر — قبل ذلك الوقت — على هزيمة خصمه اللدود أمير حمص ، ومن ثم مضى لمحاصرة مدينة حمص التي رأى أميرها أن قد سُدَّت أمامه جميع سبل الخلاص من سلطان مصر ، وأدرك أنه لو طال الأجل بالآخر فلا بد من أن يقضى عليه ، لذلك عمد إلى الاتفاق مع أحد خدام السلطان على قتله ، فدس له السم .

١٤٥ — أما الطريقة التي سُمِّ بها سلطان مصر فتتلخص في أن الخادم كان عالماً

بوقت وصول السلطان يومياً بعد تناوله الغذاء للعب الشطرنج ، وأنه اعتاد
الجلوس على السجاد المبسوط عند أقدام فراشه ، فعمد إلى رش السم على البساط
الذى أليف السلطان الجلوس عليه ، وكان السلطان حافى القدمين ، فاتكأ
على جرح فى ساقه ، وسرعان ما سرى السم فى الجرح ، واستنزف كل قوى
الجانب الذى سرى فيه ، وبلغ البسم القلب ، فبقى صاحبه عاجزاً عن الشرب
والأكل والكلام ، وبذلك بقى أمير حمص فى هدوئه ينعم بالسلام ، أما أهل
مصر فقد حملوا سلطانهم إليها .

• • • •

مغادرة الجيش لقبرص ١٢٤٩

١٢٤٦ -- ما كاد يهزل شهر مارس حتى أصدر الملك أمره إلى البارونات وغيرهم
من الحجاج بوجوب إعداد السفن وإعادة شحنها بالخير والمثونة لتكون على أتم
أهبة للرحيل حين يشير الملك بالرحيل ، فلما رأى لويس أن كل شيء تم على
ما ينبغى استعداد للسفر هو والملكة يوم الجمعة السابق لعيد العنصرة^(١) ، وأمر
باروناته أن يسيروا فى إثره وينحروا رأساً إلى مصر ، فكانت سفرته
يوم السبت وبصحبه الجميع ، وما كان أبعد منظر البحر وهو يبدو للعيان -
على امتداد البصر - مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفاً وثمانمائة سفينة ما
بين كبيرة وصغيرة .

(١) وذلك يوم ٢١ مايو ١٢٤٩ .

١٤٧ - أرسى الملك بسفينته عند رابية صغيرة تعرف برأس ليماسول
حولها بقية السفن ، ووطأ الملك الأرض يوم عيد العنصرة .

ولما فرغنا من سماع القداس هبت من ناحية مصر ريح عنيفة قاسية ، بلغ من
عنقها أنه لم يبق من فرسان الملك الألفين والثمانمائة ^(١) سوى سبعائة فقط ، هم
الذين عجزت الريح عن فصلهم عنه أو دفعهم إلى عكا أو سواها من البلاد
القريبة ، وإن ظلوا بعيدين عن الملك أمداً طويلاً .

١٤٨ - سكنت الريح في اليوم التالي لعيد العنصرة ، وحينذاك أبحر الملك
ونحن معه وفقاً لمشئته الرب ، وصادفنا أمير المورة ودوق برجنديا الذي كان
يتجول في إقليم المورة .

فلما كان يوم الخميس التالي لعيد العنصرة وصل الملك أمام دمياط ،
وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهي كتائب يستحب النظر
إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كانت
لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة في
سامعها .

١٤٩ - دعى ^(٢) الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون
بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله ، لاسيما وأنه لم يبق منهم حوله سوى
مالا يجاوز الثلث ، فلم تجد هذه المشورة رضا من الملك ولم تصادف عنده قبولا ،
وججته في رفضه رأيهم هي أن كل تأخر من جهتهم يقوى ساعد العدو لاسيما

(١) يقرر أبو الفدا أن جيش الملك الصليبي كله كان مؤلفا من ٥٩٠٠٠ مقاتل .

(٢) كانت دعوته لإيأم على ظهر سفينته Montjoie الحربية .

وأنه لا توجد ميناء قبل دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيها رجاله، وعلى ذلك فإن أية ريح قوية تهب قد تدفع السفن [الفرنسية] إلى بلاد أخرى، كما حدث يوم عيد العنصرة .

. . .

التأهب للرسو بمصر

١٥٠ — اتفق الرأي على أن يطاء الملك أرض البلاد يوم الجمعة السابق لعيد الثلاث، وأن يحارب المسلمين إذا قاوموه، وأصدر الملك أمره إلى جون لورد بيمونت أن يخصص سفينة صغيرة لي ولا يقرر دي بريين لنزولنا نحن ومن معنا من القرسان، لعدم استطاعة السفن الكبيرة مصافحة الساحل .

١٥١ — وشاء الله أن أجد — حينئذ — إلى سفينتي — مركباً صغيراً قد تنازلت لي عنه سيدتي ليدى بيروت ابنة عمي وابنة عم لورد مونتيليارد، فوضعت بهذا المركب ثمانية من جيادي .

ولما جاء يوم الجمعة ذهبت أنا ولورد إيقرار في كامل سلاحنا إلى الملك، وسألناه عن السفينة الصغيرة حيث أن جون بيمونت أنبأنا أنه لا يجوز لنا استعمالها .

١٥٢ — فلما رأى رجالنا أنهم لا يستطيعون النزول في المركب تركوا السفينة الكبيرة إلى الزورق الموجود بها، وتكاثروا فيه كثرة شرع إزاءها الزورق في الفرق، فلما رأى الملاحون القارب على وشك الفرق غادروه إلى السفينة الكبيرة وتركوا فرساننا بالقارب، فسألت الملاح عن عدد الرجال الزائدين الذين كانوا فيه،

فأجابني بأنهم عشرون من المسلحين ، فسألته عما إذا كان يستطيع أخذ رجالنا إلى الساحل إذا أنقصت هذا العدد فردّ على بالإيجاب ، ومن ثم أخذت في إنقاصهم ، وجعلتهم على ثلاث دفعات حملهم إلى السفينة الكبيرة التي عليها جياذى .

١٥٣ — وبينما كنت أشرف على ترحيل هؤلاء الرجال إذا بفارس من فرسان إيفرار لورد بريين واسمه بلونكيه ، ظن أن الخير له في مغادرة السفينة الكبيرة إلى الزورق ، ولكن الزورق كان قد ابتعد وسقط بلونكيه في الماء وابتلعه اليم .

١٥٤ — ولما رجعت إلى سفينتي وضعت في زورقي الصغير خادما نصبتّه فارسا اسمه هيج فوكولير واثنتين أعزبين شجاعين ، أحدهما فيليني دى فرسى والآخر وليم دامارتان ، وكان كل منهما يضرر أشد الكراهية للآخر ، ولم يكن أحدا قادرا على إقرار الصلح بينهما ، لأن كلا منهما أمسك الآخر من شعره في المورة ، فاستطعت أن أحمل كلا منهما على مساحة زميله ونسيان كراهيته له ، وتعاونا إذ أقسمت لهما على الآثار المقدسة ألا نرسو على الأرض وهما متخاصمان .

١٥٥ — حينذاك رسونا على الشاطئ وحاذينا الصندل الموجود بجانب سفينة الملك الكبير حيث كان الملك ذاته موجوداً بها، وشرع رجاله في الصياح بنا لأننا كنا مسرعين أكثر منهم ، رغبة منى في أن أرسو تحت راية القديس دنيس التي كانت محمولة في مركب آخر أمام الملك ، بيد أنني لم أكرث لصياحهم ، وحملت رجالى على الرسو أمام كتيبة كبيرة من الترك حيث كان منهم ستة آلاف رجل على متون خيولهم .

١٥٦ — لم يكده هؤلاء القوم يروننا حتى شرعوا في التقدم نحونا وهم يهزون
جياهم همزاً عنيفاً ، فلما رأيناهم مقدمين علينا ثبتنا أسنة دروعنا في الرمال
وكذلك مقابض رماحنا ، وأشرعنا ذبابها نحوم ، فلما صاروا جد قريبين منا
ورأوا الرماح توشك أن تخترق بطونهم ولوا مدبرين .

• • • •

رسو الصليبيين أمام المسلمين

١٥٧ — بعث إلى بلدوين دي ريمز — وهو الرجل المستقيم الطيب حين
أرسي بحامل رمحه — يسألني أن أنتظر قدومه ، فأجبت أنه أنتظره عن طيب
خاطر ، إذ لا مشاحة في أن الواجب كان يقتضي أن أنتظر رجلاً مستقيماً طيباً
مثله ، لاسيما وأنه كان يحبوني على الدوام بسطفه .

وقدم علينا بلدوين دي ريمز في ألف من الفرسان ، وعليك يا قارئ أن
تشق بأنني أرسيت وليس عندي حامل ترس أو فارس أو خادم أحضرته معي
من مقاطعتي ، ومع ذلك فإن الرب لم ينسني من مثل هؤلاء .

١٥٨ — وأرسي على يسارنا كونت^(١) يافا ابن عم كونت مونت بليارد وهو
من أسرة جوفانفيل ، وقد أرمي في أفخم أبهة ، لأن سفينته كانت بديعة التكوين
من الداخل والخارج ، وعليها رنكة الذهبى الحلى بصليب محفور . وكان بسفينته
مالا يقل عن ثلاثمائة مجذف ، لكل منهم درقة عليها أسلحة السكونت
وريشة مصبوبة من الذهب .

(١) هو جان ايلين صاحب بيروت وكونت يافا ، ويتصل نسبه بأسرة جوفانفيل من
ناحية الأم .

١٥٩ — وكان يخيّل للناظر — والكونت قادم — أن سفينته تطير ،
وذلك لشدة دفع المجذفين لها بمجاديفهم ، كما كان يخيّل للرائى أن أضواء علوية
تنسكب في السماء كلها طرق سمعه صوت خفق البيارق ودقات الكوسات
والطبول والأبواق الإسلامية الموجودة في سفينته .

وما كادت سفينته تصل إلى أقرب نقطة مستطاعة من الرمل حتى قفز
هو وفرسانه إلى الساحل ، وقد لبسوا خير الدروع ، وأحسنوا التسليح ، ورتّبوا
صفوفهم إلى جوارنا .

١٦٠ — ولقد نسيت أن أقص عليك أن كونت يافا أمر — حالما أرمى —
بنصب خيامه ودهاليزه ، التي ما كاد المسلمون يطالعونها حتى أقبلوا جميعاً وتجمعوا
أمامنا ، ثم عادوا يهزّون جيادهم كما لو كانوا يتأهبون للسكرت علينا ، فلما رأوا
ثباتنا في موقفنا ولونا ظهورهم وعادوا ثانية من حيث جاءوا .

١٦١ — كانت السفينة التي تحمل شعار القديس دنيس راسية على يميننا
مسافة رمية سهم ، وكان هناك رجل مسلم حاول — وقت رسوّها — أن يخترق
صفوف الفرنسيين ، إما لأنه عجز عن كبح شكيمه جواذه ، أو لأنه ظن أن
بقية المسلمين سيندفعون في إثره ، بيد أنه مُزّق شرّاً ممزّق .

...

لويس يَحْتَل دُمِيَّاط

١٦٢ — حينما سمع الملك أن راية القديس دنيس على الشاطئ سار مسرعاً
بسفينته ، ولم يصغ سماعاً إلى القس الذي كان معه ، بل قفز إلى الماء الذي بلغ
إبطيه ، ومضى على هذا النحو معلقاً درعه في رقبتة وخوذته على رأسه ،

ورمحه في يده حتى وصل إلى رجاله الواقفين على الشاطئ ، فلما بلغ الساحل ورأى المسلمين سأل عن يكونون فقيل له « جماعة المسلمين » ، فما كاد يسمع ذلك حتى وضع رمحه على كتفه وحمل درعه أمامه ، وهم بالسكر عليهم لو لم يبادر رجاله إلى منعه من ذلك .

١٦٣ — استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه نبأ رسو الملك، لكنهم لم يتلقوا جواباً ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عاياه ، فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط ، فأنفذ الملك فارساً من لدنه ليتحقق من مغادرتهم إياها ، فعاد الفارس إلى الملك مؤكداً له خلوها من أهلها ، وقال إنه جاس خلال بيوتها .

حينذاك بعث الملك إلى المندوب البابوي وإلى جميع من بالجيش من الأساقفة ، ورتلوا جميعاً في صوت مرتفع الأنشودة القائلة : لك المجد أيها الرب Te Deum laudamus ، وبعد برهة امتطى الملك جواده ، وخذونا كلنا حذوه ، وذهبنا فمسكرنا أمام مدينة دمياط .

١٦٤ — وقد ارتكب الترك أكبر الخطأ بمغادرتهم دمياط، فقطعوا جسراً من القوارب كان هناك مما كان أكبر عائق لنا ، وكبدونا خسارة جمة بإشعالهم النار في سوق المدينة الذي كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وكانت الخسارة التي نجمت عن هذا العمل كبيرة ، لا تعادلها — لا قدر الله — سوى أن يقوم أحدهم بإشعال النار في الجسر الصغير بباريس .

١٦٥ — والآن لنعلن حمدنا لله القوي الذي كان عطوفاً علينا أشد العطف

إد حفظنا من الموت ونجنا من الخطر المحيق بنا حين رسونا ، فقد وصلنا الشاطئ .
مترجلين وقاومنا عدونا وهم على خيولهم ، كذلك تعطف الله علينا حين مكثنا من
الاستيلاء على دمياط ، وإلا ما كان لنا أن نستولى عليها إلا بالجماعة ، إذ عن
طريقها وحدها تمكن الملك يوحنا ^(١) من أخذها زمن آبائنا .

غلطة لويس وفوضى الصليبيين

١٦٦ — يستطيع الرب أن يقول عنا ما قاله عن أبناء إسرائيل : « نسوا الله
مخلصهم . . . ورددوا الأرض الشهية ولم يؤمنوا بكلمته » ، فما الذي يقوله عنا
أكثر من هذا القول ؟ يقول إنهم نسوا الرب ، وكذلك نحن نسيناه كما
سأقص ذلك عليك حالا .

١٦٧ — لكنني سأبدأ بأن أذكر لك أن الملك دعا إليه بارونات وكتابه
العلمانيين ، وسألهم أن يعينوه في كيفية توزيع الغنيمة التي استولوا عليها من
المدينة ، فكان البطررك أول المتكلمين فقال « مولاي أحسب الخير في أن تحتفظ
بالخطة والشعير والأرز وكل ما يقتات به وذلك لتستطيع تموين المدينة ، وأن
تبعث من ينادى في الجيش بأن يحمل ماسوى ذلك من البضائع إلى المستودعات ،
وإلا حق عليهم حرمان الكنيسة » ، فصادق جميع البارونات على
قول البطررك ، فلما تم ذلك كانت قيمة جميع البضائع التي أودعت في المخازن
لا تتجاوز ستة آلاف دينار .

(١) يقصد بذلك جان دي برين ملك بيت المقدس الذي اشترك في الحملة الصليبية
الخامسة الزاحفة على دمياط عام ١٢١٩ ، لكنه كان قد تمخلى عن الحملة لشدة النزاع بينه
وبين يلاجيوس المندوب البابوي والمنظمات الحربية والإيطالية المساهمة في هذه الحملة راجع
في تفصيل ذلك : Paderborn : Capture of Damietta .

١٦٨ — ولما تم ذلك استدعى الملك والبارونات جون صاحب Valery

التقى وقال له « يا لورد فاليري ، لقد اتفقنا على أن يسلمك القاصد الرسولى مبلغ الستة آلاف دينار ، لتقوم بتوزيعها كما يترأى لك أنه أحسن الطرق » ، فأجابه الرجل التقى « ياسيدى إنك تشرفنى كل التشريف ، وإننى لشاكر لك كل الشكر ، واسكنى أتوسل اليك يا سيدى إعفائى من هذا الشرف لعجزى عن تنفيذ رغبتك ، لأننى بذلك ألغى عادات الأرض المقدسة الطيبة ، حيث اتفق على أن يكون من نصيب الملك ثلث الغنائم التى يستولى عليها من مدن العدو التى تقع فى يده ، وأن يأخذ الحجاج الثلثين الباقين » .

١٦٩ — « وقد راعى الملك يوحنا هذه القاعدة حين استولى على دمياط ، ويخبرنا السلف أن هذه القاعدة روعيت أيضا من قبل ملوك بيت المقدس الذين كانوا قبل الملك يوحنا ، فإن رضيت بأن تسلمنى ثلثى القمح والشعير والأرز وبقية الذخائر أخذت على عاتقى — راضيا — مهمة توزيعها على الحجاج » .

فلم يقبل الملك الرضوخ لهذه المشورة ، ومن ثم ظلت الأمور على ما هى عليه ، واستاء الكثيرون من أن الملك قد خلى جانبا التقاليد الكريمة القديمة .

١٧٠ — أما جماعة الملك الذين يقال إن يدهم أطلقت فيما لديهم فقد استبقوا التجار عندهم ، وأرغموهم على شرائها بأعلى ثمن مستطاع ليبيعوها فى حوانيتهم ، وسرت هذه الإشاعة فى كل مكان وتجاوزتها إلى البلدان الأجنبية ، فكف أكثر التجار عن القدوم إلى الجيش وتزويده بالثؤنة .

أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بمالهم للتصرف فيه فى الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة ، وأفرطوا إفراطا جما فى تقديم اللحوم .

١٧١ — أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات ، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر — أن عزل الملك الكثيرين من رجاله ، فلما سأله عن الدافع الذي حمله على ذلك أنبأني أنه وجد — بالتأكيد — أن الذين عزلهم قد أقاموا أما كن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطه ، وأن ذلك العمل منهم كان في الوقت الذي كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم .

س: مهاجمة المصريين للمعسكر وموت ولتر أوترينخ

١٧٢ — والآن لنرجع إلى ما كنا فيه ، ونقص كيف قام جميع فرسان السلطان بعد قليل من استيلائنا على دمياط بالنجىء إلى المعسكر ومهاجمته من ناحية البحر .

سلح الملك وكافة الفرسان أنفسهم ، وذهبت للحديث مع الملك وأنا في كامل عدتي وسلاحي ، ووجدته هو الآخر في كامل سلاحه ، جالسا على كرسيه ومن حوله خواص فرسانه الكرام في عدتهم ، وسأله عما إذا كان يرغب في أن أخرج أنا ورجالي من المعسكر حتى لا يهاجم المسلمون خيامنا ، فلما سمع يوحنا لورد بيمونت سؤالي هذا صاح بي في صوت عال جداً ، وأمرني — باسم الملك — ألا أبرح نخيبي حتى يأمر الملك بذلك .

١٧٣ — ولقد أخبرتك بالأمراء الكرام الذين كانوا يؤلفون خاصة الملك ، وفيهم ثمانية من أبرع الفرسان قد فازوا بالجوائز لبسالته في الحرب في البلاد البحرية الأخرى ، وجرت العادة على تسمية أمثال هؤلاء بالفرسان الطيبين ، وها هي ذى أسماء الفرسان الذين كانوا حول الملك : جوفري لورد سارجنس ، ماتيولورد مارلي ، فيليب لورد نانتك ، أمبرت لورد بيجو ، كونستابل

دى فرانس ؛ بيد أن الأخير لم يكن حاضراً حينذاك بل كان خارج المعسكر هو ورئيس فرقة الرماة بالسهم قائمين بحراسة المعسكر حتى لا يقوم الترك بعمل ما يضرنا .

١٧٤ — وحدث أن سلاح ولتر لورد أوترينخ نفسه في معسكره من كل النواحي، وإذ كان ممتطياً صهوة جواده ودرعه في رقبتة وخوذته على رأسه فقد أمر برفع رايات فسطاطه ، وهمز جواده ليكر على الترك، فلما غادر المعسكر وحيداً صاح جميع رجاله بصوت عال « Chasteillon » ، وحدث أنه حينما دنا من الترك سقط وسقط فوقه جواده الذى ما لبث أن انطلق في سبيله ، حاملاً أسلحة مولاه ووصل إلى أعدائنا ، وذلك لأن أغلب المسلمين كانوا يمتطون إناث الخيل مما دفع الحصان لأن يذهب إلى معسكر المسلمين .

١٧٦ — وذكر لنا — من شاهدوا الحادث — أن أربعة من الترك جاءوا إلى حيث كان لورد ولتر مسجى على الأرض وأخذوا يضربونه بدبابيسهم^(١) ، فهب كونسابل دى فرانس وجماعة من جنود الملك لتخليصه ، وأحضروه إلى معسكره وهو فاقد النطق ، ومضى إليه في فسطاطه جماعة من جراحي الجيش ومطبييه ، ولما ظهر لهم أن ليس من خطر عليه أخذوا في فصد ذراعيه .

١٧٦ — وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة اقترح علينا أوبرت لورد نارس أن نمضى ونراه لأننا لم نكن قد زرناه حتى ذلك الوقت ، وكان رجالاً ذائع الصيت مقداماً، فلما جئنا فسطاطه تلقانا حاجبه وطلب إلينا أن نسير في هدوء حتى لا نوقظ مولاه ، ففعلنا وأبصرناه مسجى على القراء ، وذهبنا إليه في هدوء شديد

(١) الدبوس عصا طويلة في طرفها كرة من حديد .

فوجدناه ميتاً، فلما علم الملك بذلك النبأ قال إنه لا يرغب في أن يكون في الجيش أمثال هذا الرجل ممن يعملون عكس أوامره .

معاهدة الهجوم على المسلمين

الملك يقرر انتظار مجيء كونت بواتييه

١٧٧ — كان المسلمون يدخلون معسكرنا — كل ليلة — مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من رجالنا^(١)، وقد حدث أن قتلوا حارس لورد كورتني وتركوه على إحدى المناضد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم، وقد حملهم على ذلك العمل أن السلطان كان يعطي ديناراً من الذهب لكل من يأتيه برأس نصراني .

١٧٨ — بينما كنا نعاني هذه الشدة إذ وكلنا حراسة المعسكر كل ليلة إلى طائفة من الجند تقوم بذلك على ظهور الجياد، فكان المسلمون إذا أرادوا دخول المعسكر انتظروا حتى يهدأ صوت الجياد ويسكت صوت الجند، ثم يتسللون إلى المعسكر فيصيبون ما يصبون ثم يغادرونه قبل انبلاج غرة الصباح، لذلك أمر الملك أن تترجل الفرقة الموكلة إليها الحراسة ليكون كل ما بالمعسكر في أمان، لأن الجراس من رجالنا يكون بعضهم إلى جوار البعض الآخر .

١٧٩ — بعد أن تم ذلك أجمع الملك العزم على عدم مغادرة دمياط حتى يحضر أخوه كونت بواتييه بمن تبقى معه من القوات الفرنسية، ولكي يحول الملك بين المسلمين وبين دخول المعسكر على خيولهم فقد أمر بإغلاق جميع منافذ المعسكر، ووكّل إلى رماة النشاب حماية هذه الاستحكامات كل ليلة، كما وكلها إلى جماعة من عسكره، ووضع مثل هؤلاء عند مدخل المعسكر .

(١) أنظر زيادة . حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٢٢ .

١٨٠ — ولما انتهى عيد القديس Remigius ولم ترد لنا قط أية أخبار من ناحية كونت بواتييه : الأمر الذى انزعج له خاطر الملك وخواطر جميع الجند خوفاً من أن يكون قد نالهم سوء ، أقول لما انتهى عيد القديس ريميغيوس ، وانقطعت عنا أخبار الكونت مضيت إلى القاصد الرسول ، وذكرته بما فعله مطران مورتوت ونحن على سطح البحر من أنه قام بالقداس ثلاثة سبوت متتاليات ، وكيف أنه لم يأت السبت الثالث حتى كنا وصلنا قبرص ، فآمن القاصد الرسول بما قلت ، وعقد ثلاثة قداسات فى ثلاثة سبوت بين صفوف الجيش .

١٨١ — بدأ القداس الأول من معسكر القاصد الرسول ، حيث ذهب جميع من فيه إلى كنيسة سيدتنا فى المدينة ، وهى الكنيسة التى كانت مسجداً للمسلمين ، غير أن القاصد الرسول كرمها لأم الله ، وقام بالقداس سبتين حضرهما الملك وكبار رجال الجيش الذين نالوا التوبة من القاصد الرسول .

١٨٢ — وقبل أن يطلع السبت الثالث كان الكونت بواتييه قد حضر ، وكان خيراً له أنه لم يحضر قبل ذلك ، إذ كانت هناك زوبعة بحرية عاصفة أمام ديمياط ، حطمت ما لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كبيرة وصغيرة وغرق جميع من فيها ، فلو أن الكونت بواتييه حضر قبل ذلك لهلك هو وجميع من معه عن آخرهم .

١٨٣ — حينما وصل كونت بواتييه استدعى الملك جميع بارونات جيشه ليقرروا أى سبيل يسلكون : أيمضون إلى الإسكندرية؟ أم إلى القاهرة؟ فاتفق رأى بطرس كونت بريتانى الطيب والفريق الأكبر من بارونات الجيش على

النهوض لمحاصرة مدينة الإسكندرية ، نظراً لوجود ميناء صالح أمامها مما يمكن السفن من جلب المثونة للجيش ، فعارض هذا الرأي كونت دارتوا ، وقال إنه لا يوافق مطلقاً على أن يمضوا إلى مكان ما سوى القاهرة لأنها عاصمة مملكة مصر ، وقال إذا أردتم قتل الحية فابدأوا برأسها ، فحالا الملك جانباً مشورة بارونات وأخذ بوجهة نظر أخيه .

الجيش يشرع في زحفه

١٨٤ — شرع الملك يزحف بجيشه عند بدء القيام صوب القاهرة نزولاً على مشورة كونت دارتوا ، ووجدنا بالقرب من دمياط مجرى من الماء يخرج من فرع دمياط ، فاتفق الرأي على أن يبقى الجيش هناك مدة يوم ليسد هذا المجرى حتى يتمكن من الزحف ، وكانت المسألة هينة إذ استطعنا أن نسوي المجرى الفرعى بطريقة جعلت المياه تندفع في يسر خلال الفرع الرئيسى ، وحين مرورنا بهذا الفرع أرسل السلطان خمسمائة من أحسن فرسانه الذين وجدهم بالجيش ، والذين يتقنون ركوب الخيل لمضايقه جيش الملك وتعويق زحفنا .

١٨٥ — فلما كان يوم عيد ميلاد القديس نيقولا أصدر الملك إلينا أمره بالاستعداد للزحف ، ومنع أى شخص من أن يدفعه التهور لمهاجمة المسلمين .

ولما أخذ الجيش يتقدم في زحفه ، ورأى المسلمون أن رجالنا لا يقومون بأى هجوم عليهم — وقد علموا بأن الملك كف رجاله عن ذلك — اشتد عزمهم وكروا على الفرسان الداوية الذين يؤلفون مروحة الجيش ، وتقدم أحد الأتراك فحمل فارساً من فرسان المعبد وطرحه أرضاً أمام حوافر جواد الأخ رينوفيشى Vichie رئيس فرسان المعبد .

١٨٦ — فلما رأى المارشال ذلك العمل صاح ياخوانه فرسان المعبد « كروا عليهم باسم الرب، فإننى لأستطيع أن أتحمّل هذا » ، ثم أعمل مهمازه فى خاصرتى جواده واقتدى به بقية الجيش ، وكانت جياد رجالنا قوية قد نالت قسطها من الراحة ، على حين كانت خيول الترك منهوكة القوى ، وقد سمعت أنه لم ينبج منهم أحد بل لاقوا جميعاً حتفهم ، ووثب الكثيرون منهم إلى النهر فماتوا غرقاً .

النيـل

١٨٧ — والآن أرى من الملائم أن أقص عليك شيئاً عن النهر الذى يخترق مصر وعن هذه الجنة الأرضية ، وإننى لمخبرك بهذه الأشياء كي تدرك أموراً معينة سأتناولها .

يختلف هذا النهر عن بقية الأنهار كافة التى تجرى إلى الجنوب وتنصب فيه نهيرات عدة ، ثم تتجمع كلها فى مجرى واحد يسير خلال أرض مصر ، ثم يتفرع إلى سبعة فروع تمتد عبر البلاد .

١٨٨ — وبعد انتهاء يوم القديس Remigius تفيض الأنهار السبعة فى البلاد وتغضى السهول ، فإذا ما انسحبت هذه المياه خرج الفلاحون لحرث الحقول بمحاريث ليس لها عجل ، فيبذر الواحد منهم فى باطن التربة القمح والشعير والكمون والأرز ، فتخرج هذه نباتاً طيباً ليس بعده ما هو أطيب منه ، ولا يعرف أحد كيف يأتى الفيضان إلا أنه بمشيئة الرب ، فإذا لم يأت الفيضان لم يتم شيء ، لأن حرارة الشمس القوية تذبله لاسيما وأن السماء لا تمطر أبداً فى مصر .

ومياه الأنهار عكرة على الدوام ، لذلك إذا أراد الأهالى الشرب عمدوا إلى أخذ المياه ليلاً وألقوا فيها أربع لوزات أو أربع حبات فول ، فلا يأتى عليها الصباح حتى تكون صالحة للشرب خالية من كل شائبة .

١٨٩ — وقبل أن يدخل النهر مصر يعتمد الأهالي — جريا على عاداتهم — إلى رمى الشباك فيه مساء ، فإذا تنفس الصباح وجدوا فيها بضائع ثمينة كالزنجبيل والراوند وخشب الصبار والدارصيني ، ويقال إن هذه الأشياء كلها تأتي من الجنة الأرضية ، لأن الرياح تهب فتدفع الأشجار أمامها إلى الجنة كما تدفع الخشب الجاف إلى غابات بلادنا ، ويبيع التجار لنا خشب شجر الجنة الجاف .

ولمياه النيل خاصية معينة ، فكنا إذا وضعناه في أواني فخارية بيضاء من صنع البلد وعلقناها بحبال إلى فساطيطنا أصبحت — رغم حرارة النهار — باردة كأنها خارجة من نبع بارد .

١٩٠ — ولقد قيل في مصر إن سلطان البلاد كثيراً ما حاول الوقوف على مصدر مياه النهر ، وأنه أرسل لهذا الغرض جماعة تحمل معها نوعاً من الخبز يعرف « بالبقسماط » لأنه يخبز مرتين ، ويعيشون على هذا الخبز حتى يعودوا ثانية إلى بلد السلطان .

وقد ذكرت هذه الجماعة أنها اكتشفت منابع النهر ، وأنها وصلت في سيرها إلى كتلة ضخمة من الأحجار حادة رأسية لا يستطيع أحد مجاوزتها ، وينبع النهر من هذه الصخور ، وخيل إليهم أن هناك وفرة هائلة من الأشجار في ذلك الجبل العالي ، وقالوا أيضا إنهم وجدوا أنواعا شتى عجيبة من الحيوان المفترس كالآسياد والحيات والفيلة جاءت تنظر إليهم من شواطئ النهر وهم يصيدون فيه .

١٩١ — والآن نرجع إلى موضوعنا الأول فنقول إن النهر حينما يسير في مصر تتفرع منه عدة فروع كما ذكرت آنفا ، يذهب أحدها إلى دمياط والآخر إلى الإسكندرية والثالث إلى تنيس والرابع إلى رشيد ، وقد جاء ملك فرنسا بجميع

جيشه فى هذا الفرع الذى يمشى إلى تنيس ، ونصب خيامه هناك ، على حين أن جميع قوات السلطان كانت معسكرة على الجانب الآخر ضد قواتنا ، للدفاع عن الممر الذى كان من اليسير عليهم حمايته ، نظرا لأنهم رأوا أن ليس ثمة أحد بمستطيع عبور هذا الفرع للزحف عليهم إلا إذا كان ذلك سباحة .

بناء جسر على النهر

١٩٢ — قرر الملك بناء جسر عبر النهر ليمر عليه الجند فى زحفه على الشريقيين ، ورأى الملك أن حماية القائمين بالعمل فى البناء تقضى تشيد برجين يعرفان « بالقطين » ، وكان هناك أمام القطين بنيان لوقاية الواقفين على الأرض من رميات آلات المسلمين التى نصبوا منها ست عشرة آلة .

١٩٣ — ولما وصلنا إلى هناك أمر الملك ببناء ثمانى عشرة آلة، وجعل جوساين أمير Cornaut مشرفا على الآلات ، وأخذت آلاتهم وآلاتنا تتبادل الرمى ، لكننى لم أعلم أبدا أن آلاتنا أدت إلى خسارة كبيرة فى صفوف العدو .

وقام بالحراسة النهارية أخو الملك ، أما الحراسة الليلية للطرق المقفلة فقد قمنا بها نحن الفرسان الآخرين ، فظل الحال على هذا المنوال حتى قبيل عيد الميلاد بأسبوع واحد .

١٩٤ — ما كاد رجالنا يفرغون من بناء الطرق المقفلة حتى شرعوا فى إقامة الجسر، لأن الملك كره أن تصيب مهام المسلمين — الذين يهدفون اجتياز فرع النيل — أحدا من رجالنا القائمين بنقل التراب ، وقد أخطأ الملك وجميع

باروناته في أثناء بنائهم هذا الجسر لأنهم كانوا قد ردموا - كما ذكرت من قبل - أحد فرعى المجرى من الناحية التي يخرج عندها من المجرى الرئيسى ، وكذلك فكروا في ردم فرع للنيل على بعد مسافة نصف فرسخ من النقطة التي يخرج عندها من المجرى الرئيسى^(١) .

١٩٥ - ورأى الشرقيون إفساد الجسر الذى أمر الملك بينائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا في يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع في عمله ، وذلك أنه كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التي يحدثونها .

١٩٦ - اجتمع المصريون في الحجرة التي مات فيها السلطان متأثرا بالمرض الذى ألم به وهو أمام مدينة حمص ، واتفقوا فيما بينهم على أن يولوا مكانه عليهم مسلما آخر يعرف بابن الشيخ الذى أمر فريقا من رجاله بالنهوض إلى معسكرنا أمام دمياط ومهاجمته فامتلأوا لأمره ، وجاء إلى بلدة تعرف بأشموم طناح على فرع النيل .

وفي يوم عيد الميلاد كنت أتناول طعام الغذاء أنا وفرسانى على مائدة بطرس لورد Avallon ، وبينما نحن على الطعام إذا بالمسلمين يقدمون مسرعين إلى نخيمنا وفتكوا بجماعة من التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين ، فغادرنا النخيم لتسليح .

(١) أنظر نقد خطط لويس الحربية في مهاجمته هذه في كتاب

Oman : Hist. of the Art of war in the middle Ages.

١٩٧ — وعلى الرغم من إسرارنا الشديد فإننا — حين عدنا — لم نجد مضيفنا لورد بطرس لأنه كان خارج المعسكر وقد ذهب لصد المسلمين، فأعملنا مهمازنا في خواصر جيادنا وأنقذناه من أيدي المسلمين الذين طرحوه أرضا وعدنا به إلى المعسكر هو وأخوه لورد قال . أما فرسان الداوية الذين خرجوا على صوت استغاثتنا فقد حمونا في عودتنا بشدة وببسالة ، وتقدم الأتراك وهم يضايقوننا من الناحية اليمنى ، فأمر الملك بتحصين المعسكر بحفر الخنادق على الجانب المطل على دمياط ، وأن تمتد هذه الخنادق من فرع دمياط .

صد هجوم المسلمين

١٩٨ — أما ابن الشيخ زعيم الترك الذي ذكرت لك اسمه حالا فقد كان من أعظم المسلمين مكانة ، وكان يحمل على رايته رنك الإمبراطور الذي جعله فارساً .

١٩٩ — كان اسمه ابن الشيخ أو كما يسمونه « الشيخ بن الشيخ » وكان هذا اللقب نعتاً بالغ التشريف عند المسلمين ، لأنهم الشعب الذي يحل — أكثر من أى شعوب العالم الأخرى — مكانة الكبير ويوقره إذا حفظه الله من سوء السمعة والكبائر .

وجميل هو أسس الملك إليه أن سسدين — هذا التركي البطل — قد يتناول طعامه في فسطاط الملك يوم عيد ميلاد القديس سباستيان .

٢٠٠ — فلما علم الملك بذلك رتب أموره بأن يقوم أخوه كونت دارتوا بحراسة الطرق المقلية وآلات الحرب، وأن يقوم الملك وأخوه الآخر الكونت دانبجو الذي صار فيما بعد ملك صقلية بحراسة المعسكر من الناحية المؤدية إلى القاهرة ، وأن

نقوم نحن أهل شمبانيا مع كونت بواتييه بحراسة المعسكر الموجود ناحية دمياط،
وحدث أن أمير الترك المشار إليه حمل رجاله على العبور إلى الجزيرة الواقعة
بين فرعى دمياط حيث يعسكر جيشنا ، وأمرهم بالوقوف صفوفا تصل بين
الفرعين .

٢٠١ — فقام ملك صقلية بمهاجمتهم ودحرم ، وغرق الكثيرون منهم
في فرعى المياه ، ومع ذلك فقد بقي فريق كبير منهم أحجم رجالنا عن مهاجمته
خوفا من الحجارة المتساقطة من آلات حرب المسلمين التي كانت تقذفها بين
الفرعين .

وحدث في الهجوم الذي شنه ملك صقلية على الترك أن اخترق جي
كونت فريز بجواده صفوف الترك وهاجم — على رأس فريق من فرسانه —
كتيبة من المشاة المسلمين فطرحوه أرضاً ودقت ساقه ، فعاد به اثنان من
فرسانه محمولا على أذرعتهما ، ونجا ملك صقلية من الهلاك بأعجوبة ، وكسب
شرفاً عظيماً في ذلك اليوم .

٢٠٢ — أما المماليك فقد هاجمونا نحن وكونت بواتييه ، فحملنا عليهم حملة
صدق دفعتهم إلى الخلف مسافة كبيرة ولقى البعض منهم حتفه . أما نحن فقد
عدنا دون أن نتكبد أية خسارة .

...

النار الإغريقية تقذف الأبراج

التي تحمي الطرق المقفلة

٢٠٣ — حدث في ذات ليلة من ليالي حراستنا الأبراج المشرفة على الطرق
المقفلة أن جلب المسلمون آلة تعرف « بالمقلاع » لم تكن لديهم قبل ذلك الحين

ووضعوا النار الإغريقية في حمالة لآلة ؛ فلما طالع الحال لورد وولتر الفارس
الطيب الذي كان معي قال :

٢٠٤ - «أيها اللوردات : إننا في أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن ؛ ذلك
أنهم إذا أضرموا النيران في أبراجنا وبقينا حيث نحن فلا بد أننا هالكون بالحريق ،
وإذا غادرنا أماكن دفاعنا هذه التي وكلت حراستها إلينا فقدنا شرفنا ، وإن
يدفع عنا الخطر سوى الله وخده ، لذلك فإن النصيحة والرأي عندي أن
نطرح على أيدينا وركبنا كلها قذفونا بالنيران ، وندعو مخلصنا أن يقينا شر
هذا الخطر » .

٢٠٥ - فلما أخذوا في إطلاق النار انطرحنا أرضا على معاصمنا وركبنا كما علمنا ،
وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقللة ، واستقرت
أمامنا في الحفرة التي كان الجيش يعمل على إطفاء النار بها ، وكانت
المسلمون لا يستطيعون إصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحي الجيش اللذين
أمر بهما الملك ، فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على
رأس رجال المطافيء .

٢٠٦ - وكانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون بدميل كبير
من القار ، ذات ذنب يقارب الريح طولا ، وكان يصحبها صوت هائل كدوى
الرعد ، وكأنها طائر في الجو ؛ تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل
المعسكر يرى كل شيء كأنه في وضوح النهار ، وقد أطلق المسلمون النيران علينا
من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس
المتحركة .

٢٠٧ - وكان ملكنا القديس كما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس في فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكياً أيها «الرب السيد الحنان ، احفظ لى شعبى » . وإتنى لمعتقد حقاً أن صلواته قد أسعفتنا فى شدتنا ، وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل إلينا أحد حجابيه يسألنا كيف أصبحنا ؛ وعما إذا كانت النار أصابتنا بضرر ما .

٢٠٨ - وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على مقربة من المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى Avligoiy قادم نحوى وقال لى « يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق عن بكرة أبينا ، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيراً من النبال حتى لكأن سياجا ضخماً من اللهب كان يستهدف برجنا » ، فقمنا معه وذهبنا إلى حيث أشار ، ووجدنا ما قاله حقاً ، فأخذنا النيران ، بعد أن أخذ المسلمون يرموننا بالنبال التى يرمونها عبر المجرى .

البرج يحترق بالنار الإغريقية

٢٠٩ - استمر إخوة الملك قائمين بحراسة البرجين نهارة ، وكانوا يذهبون إلى أعلا البرجين ، فيلقون القذائف من السهام على الشرقيين وهم فى معسكرهم ، وذلك لأن الملك أمر أن يستمر ملك صقلية مضطهما بحراسة البرجين نهارة ، بينما نقوم نحن بحراستهما ليلاً ، وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيمهم للأبراج ، وأخرج المسلمون ، آلاتهم فى وضوح النهار ، بينما كانوا لا يجرءون من قبل على استعمالها إلا ليلاً ، وأخذوا يرموننا بالنار الإغريقية .

٢١٠ - واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كنب من الجسر الذى يعمل الجيش

فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب الى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى الى احتراق البرجين ، واشتد حزن ملك صقلية حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقي بنفسه الى حيث النار تشتعل عسى أن يطفئها ، وبينما كان فى شدة الغيظ كنت أنا ورجالى نمدد الرب ، إذ لو استمرروا فى الرمي حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة .

٢١١- حين سمع الملك بما حدث أرسل فى طلب البارونات ، وسألهم أن يقوم كل منهم بحاجب مالىه فى السفن من خشب لتشييد برج يساعد على ردم القناة ، وأراهم بوضوح أنه لا يوجد ثم خشب يمكن استعماله فى أداء هذا الغرض سوى خشب السفن التى تجلب مؤونتنا الى النهر ، فقام كل منهم وأحضر حسب ما استطاع ، فلما تمت إقامة البرج قدر ثمن ما استعمل فيه من الخشب بعشرة آلاف دينار أو تزيد .

٢١٢- كذلك صمم الملك على ألا يدفع البرج الى الأمام الى حيث الجسر إلا نهراً حين تكون دورة ملك صقلية فى الحراسة ، وذلك لكي يستعيد خسارة البرجين اللذين احترقا أثناء قيامه بالنوبة ، فتم مارآه الملك ، وما كاد ملك صقلية يتسلم دورته فى الحراسة حتى دفع البرج الى الجسر ، وجعله حيث كان البرجان المحترقان يشرفان على الطريق المفقول .

٢١٣- فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم ، وصفوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب الى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فانت عليه كله ، وكان عطف

الرب عظيماً على وعلى من معى من الفرسان فى هذه المرة ، إذ لو كنا قائمين بحراسته تلك الليلة لتعرضنا للخطر كما حدث فى المرة السابقة التى ذكرت لك عنها شيئاً .

خوض النهر ومقتل كونت دارتوا

٢١٤ - لما رأى الملك ماجرى استدعى باروناته للمشاورة ، فأجمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه للزحف على المسلمين نظراً لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدراً يكافى ما يستطيع الشرقيون حفره من ناحيتهم .

٢١٥ - ثم تقدم لورد أمبرت إلى الملك معلناً إليه أن أحد البدو جاءه مخبراً بإياه بأن فى استطاعته أن يدلنا على مخاضة صالحة ، وأشار علينا بأن ننقده خمسمائة بيزانت ، فوافق الملك على نقده ما طلب ، على أن يبرهن من جانبه على صدق عهده ؛ وحينئذ تقدم الكونستابل إلى البدوى الذى رفض أن يدلنا على المخاضة ما لم يتسلم التقود أولاً ، ومن ثم اتفق على إعطائه المبلغ وتناوله .

٢١٦ - صمم الملك على أن يقوم بحراسة المعسكر دوق برجنديا والرجال البارزون الذين جاءوا مع الجيش من وراء البحار ، وبذلك لا يصيبه خطر ما . واتفقوا على أن يعبر الملك وإخوته الثلاثة المخاضة فى المكان الذى يدلهم البدوى عليه ؛ وأعدت التجهيزات لعبورها يوم الثلاثاء الثامن من فبراير ١٢٥٠ ، يوم الثلاثاء الزفير الذى ما كاد فجره يتنفس حتى جمعنا رجالنا من شتى النواحي ، فلما أخذنا للأمر أهبطه ذهبنا إلى المجرى ممتطين جيادنا وبدأنا فى السباحة ، حتى

إذا توسطناه ألفينا أرضاً استطاعت خيولنا أن تسير عليها ؛ وكان على الشاطىء الآخر للمجرى ثلاثمائة مسلم ، كلهم فوق جيادهم .

٢١٧- حينذاك قلت لمن معي : «أيها السادة ؛ انظروا إلى يمينكم وانسحبوا إلى هناك ؛ إن الشاطىء لين ناعم ، والجياد تسقط على رءسها وتفترقهم » ؛ وكان واضحاً أن هناك جماعة غرقت أثناء العبور ، وكان من بين الغرقى جون لورد أورليان الذى كان يحمل راية الجيش ؛ ومن ثم أخذنا نتحرك حتى عبرنا المجرى ، ووجدنا بعدئذ طريقاً جافاً عبرناه ؛ فالشكر لله على أن لم يسقط أحد منا ، وما كاد الترك يرون أننا قد عبرنا النهر حتى لاذوا بأذيال الفرار .

٢١٨- وقد صدر أمر الملك بأن تتألف طليعة الجيش من فرسان المعبد ، وتليهم الفرقة الثانية بقيادة كونت دارتوا الذى ما كاد يعبر المجرى حتى اندفع بمن معه على الممالك الذين فروا من أمامه ؛ فذكر له فرسان الداوية أنه أغاظهم بذلك العمل أشد الغيظ ، لأن مكانه وراءهم ، وطلبوا إليه الرجوع إلى مكانه كما رتب الملك الأمر من قبل ، فلم يجبهم كونت دارتوا إلى سؤالهم ، لأن « كان » لورد مرل كان ممسكاً بلجام جواده ؛ وكان فو كان مرل فارساً بارعاً جيداً ولكنه لم يسمع شيئاً مما قاله الداوية للكونت لصمم كان به وصاح « كروا عليهم ؛ كروا عليهم ! »

٢١٩- فلما رأى الداوية ذلك أخرجهم أن يكون للكونت التقدم عليهم ، فأعملوا مهاميزهم في خواصر جيادهم واختلط الحابل بالنابل ، وأخذوا في مطاردة الممالك الذين فروا من أمامهم متجهين يميناً تجاه مدينة « المنصورة » ، ثم إلى ما وراءها من المزارع المؤدية إلى القاهرة .

ولما فكر رجالنا في العودة أخذ الممالك يرمونهم بالقسي والسهام في
شوارع المدينة الضيقة ؛ وهناك قتل كونت دارتوا ولورد سوسي المعروف
برادول وكثيرون غيرهما من الفرسان الذين بلغ عددهم قرابة ثلاثمائة قتيل ؛
أخبرني رئيسهم أن خسارة من الفرسان المسلمين الراكي الجياد بلغت .

...

المسلمون يجرحون جوائفيل

وينقذه كونت دانجو

٢٢٠ - صممت أنا وفرساني على وجوب مهاجمة جماعة من الممالك كانوا
يضمون أمتعتهم في معسكرهم القائم إلى يسارنا فباغتناهم ، وبينما كنا في آثارهم
عبر معسكرهم لحت مسلماً ممتطياً جواده وقد أمسك اللجام له أحد فرسانه .

٢٢١ - وبينما كان يضع يديه على السرج لامتطاء حصانه شككته برمحى تحت
إبطه فخر قتيلاً ، فلما رأى فارسه ما حدث لسيدته تركه جانباً هو وجواده ،
وطعننى - وأنا أمر - برمحه بين كيتفى وأمسكنى بشدة وجذبني إلى أسفل ،
فلم أستطع أن أجز حسامى من منطقتى ، ومن ثم جذبت السيف المعلق إلى
جوادى ، فلما رآه مشهوراً فى يدي سحب رمحه وتركنى .

٢٢٢ - ولما خرجت أنا وفرساني من المعسكر وجدنا ما يقرب من ستة آلاف
من الممالك قد تركوا خيمهم وارتدوا إلى الحقول ، فلما أبصرونا اندفعوا نحونا
وفتكوا بهيج لورد Trichatél ولورد كونفلانس الذى كان معى يحمل العلم ،
فأعملنا المياميز فى جيادنا وذهبنا لتخليص رادول لورد Wavou الذى كان
معى والذى ضربوه ضربة طرخته أرضاً .

٢٢٣- وبينما كنت آيياً هاجمى المماليك برماحهم ، فجفل حصانى تحت الضغط ووقعت على أذنيه ، وما كدت أم بالوقوف حتى نهضت ودرعى فى عنقى وسيفى فى يدى ، وحينذاك جاءنى أحد رجالى وهو ايفرارد لورد Siverey — يرحمه الله — وقال إنه ينبغى علينا أن نبتعد ونلتجئ إلى بيت متهدم نترقب فيه قدوم الملك ، وبينما كنا متخذين طريقنا إلى هذا البيت ما بين راجل راكب أقبل فريق كبير من المماليك واندفعوا نحونا وطرحونى أرضاً ، ومروا على فأنخلع درعى من رقبتي .

٢٢٤- فلما عاد إلى ايفرارد لورد سيفرى وسحبني ذهبنا إلى جدران البيت المتهدم ، وهناك عاد إلينا هيج لورد Ecot وفردريك لورد مينو ، ورينو لورد Menoncourt ، فعاد المماليك وهاجمونا من كل النواحي ، ودخل بعضهم البيت المتهدم وأخذوا يرموننا برماحهم من أعلى ، فطلب إلى فرسانى أن أمسك بلجم جيادهم خشية فرارها ففعلت ما طلبوه منى ، وأخذوا فى الدفاع عن أنفسهم دفاعاً مجيداً ، فأنى عليهم جمع رجال الجيش الأمجاد ، سواء أولئك الذين شاهدوا صنيعهم بأعينهم أم أولئك الذين سمعوا بجلدهم .

٢٢٥- وجرح هيج لورد إكوت ثلاثة جروح فى وجهه وكذلك لورد رادول ، كما أصيب لورد فردريك برمح جرحه فيما بين كتفيه ، وكان جرحاً عميقاً حتى لقد كان الدم يتدفق منه كما لو كان يتدفق من فتحة برميل ، أما جرح ايفرارد لورد سيفرى فكان من طعنة سيف أصابته فى وسط وجهه سقط من جرائه أنفه على شفتيه ، فخطر ببالي حينذاك أن أستنجد بقديسى وسيدى سنت جيمس ، فهتفت قائلاً « أيها القديس الحنون ، ياسيدى جيمس ، أعينى وأغشنا فى هذه الشدة ! » .

٢٢٦ - ما كدت أفرغ من صلاتي هذه حتى قال لي لورد سفري «ياسيدي إذا كنت ترى أن لا غضاضة تنال وتنال خلفائي من بعدى فأذن لي أن أذهب وأطلب لك العون من كونت أنجو الذي آراه وسط ذلك الحقل»، فقلت له «يالورد إيفرارد يخيل إلى أنك تريد أن تكسب لنفسك الشرف العظيم بذهابك لطلب المعونة لتخليصنا ، فإن حياتك أنت أيضا في خطر عظيم داهم » وكأني كنت أدري الغيب ، لأنه مات متأثرا من هذا الجرح الذي أصابه ، وقيد حاول استشارة جميع الفرسان الموجودين هناك حينئذ فنصحوه بما نصحته به ، فلما سمع ذلك سألتني أن أخلي سبيل جواده الذي كنت أمسك بلجامه كما كنت أمسك بلجم الجياد الأخرى ، ففعلت ما سألتني .

٢٢٧ - فذهب إلى كونت أنجو، وتوسل إليه أن يهب لنجدتي ونجدة فرساني، فحاول أحد الرجال البارزين ممن كانوا مع الكونت أنجو أن يصرف مولاه عن هذا الأمر ، بيد أنه أجابه أنه فاعل ما سأله الفارس إياه ، فثنى عنان فرسه ليقوم لنجدتنا ، وأعمل جماعة كثيرة من الفرسان مهاميزهم في جيادهم ، فلما رأهم المسلمون قادمين عليهم تركونا حيث نحن .

وكان أمام السرجندية بطرس لورد Auberville راكبا جواده ، وسيفه في قبضة يده ، فلما رأى أن المسلمين قد تركونا كثر على من أمسكوا منهم رادول لورد Wanon فخلصه من بين أيديهم بعد أن جرح جرحا بليغا .

فريق الملك يهاجم المسلمين

٢٢٨ - بينما كنت هناك مترجلا مع فرساني ونحن على ما نحن عليه من الجراح أقبل الملك برجاله مصحوبا بصوت عال من الصباح والطبول والصنوج ،

ثم وقف على حسر منصوب هناك ، ولم أرقط فارسا عظيما مثله ، إذ كان يبدو برأسه وكتفيه أشبه بالبرج بين رجاله ، وكان على رأسه خوذة ذهبية وفي يده سيف من سيوف الألمان .

٢٢٩- وحينما وقف الملك هناك هب الفرسان الكرام الذين كانوا في فرقته والذين سميتهم لك واندفعوا على الممالك ، وشاركهم في هذا الهجوم غيرهم من خواص فرسانه الأشداء . ويجب أن تعلم أن هذا الحادث كان اختبارا طيبا للأسلحة ، إذ لم يستعمل أحد في هذه المعركة قوسا أو سهما ، بل كانت معركة صولجان وسيف بين الممالك وبين رجالنا ، واشتبل الجميع بعضهم ضد بعض .

وكان واحد من خدمي يحمل رايتي وقد هرب بها ، ثم جاءني وأعطاني أحد جيادى الهولندية فامتطيته ، وانضمت إلى صف الملك ، ووقفت معه جنبا إلى جنب .

٢٣٠- وبينما كنا واقفين هكذا جاء إلى الملك جون لورد فاليري وهو الرجل الطيب وقال له إنه يشير عليه بأن ينتقل إلى الضفة اليمنى للنهر ليضمن مساعدة دوق برجنديا وبقية القائمين بحراسة المعسكر ، ولكي يجد رجاله شيئا يشربونه ، نظراً لأن اليوم إذ ذاك كان شديد الحرارة .

٢٣١- فأمر الملك رجاله بأن ينطلقوا باحثين عن فرسان مجلس مشورته الكرام وسماهم بأسمائهم ، فذهب السرجندية إليهم واستدعواهم وهم في وطيس القتال ، حيث كانت المعركة على أشدها بينهم وبين الممالك ، فأقبلوا على الملك وسألهم أن يلقوا إليه برأيهم ، فقالوا إن الخير كل الخير في اتباع ما أشار به جون لورد فاليري ؛ وحينذاك أمر الملك بتحويل راية سنت دينس وأمر

حامل علمه بالتحرك يمينا شطر النهر ، وعند تحرك جيش الملك سمع مرة ثانية صوت الطبول والصنوج والأبواق يدوي عالياً .

٢٣٢- لم يكذ الملك يشرع في التحرك حتى تسلم عدة رسائل من أخيه كونت بواتييه ومن كونت فلاندر ومن غيرهم من ذوي المكانة البارزة المرموقة ممن معهم قواتهم ، وكلهم يتوسلون إليه فيها أن يقصر عن الحركة لعجزهم عن متابعته لضغط الممالك الشديدة عليهم ، فاستدعى الملك مرة أخرى جميع فرسان مجلس مشورته المبجلين ، فأجمعوا الرأي على وجوب الانتظار ، وما لبث أن عاد جون لورد فاليري ولام الملك ومجلس مشورته على البقاء حيث هم ؛ وحينذاك نصحه جميع مشاوريه بوجوب التقدم صوب النهر كما بين لورد فاليري .

٢٣٣- وفي هذه اللحظة جاء الكونستابل امبرت لورد بيجو وأنباه بأن أخاه الكونت دارتو يدافع عن نفسه في بيت من بيوت المنصورة ، وأنه يتحتم على الملك أن ينهض لنجدته ومساعدته ، فقال له الملك : « أيها الكونستابل اسبقني وسأمضي في آثارك » ، فقلت للكونستابل إنني أريد أن أكون فارسه فشكرني شكراً جزيلاً ، ومن ثم تهيأنا للزحف على المنصورة .

٢٣٤- ثم جاء للكونستابل سرجنزي كان يحمل صولجاناً ويرتجف خوفاً ، وأخبره أن الترك قد أخطقوا بالملك وأنه في خطر عظيم ، فرجعنا فأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك ، ولم نكن نحن أكثر من ستة أشخاص ، فقلت للكونستابل : « أيها اللورد : لما كان من المستحيل علينا أن نصل إلى الملك متخطين كل هؤلاء فالأجدر بنا أن ندور حولهم ، واجعل هذا الخندق - الذي

تراه هنا — بيننا وبينهم ، وبذلك نستطيع الاتصال بالملك » فأخذالـكونستابل
بنصيحتي، واث أن تعرف أن لو علم العدو خطتنا لكنا بلا شك من الهالكين ،
لكن المسلمين لم يكن يعنيهـم أحد ما سوى الملك وكبار رجاله ، ومن ثم فقد
ظنوا أننا من فريقهم .

جوانفيل يدافع عن الجسر وارتداد كونت بريتاني عن المنصورة

٢٣٥ — بينما كنا راجعين إلى الشاطئ بين الجرى الفرعى والنهر أبصرنا
الملك قريباً من النهر ، والماليك يدفعون للوراء قواته ويضربون بالسيوف
والصولجانات كما أرغموا القوات الأخرى على التقهقر ، وكان اندحار رجالنا
شديداً حتى لقد فكر الكثيرون من رجالنا فى المضى إلى دوق برجنديا سباحة ،
ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك أيضاً نظراً لشدة تعب جيادهم واشتداد
حرارة النهار ، ومن ثم رأينا — ونحن مقدمون عليهم — الجرى مغطى بالرماح
والدروع وبالجياذ الفارقة والرجال الهالكين .

٢٣٦ — وجئنا إلى جسر صغير قائم على الجرى الفرعى فقلت للكونستابل:
« دعنا نـمـكث هنا ونقوم بحراسة هذا الجسر الصغير إذ لو تركناه لهاجم الماليك
الملك من هذه الناحية ، وإذا ما هوجم رجالنا من الجانبين تأزمت الأمور
عليهم » فتم ما أشرت به ؛ ولقد علمت بعدئذ أننا كدنا أن نقتل جميعاً ذلك
اليوم لولا الملك ..

ولقد أخبرنى لورد كورتنى وجون لورد Saillenay أن ستة من
الماليك جاءوا إلى الملك وأمسكوا بلجام فرسه ، وساروا به أسيراً ، ولم يخلصه

أحد سوى نفسه ، حيث أعمل الضرب فيهم بشدة بحسامه ، فلما شاهد رجاله كيفية دفاع الملك عن نفسه جمعوا شجاعتهم ، وتخلّى الكثيرون منهم عن فكرة الهروب من الجيش عبر النهر ، ووقفوا إلى جانب الملك يساعدونه .

٢٣٧ — جاءنا — نحن القائمين بحراسة الجسر الصغير — بطرس كونت بريتانى راكباً من المنصورة وقد جرح بالسيف في وجهه جرحاً أسال الدم فجرى منه في فمه ، وكان ممتطياً جواداً جميلاً رائع القوائم ؛ وقد ألقى الكونت بلجامه على قربوس سرجه ، وأمسكه بكلتا يديه حتى لا يدفعه رجاله الذين من خلفه والذين يضغطون عليه بشدة عن الطريق إلى الجسر الصغير ، وقد ظهر عظيم تأثيره عليهم ، إذ بينما كان ينفث الدم من فمه قال بصوت جهورى ممتلئ : « بحق رأس الرب ، هل رأيتم مثل هؤلاء الأوغاد ! » وجاء خلف رجاله كونت سواسون و بطرس لورد فيفيل المسمى Caier وقد أصيبا بضربات عدة طوال يومهم هذا .

٢٣٨ — فلما عبروا الجسر وشاهد المالك أننا نقوم بحراسته وأننا نستقبلهم بوجوهنا كُفُّوا عن مطاردة كونت بطرس وجنوده ، فجنّت إلى كونت سواسون ابن عم زوجتى وقلت له « أيها اللورد ، أظنك تفعل خيراً لو بقيت هنا تحرس هذا الجسر الصغير ، إذ لو تركناه لاندفع المماليك الذين تراهم أمامك وعبروه ، وإذ ذاك يمدقون بالملك من الأمام ومن الخلف » فسأل عما إذا كنت أبقى معه إذا قام بحراسته فأجبت « نعم ، وبشكل سرور » ، فلما سمع الكونتسابل ذلك القول طلب إلى ألا أغادر مكانى هذا حتى يعود ، إذ أنه ماضٍ في طلب النجدة لنا .

المسلمون يهاجمون جواناتفيل

٢٣٩- بقيت حيث أنا على جوادى الرائع وبقي كونت سواسون إلى يمينى وبطرس لورد نيوفيل إلى يسارى ، ثم أبصرنا مملوكا قادما علينا من ناحية قوات الملك التى كانت خلفنا ، وقد حمل صولجانا فوضعه على رقبة الجواد وضربه بشدة ، فاندفع الجواد بعنف عابرا الجسر ووصل به إلى جماعته .

فلما رأى الممالك أننا لا نغادر الجسر الصغير عبروا الجرى الصغير وجعلوا أنفسهم بينه وبين النهر كما فعلنا نحن من قبل ، فأقبلنا نحوهم لنكون على أهبة الكر عليهم سواء أكانوا يريدون الذهاب ناحية الملك أو عبور الجسر الصغير .

٢٤٠ - كان أمامنا اثنان من سرجنديى الملك، يدعى أحدهما وليم دى بون والآخر جون دى جاما ، كما أحضر الممالك الذين وقفوا بين الجرى الفرعى والنهر عدداً كبيراً من الفلاحين سيرا على الأقدام راحوا يرجونهم بالحجارة والتراب لكنهم لم يستطيعوا حملهم أبداً على مهاجمتنا ، وأخيراً جاءوا بمملوك مترجل ألقى النار الإغريقية ثلاث مرات ، وحدث أن استقبل وليم البونى وعاء النار الإغريقية فى درقته ، إذ لو أمسكت النار بأى جزء من ملابسه لاحترق .

٢٤١ - وكانت تنصب علينا نحن أيضاً رميات بالمزاريق التى لم تنصب السرجنديى ، وحدث أن وجدت قميص مسلم مخططاً فقلبته رأساً على عقب ، واتخذته درعاً لى نفعى كل النفع ، لأن مزاريقهم جرحتنى فى خمسة أماكن ، وأصابت جوادى فى خمسة عشر مكاناً ، وحدث مرة أخرى أن واحداً من نواب

مقاطعة جوافيل أحضر لي خنجراً طويلاً وكذلك رأس رمح ، وكنا نهاجم
المماليك في كل مرة نراهم يشددون الضغط فيها على السرجندية ، فيفرون
سراعاً .

٢٤٢ — وفي هذا الوضع الخطر أقبل كونت سواسون الطيب يمزح معي
وقال لي « أيها المولى ، دع هؤلاء الأوغاد يولون بحق رأس الرب » إذ كان ذلك
يمينه المحبب إلى نفسه ، ثم تابع كلامه قائلاً : « سنتحدث أنا وأنت عن هذا
اليوم في حجرات عقائنا » .

هزيمة المسلمين وسرقة البدو لمعسكرهم

٢٤٣ — وفي المساء بينما الشمس موشكة على المغيب قدم علينا الكونستابل
همبرت دي بيجو ، ومعه رماة سهام الملك المترجلون ، ووقفوا صفّاً أمامنا ، فلما
شاهدناهم المسلمون وقد وقفوا إلى جانب ركاب سرج أقواسهم فروا وتركونا
حيث نحن ، وحين ذاك قال الكونستابل لي « أيها السيد : حسنّاً ما فعلوا ، والآن
امض إلى ملكك ، ولا تتركه أبداً حتى يدخل فسطاطه » وسرعان ما قدمت
على الملك ، ومالبت لورد جون فاليري أن قدم على آثارى إليه وقال له : « مولاي
إن سيدى لورد شانيون يسألك أن توليه قيادة مؤخرة الجيش » ، فقبل الملك
ذلك الطلب عن طيب خاطر وتقدم إلى الأمام ، وبينما نحن سائرون طلبت إليه
خلع خوذته وأعزته قبعتى عسى أن يتخلل الهواء رأسه .

٢٤٤ — ولما اجتاز النهر جاءه الأخ هنرى Ronnay رئيس الاسبتارية ،
فسأله الملك عما إذا كانت لديه أخبار عن أخيه كونت دارتوا ، فأجابه
الرئيس بأنه لا يستطيع أن ينكر أن عنده أخباراً عن الكونت ، وهو واثق

تمام الثقة من أنت أخاه الآن في الجنان ، ثم قال كبير الاسبتارية « أواه يامولاي ، لتكن مرتاح الضمير ، إذ لم يتهاى قط لملك من ملوك فرنسا أن نال من الشرف ما نلته أنت اليوم ، ذلك أنك اجتزت النهر سباحة لتحارب أعداءك ، واستطعت دحرهم وطردهم من ميدان القتال ، واستوليت على معداتهم وخيمهم التي ستنام فيها الليلة » ، فأجاب الملك « دعنا نصلى لله الذى منحنا كل ذلك » وتساقطت الدموع غزيرة من عينيه .

٢٤٥ — وحينما بلغنا المعسكر وجدنا جماعة من المسلمين واقفين يجذبون حبال خيمة يفكونها ، بينما كان فريق من رجالنا — دونهم عدداً وقوة — يجذبون الحبال من الناحية الأخرى ، قاندفت أنا ورئيس فرسان المعبد بين صفوف أولئك المسلمين الذين فرّوا على وجوههم ، وبقيت الخيمة فى أيدي رجالنا .

٢٤٦ — وفى هذه الواقعة أقبل كثير من الرجال ذوى المظهر العظيم مجلّهم الخجل ، وانطلقوا فوق الجسر الصغير الذى حدثتك عنه ، وقد هربوا منخلعة أفئدتهم فزعاً ورعباً ، ولم يكن فى قدرتنا حمل أحد منهم على الوقوف حيث كنا ، وأستطيع أن أذكر لك أسماء بعضهم ، ولكننى أضرب عن ذلك صفحاً فقد ماتوا جميعاً .

٢٤٧ — ولن أتجنب الكلام عن سيسى لوردجى موفوازان إذ رجع من المنصورة مجلّاً بالشرف ، وقد اتبع نفس الطريق الذى اتبعته أنا والكونستابل عبر النهر ، وكذلك كانت الحال إزاء موقف المماليك الذين اشتد ضغطهم على كونت بريتانى ورجاله ، وعلى لوردجى موفوازان وأتباعه ، وإن حصل الأخيرون على الشرف العظيم ، وليس من العجيب ما فعله هو ورجاله فى ذلك اليوم ،

إذ قيل لي - ممن وقفوا على فعالة - أن جميع رفاقه - إلا الأقلون - كانوا فرسانا من أسرته أو فرساناً من مواليه .

٢٤٨ - ولما دحرنا الممالك وطردها من نخباتهم ولم يبق أحد من رجالنا في المعسكر اندفع البدو في معسكر الممالك الذين كانوا من ذوى الثراء الفاحش، فلم يتركوا في معسكرات المسلمين شيئاً، وحملوا معهم كل ما خلفه المسلمون، ولم أسمع قط أن البدو - وإن كانوا من أتباع المسلمين - قد أساء الممالك معاملتهم لأنهم سرقوا جميع الأشياء وحملوها معهم، ومن المعروف جيداً أن من عادة البدو الإغارة على الجانب الضعيف .

البدو

٢٤٩ - أما فيما يتعلق بموضوعي، فإنني مفض إليك هنا بطبيعة هؤلاء البدو. لا يعتقد^(١) البدو بمحمد ولكنهم يعملون بشريعة على عمه وبهذا أيضاً يؤمن شيخ الجبل زعيم طائفة الحشاشين، وعقيدتهم أن الشخص إذ مات في سبيل سيده أو لأي سبب كريم آخر حلت روحه في جسد شخص آخر وهي أكثر راحة وأطمئناناً، وهذا هو النسب الذي من أجله لا يعبأ الحشاشون بموتهم إذا لاقوا مصرعهم حين ينقذون أوامر شيخ الجبل الذي لن نتكلم عنه الآن شيئاً، وإنما نقصر الحديث على البدو وحدهم .

٢٥٠ - لا يعيش البدو في القرى أو المدن أو القصور بل يسكنون العراء على الدوام ويحافظون على أهل بيوتهم ونسائهم وأطفالهم في الليل

(١) معلومات جوفائيل في هذه الناحية لا تتفق والواقع في معظمها، ثم أنه يخلط بين البدو والحشاشين .

وفي النهار وحين يسوء الجوّ يعيشون في أطواق البراميل المشدودة إلى الأعمدة وهي أشبه ما تكون بهودج النساء ، ويطرحون على هذه الأطواق جلود الماشية المسماة بالأقشنة الدمشقية مملحة بحجر الشبّ ، ويرتدى البدو جلابيب طويلة تغطي جميع جسومهم وأرجلهم وأقدامهم .

٢٥١ — فإذا أمطرت السماء مساء أو أُنذِرَ الجو بالزوابع ليسلا تذرّوا بعباءاتهم ، وأخرجوا اللجم من أفواه جيادهم ، وتركوها ترعى على مقربة منهم ، فإذا أقبل الصباح نشروا عباءاتهم للشمس ، وفركوها ورتبوها فتبدو كأنها لم تبل ، وهم يؤمنون أن ليس من أحد يموت إلا في اليوم المقدّر له ولذلك لا يحملون السلاح ، وإذا أرادوا شتم أبناءهم صاحوا بهم « لتكن ملعوناً كالإفرنجي الذي يتدّرع حذر الموت » . أما في القتال فلا يحملون من السلاح سوى السيف والرمح .

٢٥٢ — وجلهم تقريباً يلبسون عباءات كالقفس ، ويلفون حول رؤوسهم قماشاً يخفي أذقانهم ، ولهم سجن كريهة ترعب الناظرين ، وشعر رأسهم وأذقانهم أسود اللون ، ويقتاتون بألبان مواشيهم ، ويشترون في السهول التي يمتلكها الأغنياء المراعى التي تعيش عليها قطعانهم ، ولا يعرف أحد ما عددهم . ذلك لأنهم يعيشون في مملكة مصر ومملكة بيت المقدس وفي بقية بلدان المسلمين ، ويدفعون لهم ضرائب سنوية ضخمة .

٢٥٣ — ولقد رأيت في هذا القطر — منذ رجوعي من وراء البحار — جماعة من النصارى غير مؤمنين ، يؤمنون بإيمان البدو ويقولون إنه مامن أحد يموت إلا في اليوم المقدّر له ، وإيمانهم ضعيف إلى درجة أنهم يقولون أن ليس لله القدرة على مساعدتنا ، ومعنى ذلك أن الذين يخدمون الرب أغبياء

إذ لم نعتقد أن له القدرة على إطالة حياتنا وحفظنا من الشر والهلاك .
ويجب علينا أن نؤمن به ، وأن نعتقد أن له القدرة على جميع الأشياء .

• • •

مهاجمة المعسكر ليلا ومطاردة بعض المسلمين

٢٥٤ — والآن أعود فأروى لك أننا رجعنا مساء من تلك الواقعة الخطيرة
التي أشرت إليها ، وحططنا رحالنا في المكان الذي أخرجنا منه عدونا ، وجاءني
رجالي — الذين بقوا في المعسكرات منذ خروجنا — بخيمة أعطاني إياها
فرسان الداوية ، ونصبوها أمام الآلات التي استولينا عليها من المسلمين ، ووكّل
الملك حراسة الآلات إلى جماعة من السرجندية .

٢٥٥ — رقدت في فراشي التماساً للراحة التي كنت في أمس الحاجة
إليها ولم أذق لها طعاماً من جراء ما نالني من جراح في اليوم السابق ،
ولم يكن الصباح قد تنفس بعد حين دوت صرخة تردد صداها في جميع
أنحاء المعسكر « إلى السلاح ، إلى السلاح ! » ، فأيقظت حاجبي الراقد عند
قدمي وأمرته بأن يذهب ويقتص الخبر ، فعاد إليّ فزعاً وقال « قم ياسيدي
اللورد قم ، فقد جاء المسلمون مشاة وفرساناً ، وتغلبوا على سرجندية الملك
القائمين بحراسة الآلات وجروهم بالحبال من فسطاطنا » .

٢٥٦ — غادرت فراشي ووضعت جمعتي على ظهري وخوذة من الصلب
على رأسي وصحت بسرجنديتنا « بحق القديس نيقولا ، لن ندعهم يقيمون
هنا! » فقطع إليّ فرساني وهم بجراحهم ، وطرّدنا عسكر المسلمين من عند
الآلات ورددناهم إلى كتيبة كبيرة من المماليك الراكبين جيادهم كانوا

واقفين قبالة الآلات التي استرددناها ، وبعثت إلى الملك طالبا منه النجدة ،
إذ لم يكن في استطاعتي ولا في استطاعة فرسانى لبس الدروع من جراحنا ،
فأرسل إلينا الملك جوشييه لورد شاتيون الذى وقف أمامنا بيننا وبين الممالك .

٢٥٧ — وحينما دفع لورد شاتيون مشاة الممالك ارتدوا إلى كتيبة كبيرة
من الممالك الفرسان الذين جاءوا أمام معسكرنا ليحولوا بيننا وبين مهاجمة جيش
المسلمين المرباط خلفهم ، فترجل ثمانية من أولئك المسلمين وهم مسلحون أحسن
تسليح ، وأقاموا متاريس من الحجارة المصقولة كيلا يتمكن رماة سهامنا من
إصابتهم ، وأخذ هؤلاء الممالك الثمانية يطلقون النيران بعضها في إثر بعض على
معسكرنا ، وجرحوا كثيرين من رجالنا وجيادنا .

٢٥٨ — فتشاورت مع فرسانى واتفقنا على أن نفتنم فرصة الليل حين
يرخى سدوله ، فنرفع الأحجار التي اتخذوها متاريس يحتمون خلفها ، وكان من
بين مجلس المشورة قسيس جون لورد Voisey ولكنه لم يتأخر عن العمل ، فقد
غادر معسكرنا وحيداً وتقدم شطر المسلمين متدثراً بالدرع ، وقد لبس على
رأسه خوذه المصنوعة من الصلب ، وسحب رمحه من تحت ذراعه ، جاعلاً
ذبابها إلى الأرض حتى لا يلحظها المسلمون .

٢٥٩ — فلما اقترب منهم لم يعبأوا به لأنه كان وحيداً ، وسرعان
ما امتشق رمحه من تحت ذراعه واندفع نحوهم ، فلم يفكر واحد من هؤلاء
الممالك في الدفاع عن نفسه بل لاذوا بأذيال الفرار ، فلما رأى فرسانهم أن
أسيادهم فارون إليهم أمرعوا لنجدتهم ، كما هب من معسكرنا قرابة خمسين
سرجنديا ، فجاء المسلمون على جيادهم لكنهم لم يجرؤوا على مهاجمة مشاتنا ،
بل داروا حولهم مرتين أو ثلاث مرات .

٢٦٠ — فأمسك أحد سرجنديتنا برمحه من الوسط وسدّده نحو واحد من أولئك المسلمين الممتطين جيادهم ، وشكه بالرمح الأصم شكة استقرت بين ضلوعه فانطلق بها ، فلما شاهد المسلمون هذا المنظر لم يعودوا يجرءون على التقدم ، وارتدوا على أعقابهم من أمامنا ، وشرع محاربونا في رفع أحجار المتاريس ، ومنذ ذلك الوقت ذاع خبر هذا القسيس بين صفوف جيشنا ، وكان كل واحد يشير إليه ويقول « انظر ها هو ذا قسيس سيدي لورد جوانفيل الذي دحر ثمانية من المسلمين » .

...

تأهب المسلمون لهجوم شامل على المعسكر

٢٦١ — جرت هذه الأحداث في أول أيام الصوم الكبير، وفي هذا اليوم ذاته نصب المسلمون شيخاً مكان ابن الشيخ الذي قتل، في وقعة ثلاثاء العنصرة ، وتقدم يومئذ ذلك الشيخ الجديد وكان بالغ الشجاعة فأخذ حلة سلاح الكونت دارتوا وأطلع جميع المسلمين عليها زاعماً لهم أنها حلة الملك .

٢٦٢ — وقال لهم « إنني أرىكم هذه الأشياء لأن جسمي بلا رأس لا يخيف، وكذلك الحال إزاء شعب بلا ملك ، وإنني لأمحضكم النصيح — وقد وثقمت بي — أن نضاعف هجماتنا عليهم شدة وعنفاً ، وأن يكون هجومنا عليهم يوم الجمعة القادم ، ولن نعجز عن التغلب عليهم جحيفاً بعد أن فقدوا قائدهم » .

فاستجابوا له مرحبين بقوله ، وانعقد إجماعهم على مهاجمتنا يوم الجمعة .

٢٦٣ — أما جواسيس الملك الذين كانوا مندسين في صفوف العسكر الإسلامي

فقد جاءوا إليه وأفضوا له بما رتبته المصريون ، وحينذاك أنفذ الملك أوامره إلى جميع قواد الفرق بدعوة رجالهم لأن يكونوا في كامل عدتهم وسلاحهم عند منتصف الليل ، والوقوف بهم أمام خيمهم لكن داخل السياج الذي كان مصنوعاً من عصي طويلة كي لا يتمكن المسلمون من التسلل إلى المعسكر ، وقد ثبتت هذه العصي في الأرض بطريقة لا يستطيع المرء أن يمر من بينها إلا مترجلاً .

وقد نفذ أمر الملك .

٢٦٤ — وما كادت شمس الجمعة تشرق حتى قام ذلك المسلم الذي أشرنا إليه والذي نصبه المسلمون قائداً عليهم وطلع علينا بقوة لا تقل عن أربعة آلاف فارس تركي^(١) ، وهم في كامل عدتهم وأمرهم بالوقوف تجاه جيشنا الذي كان يمتد على جانبي النهر في اتجاه القاهرة .

٢٦٥ — فلما تم له ذلك جاء بحشد كثيف من المحاربين المسلمين المشاة ، فأحدقوا هم وفرسانهم بمعسكرنا من كافة نواحيه ، واستقدم إلى جانب هاتين الجماعتين اللتين أشرت إليهما ، وعلى مقربة منهما عسكر سلطان مصر ليكونوا نجدة وعونا إن دعا إلى ذلك داع .

ولما فعلوا ذلك جاء قائدهم وحده ممتطياً جواداً صغيراً بغية استطلاع تنظيم جيشنا ومعرفة أين تكثر قواتنا وأين تقل ، فلما وقف على ذلك كله كرّ راجعاً للبحث عن رجاله وهياهم لقتالنا ، ثم أنفذ أوامره إلى من عنده من البدو

(١) في م « فارس وراجل » دون كلمة تركي .

الذين كانوا لا يقلون عن ثلاثة آلاف بدوى بالتقدم أمام رجاله والزحف على معسكر دوق برجنديا الواقع بين فرعى النهر ، وقد حمله على ذلك ظنه أن الملك لا بد مرسل بعض رجاله لمعاونة الدوق في دفع أولئك البدو ، وبذلك يضعف جيش الملك .

• • •

معركة أسبوع الصوم الكبير

٢٦٦ — فرغ القائد من تنظيم هذه الأمور ظهر اليوم التالي ، وحينذاك أمر بضرب الطبول المسماة بالنقارات ضربا عاليا ، جريا على مألوف عادة الترك التي تُدهش من لا عهد له بها كل الدهشة ، ثم هاجمونا مشاة وفرسانا ، وسأخبرك أولا عن ملك صقلية وكان لا يزال إذ ذاك كونت أنجو ، لأنه كان على رأس الفريق المتجه إلى القاهرة ، فقد تقدم العدو نحوه كما لو كان يلعب الشطرنج لأنهم تركوا أمر الهجوم عليه أولا إلى مشاتهم الذين أخذوا يرمونه بالنار الإغريقية التي كانوا يصبونها عليه من آلات صنعت لهذا خصيصا .

ثم أخذ المشاة والفرسان معاً في التضيق على رجالنا في عنف وسرعة ، حتى تمكنوا من هزيمة كتيبة كونت أنجو الذي وقف بين فرسانه وقد اشتد به الضيق .

٢٦٧ — فلما طرق سمع الملك نبأ الخطر الفادح المحدث بأخيه لم يستطع كبح جماح اندفاعه ، ولم يتمكن من انتظار أحد ما ، بل امتطى في الحال صهوة

جواده وانطلق به بين رجال أخيه ، وسيفه في قبضته يقتل به من الترك
من يصيبه .

وأصابته ضربات كثيرة قوية منهم ، ورموا حصانه بنارهم الإغريقية
فأحرقوا سرجه وذيله ، ولا شك أن الرب كان في قلبه وفكره ساعتئذ ،
وأن سيدنا أغاث الملك في هذه المحنة وأبّده حتى تمكن من إنقاذ أخيه
كونت دانبجو^(١) واستطاع رد الترك على أعقابهم عن المعسكر .

٢٦٨- وتلى قوات كونت دانبجو قوات سيرجى دى جوفلانز وأخيه بلدوين ،
ثم جاءت من بعدهم كتيبة وولتردى شاتيون القوى الشجاع ، وكان بصحبته
كثير من الفرسان الأشاوس ، وقد أظهرت هاتان الكتيبتان من البسالة
ضد الترك ما جعلهما بمنأى عن الاندحار أو الهزيمة .

٢٦٩- ثم جاء بعد ذلك الأخ وليم دى سوتناك رئيس الداوية مع
ثلة قليلة من الإخوان الذين نجوا معه بعد وقعة ثلاثاء الزفر التي استبحر فيها
القتل ، فأمر رئيس الداوية - وليس معه غير القليل من الرجال - بإقامة
متاربس من الآلات - التي كنا قد غنمناها من المسلمين - أمام معسكره
للدفاع عنه ، غير أنها لم تكن ذات جدوى ، إذ رماها المسلمون بالنار الإغريقية
التي علقت بما وضعه الداوية فيها من الكثير من ألواح خشب الصنوبر .

ويجب أن تعرف أن الترك لم ينتظروا حتى تتخذ النيران بل أغراهم ما عليه
الداوية من قلة العدد ، فانتالوا عليهم من خلال الابهيب وما لبثوا أن هزموهم .

(١) في الأصل ملك صقلية ، ولم يكن حين ذلك قد تولى ملكها .

٢٧٠ — وفي هذه المعركة فقد الأخ ولیم رئیس الداوۃ إحدى عینیه ،
وكان قد فقد الأخرى من قبل يوم ثلاثاء الزفر ، وما لبث أن مات .
عليه الرحمة .

ويجب أن تعرف أنه كان يوجد خلف المكان الذي كان الداوۃ واقفين
فيه بقعة تقرب من ميل قد غطتها مزاريق المسلمين ورماحهم وقسيهم وسهامهم ،
حتى استحال على العين أن ترى الثرى .

٢٧١ — جاءت بعد فريق الداوۃ قوات جى دى موفوازان التى لم
يستطع الترك التغلب عليها أبداً ، وكان موفوازان خواض غمرات قد أثنته
الجراح ، فلما رأى الترك بسالته وصموده دأبوا على رميه بالنار الإغريقية التى
وجد رجاله صعوبة كبرى فى التغلب عليها وقت إصابته بها . ومع ذلك فقد
صمد صمود الأبطال وعجز الترك عن أن تكون لهم الغلبة عليه .

نفس المعركة

٢٧٢ — كانت العوائق التى تدافع عن المعسكر تمتد من ناحية قوات
موفوازان مسافة رمية حجر نحو النهر ، ثم تمر أمام فريق ولیم كونت فلاندرز
الذى تمتد قواته إلى ذلك الفرع من النهر الذى يصب في البحر .

وكانت كتبتنا مواجهة للعائق الذى يمتد من جانب معسكر موفوازان ،
ولما رأى المسلمون أن قوات كونت فلاندر في مواجهتهم لم يجرعوا على التقدم
لمهاجمتنا : الأمر الذى حمدت الله من أجله إذ لم يكن في استطاعتى أنا وفرسانى
أن ندرع بشيء من جراء الجراح التى أصابتنا يوم وقعة ثلاثاء الزفر ، مما
استحال معه علينا أن نلبس ما يقينا .

وأبدى كونت فلاندرز ورجاله كل عجيبة ، إذ شدوا على المشاة
والخيالة الأتراك في بسالة وضراوة .

٢٧٣ — هاجم الترك — راجلهم وفارسهم — كونت فلاندرز بقوة
وبسالة عظيمتين ، فلما رأيت ذلك أمرت رماة سهامنا أن يسددوها إلى فرسان
الترك الذين ما كادوا يجدون أن سهامنا قد جرحتهم هم وجيادهم حتى ركنوا
إلى الفرار وتركوا مشاتهم ، فلما شاهدتهم الكونت ورجاله تخطى معهم الحواجز ،
وكرروا على رجالة المسلمين وأعملوا القتل في الكثيرين منهم .

وممن برز في هذه الواقعة ببسالة جوتييه دى لا هورن حامل راية كونت
اسبرمونت .

٢٧٤ — جاءت بعد قوات كونت فلاندرز كتيبة كونت بواتييه أخى
الملك المؤلفة من المشاة ، ولم يكن فيها من راكب جواداً سوى الكونت
نفسه : الأمر الذى كان فيه ضرره ، إذ سرعان ما هاجمه الترك ووقع أسيراً
في قبضتهم ، وكان لابد لهم من الرحيل به لولا صيحات الفرع التى انطلقت
من أفواه القضاة والعمال والعاملات فى تموين المعسكر حين سمعوا بأن
المسلمين راحلون بالكونت دى بواتييه ، فاندفعوا على المسلمين فى غضب
وأنقذوه من بين أيديهم ، وردوهم على أعقابهم بمعونة الرب .

٢٧٥ — ثم جاء بعد هذه القوات أضعف كتيبة فى الجيش بأجمعه وأعنى
بها جماعة جوسيراند دى برانسيون الذى قدم بضحية الكونت إلى مصر ،
وهو من أحسن الفرسان الذين ضمهم المعسكر ، فرتب رجاله بأن جعل كل

الفرسان مشاة وامتطى هو من بينهم جميعاً^(١) جواداً ، وكذلك ابنه لورد هنرى وابن سيراند. دى نانتون لأنهما كانا طفلين .

ولقد هاجم الترك رجاله عدة مرات ، فكان كلما رأى هجومهم عليهم أعمل مهمازه فى خاصرته جواده وكر على مؤخرة الترك ، وكثيراً ما حدث إذ ذاك أن انصرف الترك عن مقاتلة رجاله إلى الهجوم عليه هو ذاته .

٢٧٦ — إلا أن هذا ما كان ليحول دون أن يتمكن الترك من قتلهم جميعاً فى ميدان القتال لولا هنرى دى كون وكان من كتيبة دوق برجنديا ، وهو فارس عاقل طلمعة ثاقب رأى عارف بضعف كتيبة برانسون ، فكان يأمر رماة نشاب الملك بتسديد سهامهم إلى المسلمين وهم عبر النهر كلما رآهم يهاجمون دى برانسون ، الذى استطاع بهذه الوسيلة أن ينجو من الخطر المحدق به ذلك اليوم ، وإن فقد من فرسانه العشرين : إثني عشر شخصاً ، دون الإشارة إلى غيرهم من الجنود ، بل إنه هو ذاته قد أصيب إصابة بالغة لم يستطع بعدها أبداً أن يقف على قدميه ، ومات بجراحه فى سبيل الرب .

٢٧٧ — والآن سأحدثك بعض الشيء عن برانسيون^(٢) ، فقد اشترك حتى يوم موته فى ست وثلاثين معركة ومبارزة ومناوشة خرج منها جميعها

(١) جاءت رواية م على الصورة التالية : كانت هذه الكتيبة مؤلفة من الأخرى من فرسان ومشاة ، ولم يكن بينهم من راكب سوى جى دى سيرانت وابن سيراند ، وقد هاجم الترك هذه الكتيبة من جميع النواحي فبرز سيرجى دسيرانت وولده على مؤخرة الترك وقتلهم بسيوفهما .

(٢) هناك اختلاف كبير بين ترجمة م وثيقة النسخ حول هذا الاسم ، ففي الأصل الذى ترجمنا عنه والذى ترجم عنه «ويلي» جاء قوله *Dou signour de Brancion vous dirai* أما نسخة جوتزفيشتم منها أنه يتكلم عن هنرى دى كون .

منصوراً ، وقد رأيت ذات مرة في جيش كونت دى شالون ابن عمه وجاء إلى وإلى أخى ؛ وكان اليوم يوم جمعة الآلام وقال لنا : « تعالوا إلى يا ابني أخى أنتما ورجالكما وانضموا إلينا في مهاجمة هؤلاء الألمان الذين يعملون بد التخریب في الكنيسة » .

فذهبنا معه وكررنا عليهم مشرعين سنوفنا ، وبعد اشتباك مرير وجهد عنيف تمكنا من طردهم من ساحة الكنيسة .

٢٧٨ - فلما تم ذلك ركع هذا الرجل المستقيم الطيب أمام المذبح وهتف بمخلصنا بصوت عالٍ قائلاً : « ياسيد ، أتوسل إليك أن تحوطني برحمتك ، وأن تخرجني من تلك الحروب التي يقتتل فيها المسيحيون وقد عشت فيها رذحاً طويلاً ، وهبني مية أموتها في سبيلك لأحظى بملكوت نعيمك » .

ولقد أخبرتك بهذه الأمور لتعرف أن الرب - كما أعتقد - قد استجاب لدعائه كما رأيت مما ذكرته آنفاً .

٢٧٩ - بعد الفراغ من هذه الواقعة التي جرت في أول يوم جمعة من عيد الفصح استدعى الملك إليه جميع بارونات^(١) وقال لهم : « يجب علينا أن نشكر مخلصنا لأنه أسبغ علينا فضله مرتين خلال هذا الأسبوع ، أولاهما يوم الثلاثاء حينما أخرجنا العدو من معسكره الذي نقيم فيه الآن ، والأخرى يوم الجمعة التالي له وذلك حين دفعناهم عنا وقد كنا مشاة بينما كانوا هم على صهوات جيادهم » ، وقال لهم الملك كثيراً غير هذا من الأقوال المرضية المشجعة .

...

(١) و م « وفرسانه وكبار رجالاته » .

جند الحلقة (١)

٢٨٠ — ربما كان من الملائم ونحن نتابع سرد قصتنا أن نتريث قليلاً هنا بغية إظهار كيفية احتفاظ السلاطين بجيوشهم في صورة منظمة، ويتألف الجانب الأكبر من خيالة السلطان من الأجانب الذين جلبهم التجار للبيع من أراض غريبة، والذين يُقبل السلاطين على شرائهم مرحبين غير مقصرين^(٢) في الثمن.

ويجلب التجار هؤلاء الناس إلى مصر من بلاد الشرق، إذ يحدث عند ما يهزم أحد الملوك الشرقيين ملكاً آخر أن يستولى الغالب على البؤساء الذين هزمهم ويبيعهم للتجار الذين يأتون بهم إلى مصر.

٢٨١ — أما فيما يتعلق بالأطفال فيربهم السلطان في بيته حتى تأخذ لحامهم في النمو^(٣)، وعليه أن يرى أن في أيديهم أقواساً تلائم قواهم، حتى إذا اشتد ساعدهم أخذوا بعضهم إلى دار صناعة السلطان وجهازهم كبير صانع الأقواس بأقوى ماله من أقواس يستطيعون الرمي بها.

٢٨٢ — كانت أسلحة السلطان من الذهب، وكان هؤلاء الشبان الصفار يحملون نفس أسلحة السلطان، وهم يسمون بالبحرية، ولا تكاد لحامهم تظهر حتى يعمد السلطان إلى تنصيبهم فرساناً، ويتخذون رنوكاً تشبه رنوك

(١) فيما يتعلق بجند الحلقة، راجع ما كتبه

Ayalon : Structure of the Mamluk Army (B.S.O.A.S), pp. 448-451.

(٢) في م « والجانب الأكبر من خيالته من الأجانب الذين يشتريهم صفاراً جماعة التجار المسافرين بحراً، ثم يشتريهم المصريون بأمر من السلطان » .

(٣) في م جاءت هذه العبارة على النحو التالي : « أما الأطفال الذين يستولدون من هؤلاء الأسرى فيقوم السلطان بتربيتهم وتعليمهم، فإذا نبت شعر عارضهم علموهم الرمي عن القوس للنهوض » .

السلطان من الذهب الخالص إلا فارقاً واحداً يميزهم عنه ، ذلك أنهم يضيفون إليها قضبانا قرمزية اللون حليت بالزهور أو الطيور أو ما يروقه .

٢٨٣ — وهؤلاء الناس الذين أحدثك عنهم الآن يسمون بجند الحلقة ؛ وهم رماة السهام في جيشه ، ذلك لأن البحرية كانوا ينامون في خيمة السلطان ، فإذا كان السلطان في معسكره أقام الحلقة في الحجرات المجاورة له محافظة على حياته .

والسلطان — عدا جند الحلقة — حراس آخرون يقيمون عند مدخل قصره في خيمة صغيرة ، منهم خدمه وعسكره الذين يدقون الكوسات والطبول وينفخون في الأبواق ، ويحدثون بهذه الآلات جلبة عظيمة عند مطلع النهار وعند مقدم الليل ^(١) حتى يستحيل على القريبيين منهم أن يسمعوا ما يقوله أحدهم ، ولكن ضرباتها تتردد بجلاء في كافة أرجاء المعسكر .

٢٨٤ — ولا يستطيع نائفوا الأبواق الضرب بآلاتهم أثناء النهار إلا إذا أمرهم بذلك رئيس الحلقة ، فإذا أراد السلطان شيئاً ما ، أو رغب في إصدار أوامره إلى عسكره ، أفضى بهذا الأمر إلى مقدم الحلقة الذي يأمر بدوره رجاله بالنفخ في أبواقهم ودق طبولهم وكوساتهم ، وإذا ذلك يجتمع أمام دهليز السلطان جميع مقدمي الجيش فيفضي إليهم مقدم الحلقة بمشيئة السلطان فيطيعونها طاعة عمياء .

٢٨٥ — وإذا ذهب السلطان بنفسه إلى الحرب اختار من بين فرسان الحلقة أشجعهم وأحسنهم إدارة ، وجعله مقدماً عليهم جميعاً .

(١) في جوتز جاءت هذه العبارة على الصورة التالية « من مطلع النهار حتى يستيقظ السلطان » .

٢٨٦ — أما طريقة معاملة السلطان لكبار فرسان الحلقة فتتناخص في أنه إذا برز أحدهم بقوته أو فروسيته فلا تعود تمت حاجة إليه ، ويستطيع أن يعيش مستقلاً ، ويتسرب الخوف إذ ذاك إلى نفس السلطان من أن يخلعه أو يقتله ، وإذا ذاك يلقى القبض عليه ويخرج به في السجن حيث يقتل سرّاً ، وينزل السلطان الحوطة على كل ما يكون القتل قد خلفه لزوجته وأولاده ؛ وقد حدث مثل هذا من السلطان إزاء من أسروا كونت دى ، مونتفورت وكونت دى بار ، وكما فعل البندقدارى بمن هزموا ملك أرمينيا الذين ذهب بهم الظن إلى أن السلطان لا بد مكافئهم على ما فعلوا ، فترجلوا وذهبوا لتحيته أثناء صيده الوحوش البرية ولكنه قال لهم : لا أرد عليكم السلام ، فقد أفسدتم على "لذة الصيد" ، وأمر بقتلهم^(١) .

المؤامرة على السلطان الجديد

٢٨٧ — لنعد الآن إلى الموضوع الذى كنا فيه ونقص من خبر السلطان الذى كان قد مات أنه خلف ولداً^(٢) في الخامسة والعشرين من عمره وكان شاباً عاقلاً لبقاً داهية ، وإذا كان السلطان يخشى أن يخلعه ابنه فقد أبعد عنه وولاه إمرة مملكة كانت له في الشرق .

(١) في نسخة جوتز جاء هذا الخبر على الصورة التالية : « وقد فعل مثل هذا بالبندقدارية من رعاياه إذ جاءوا إليه بعد هزيمتهم ملك أرمينيا مفضين إليه بهذا النبأ فوجدوه يتصيد الوحوش ، فترجلوا لإظهاراً لطاعتهم إياه ، وذهب بهم الظن إلى أنه لا بد مكافئهم على حسن عملهم ، فنظر إليهم شزراً وتلقاهم متجهماً وقال إنه لن يرد سلامهم لأنهم أضاعوا عليه لذة صيده وأمر بإطاحة رؤوسهم » .

(٢) يعنى بذلك توران شاه .

بيد أن أمراء مصر ما لبثوا — وقد مات السلطان — أن بعثوا في استقدام الابن وولوه سلطاناً عليهم ، ولكنه ما كاد يأخذ مقاليد الأمور في يديه حتى عمد إلى استرجاع ما بيد أمراء أبيه وأتباعه من صولجانات ذهبية، وخلعهم من وظائفهم وأنعم بها على من صحبوه من الشرق .

٢٨٨ — فلما رأى أتباع أبيه ما فعله ابن مولاهم بهم اشتد غضبهم عليه وكره فعاله مستشارو أبيه وأحسوا بالعار الشديد ياطخهم ، وأيقنوا أنه لا بد مصادراً أموالهم وموقع الخوطة عليها ، وسوف يسلك مسلك أبيه من قبل إزاء من أمسكوا كونت بار وكونت مونتفورت — كما علمت — ، فانهقد الإجماع منهم إذ ذاك على التخلص منه بقتلهم إياه ، واتصلو بجند الحلقة الذين كانت مهمتهم حراسة شخص السلطان ، فوافقوهم على ملتهمهم بقتل السلطان .

المرض والمجاعة

٢٨٩ — بعد الفراغ من المعركتين المشار إليهما ، أخذ الجيش يقاسى الأمرين ، فما انقضت تسعة أيام حتى أخذت جثث قتلائنا الذين فتك بهم المسلمون تطفو على سطح الماء ، ويقال ، إن ذلك يحدث دائماً من انفجار الصفراء وتعفن الجثث التي اندفعت مع التيار حتى بلغت الجسر الواقع بين معسكرينا ، فعجز التيار عن دفعها من جراء ملامسة الجسر لسطح الماء ، وبلغت الجثث من الكثرة حداً امتلأ معه النهر بها طولا وعرضاً حتى لم تعد العين قادرة على رؤية الماء على بعد رمية حجر من الشاطئ .

٢٩٠ — إستأجر الملك مائة من الزعر ظلوا يعملون ثمانية أيام سوياً لتنظيف النهر ، فكانوا يقذفون بحيف المسلمين الذين يعرفونهم من ختسانهم على الجانب الآخر من الجسر ليحرفها التيار معه ، أما المسيحيون فيوضعون

في خنادق كبيرة واحداً فوق الآخر (١)، وقد رأيت كبير مقدمي (٢) كونت دارتوا وكثيرين غيره يفتشون بين الموتى عن أصدقائهم ، غير أننى لم أسمع قط أن أحداً منهم تعرف على من يريد .

٢٩١ — إمتنعنا طيلة أيام الصوم الكبير عن السمك ، ولم نأكل قط سوى ثعابين الماء التى تأكل الموتى لأنها من أنواع السمك الشره ، وكان من جراء هذا الأمر وما صحبه من فساد هواء المنطقة حيث ينعدم المطر انعداماً تاماً أن اعترى الجيش بأجمعه مرض مروّع كان يجف معه لحم أرجلنا حتى يبلغ العظم ، ثم يشود الجلد حتى يصبح فى لون التراب أو الحذاء القديم وتكثر به البقع ، وكان الذين يصابون بهذا المرض المريب يشكون علة أخرى فى فهم من جراء أكل هذا السمك فتتعمق اللثة ، وتغدو رائحة الفم أشد ماتكون كراهة . وتذرت نجاة من ألّم به هذا المرض الذى كان الدليل على أنه يحمل الموت : أن يدمى الأنف .

٢٩٢ — وحدث بعد أسبوعين من هذا الحادث أن حاول الترك إماتتنا جوعاً بعد أن عرفوا حالنا ، وسحبوا بضعة سفن من سفنهم إلى اليابسة ، ثم أنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرنا ، فاستجالت عودة من كان قد ذهب من رجالنا إلى دمياط لجلب المثونة : الأمر الذى أدهشنا جميعاً ،

(١) جاء فى م هذا الخبر على الصورة التالية : « ويعلم الله مبلغ الزهومة التى كانت تزكم الأنوف والآلم الذى يستشعره المرء وهو يشاهد جثث هؤلاء النبلاء والسادة الأفاضل وهى نهب العيون » .

(٢) فى م « وأبصرت كبير مقدمى كونت دارتوا يبحث عن جثة مولاه . . . غير أننى لم أسمع قط أن أحداً من أولئك الذين التمسوا أصدقائهم وسط هذه الروائح الخائقة قد استرد صحته أو تعرف على من يريد » .

إذ لم نعرف سبب عدم عودتهم ، حتى شاءت الظروف أن يفلت من هذه السفن
مركب صغير من مراكب كونت فلاندرز ، فأنبأنا رجاله كيف سحب السلطان
جميع سفنه إلى اليابسة ووضعها شمال معسكرنا ، مما مكن المسلمين من مراقبة
جميع المراكب الذاهبة إلى دمياط ، وأنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة
من سفننا كانت قادمة من دمياط وقتلوا بحارتها جميعاً .

٢٩٣ — أدت هذه الأمور جميعها إلى أن عمّ الغلاء المعسكر ، فما وافى عيد
الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيهاً ، ورأس الغنم بثلاثين والخنزير بثلاثين ،
وبلغ ثمن البيضة الواحدة اثنتى عشرة دنية ، وبيع كأس الخمر بعشرة جنيهاً .

معاودة عبور النهر

٢٩٤ — فلما رأى الملك والبارونات ألا سبيل إلى معالجة هذا الأمر ،
اتفق رأيهم على أنه يتحتم على الملك نقل مخيمه من موقعه المؤدى إلى القاهرة
إلى البقعة التى يعسكر فيها دوق برجنديا على فرع دمياط .

ولكى يضمن الملك سلامة ارتداد جميع رجاله أصدر أمره بتشيد برج
أمام الجسر الواقع بين معسكرينا ، فكان فى قدرة المرء أن يدخل من جانب
البرج على ظهر جواده .

٢٩٥ — لم يكد البرج يقام حتى كان جميع عسكر الملك فى كامل
سلاحهم ، وهاجم الترك فى قوة دهليز الملك الذى لم يتحرك هو أو رجاله رغم
شدة الهجوم حتى تم نقل جميع المتاع . وإذ ذاك مر الملك ومن ورائه جميع
جنوده ، ومن خلفهم بقية جميع البارونات ماعدا وولتر دى شاتيون الذى
كان على المؤخرة .

وبينما كانوا يدخلون البرج أنفذ إيفيرارد دى فاليرى أخاه جون الذى كان الترك قد أسروه .

٢٩٦- ولما مرّ جميع الجيش أصبح الذين بقوا فى البرج فى خطر شديد ، ذلك أن البرج لم يكن مرتفعاً ، فاستطاع خيالة الترك أن يصيبوا رجالنا بسهامهم ، كما استطاع رجالهم أن يمحصولهم بالتراب فى وجوههم ، وكاد الجميع أن يدرجوا فى عداد الفاقدين ، لولا أن هب لنجدتهم كونت دانبجو الذى صار فيما بعد ملك صقلية وعاد بهم سالمين .

وفى هذا اليوم نال جوفرى موزامبورج استحسان جميع من كانوا فى البرج .

٢٩٧- وفى مساء ثلاثاء الزفر شاهدت معجزة ساقص عليك خبرها الآن : إذ دفن فى هذا اليوم هيج دى لاندري كورث وهو حامل رايته ، وبينما كان مسجى على نعشه فى كنيسة كان ستة فرسان من فرسانى متسكثين على غرارات ، ملأى بالشعير وقد علت أصواتهم فوق صوت القسيس ، فذهبت إليهم سائلاً إياهم الركون إلى الصمت ، وأنبأتهم أن ارتفاع أصواتهم أثناء ترتيب القداس أمر يزرى بهم كفرسان وكسادة محترمين .

٢٩٨- وحينذاك شرعوا يقهقهون ، وأخبروني أنهم يحتفلون بعرس أرملة المتوفى ، فنهروهم فى عنف وأنبأتهم أن هذه كلمات لاتليق بهم ولا يحسن سماعها ، لأنهم سرعان مانسوا رفيقهم .

وقد انتقم الرب منهم ، ففى غداة وقعة ثلاثاء الزفر راح الستة ما بين قتيل هالك ، وجريح لا يرتجى شفاؤه .

...

مرض جوائنثيل وموت قسيسه

٢٩٩ — كان من أثر الجراح التي أصابتنى يوم ثلاثاء الزفر أن ابتليت بمرض الجيش فى فمى وساقى ، كما اعترتنى حتى ثلاثية ، فألم بى برد شديد فى رأسى ، فكان الرشح ينطلق من رأسى إلى أنفى ، وكان من جراء هذه الأمراض أن لزمت فراشى فى منتصف أسبوع الصيام الكبير ، فكان قسيسى يأتى إلى مرتلا القداس أمام سريرى وفى مخيمى ، ثم ما لبث هذا القسيس أن نزلت به نفس الوعكة التي نزلت بى .

٣٠٠ — وحدث فى أثناء ترتيله أن اعترته غيبوبة أوشك معها على السقوط ، فوثبت من فراشى حافى القدمين وليس على سوى قميص ، وأخذته بين ذراعى وطلبت إليه أن لا يرتل إلا وقت راحته ، وأن يتابعه بهدوء ، وأنباته أننى لن أتركه حتى يفرغ من الترتيل ، فعاد إلى وغيه، وفرغ من إنشاده ورتل القداس .

ولكن لم يحدث قط أن رددته مرة أخرى .

.....

شروط المصريين المهيمنة

٣٠١ — بعد أن مررت هذه الأحداث اتفق مستشار الملك ومندوب السلطان على يوم يعقدون فيه الاتفاق بين الطرفين ، وكانت الشروط المقترحة هى أن نرد دمياط للسلطان على أن يرد السلطان للملك بيت المقدس ، وأن يتعهد السلطان بالمحافظة على المرضى الموجودين فى دمياط ، وكذلك اللحوم المملحة لأن قومه لا يأكلون لحم الخنزير ، وأن يتعهد بالعناية بآلات الحرب الخاصة بالملك حتى يتمكن الملك من إرسال من يسترد هذه الأشياء جميعها .

٣٠٢ - وقد سأل المصريون مستشار الملك عما يعطيه الصليبيون من ضمان لإعادة دمياط للسلطان ، فتقدم مستشارو الملك وعرضوا تسليم أحد إخوة الملك: كونت دانبجو أو كونت دى بواتيه حتى يتم تسليم مدينة دمياط للسلطان .
لكن المسلمين قالوا إنهم لن يرضوا برهينة بديلا عن الملك ، وإذا ذاك قال لهم جو فرى دى سارجين الفارس الطيب : «لأن يقتل المسلمون جميع رجال الجيش أو يأخذوهم أسرى أهون على نفسه من أن يترك الملك رهينة لديهم» .
٣٠٣ - وأخذ المرض ينتشر في صفوف الجيش ، كما أخذ اللحم الميت في النمو على لثتنا مما حمل الحلاقين على قص هذا اللحم ، حتى يتمكن الناس من مضغ طعامهم وابتلاعه .

وكان مما يقطع نياط القلب سماع الصراخ يدوى في معسكر الجماعات الذين تنزع لحومهم الميتة ، لأنهم كانوا يصرخون صرخات نسوة يعانين آلام الوضع .

إرتداد الجيش برأ وبجراً

٣٠٤ - حين رأى الملك أن بقاءه هناك لا يعنى سوى الموت له هو ورجاله أمر بتقويض المعسكر في مساء يوم الثلاثاء^(١) بعد ثامن أيام عيد الفصح استعداداً للعودة إلى دمياط ، كما أمر بإخبار التجار الذين لديهم سفن أن يحضروا المرضى إلى دمياط .

كذلك وجه جوسلين دى كورفوت وإخوته وسواهم من المهندسين إلى قطع الحبال التي تشد الجسر القائم بيننا وبين المسلمين ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك .

(١) هو الخامس من أبريل ١٢٥٠

٣٠٥ — فلما كان عصر الثلاثاء أبحرت بعد تناول الغذاء أنا وفارسان هما كل من تبقى لدى ممن كان معي من فرسانى وخدمى . وحينما أخذ الليل يرخى سدوله أخبرت من معي من الملاحين برفع المرساة والإقلاع ، ولكنهم قالوا إنهم لا يجرءون على ذلك لأن مراكب السلطان التى كانت بيننا وبين دمياط لا بد وأن توردنا موارد الهلاك .

وأشعل الملاحون نيرانا كثيرة لجمع المرضى فى سفنهم ، وأخذ المرضى يجرءون أنفسهم جرا إلى شاطئ النهر ، وبينما كنت أحض البحارة على الإقلاع بنا دخل المسلمون المعسكر ، ورأيتهم — على ضوء النيران — يذبجون المرضى على الشاطئ .

٣٠٦ — بينما كان ملاحى يرفعون المرساة كان الملاحون المخصصون لأخذ المرضى يقطعون حبال سفنهم ، ثم جاءوا فى محاذاة سفينتنا الصغيرة وأحاطوا بنا من كل جانب حتى لا يدعوا لنا سبيلا إلى الفرار ، فلما قيضت لنا النجاة من هذا الخطر نزلنا مع التيار .

وكان فى قدرة الملك الذى أصيب بمرض الجيش وبالدوسنطاريا الخبيثة أن ينجو من الخطر بركوبه هذه السفن ، ولكنه قال إنه لن يتخلى عن رجاله مرضاة لله . وقد أغمى عليه فى تلك الليلة عدة مرات بسبب الدوسنطاريا الحادة التى ألمت به ، فقد كان من الضرورى قطع الجزء الأسفل من سراويله لكثرة تغوطه .

٣٠٧ — أما الذين كانوا سابحين فى الماء فقد صاحوا بنا بوجوب انتظار الملك ، فلما لم ننتظره أخذوا يرموننا بسهامهم ، مما أرغمنا على التوقف حتى أذنوا لنا بالتقدم .

...

أسر الملك وعدم تقيد المسلمين بالاتفاقية

٣٠٨— والآن سأدع جانباً الكلام عن هذا الأمر ، وأخبرك كيف كان أخذ المسلمين الملك كما رواه هولي شخصياً . فقد أنبأني كيف أنه ترك فريقه ووضع نفسه هو وجوفري دي سارجين في الفريق الذي كان تحت إمرة جوشيه دي شاتيون الذي كان يقود مؤخرة الجيش .

٣٠٩— وقصّ على الملك أنه كان ممتطياً المهر الصغير وعليه برذعة حريرية ، وقال إنه لم يبق معه من جميع فرسانه وسرجنديته سوى جوفري دي سارجين الذي أحضر الملك إلى قرية صغيرة حيث أخذ الملك أسيراً .

وروى لي الملك أيضاً أن جوفري دافع عنه ضد المسلمين دفاعاً مجيداً كما يدفع الخادم الأمين الذباب عن كأس شراب مولاه ، فكلما اقترب المسلمون منه استقلّ رمحه ورفعته إلى ذراعه واندفع عليهم وأبعدهم عن الملك .
٣١٠ — وبذلك أحضر الملك إلى القرية الصغيرة فوضعه في منزل وسجوه كأنه ميت ، بعد أن وضعوه في حجر امرأة من باريس ، وظنوا أنه لن يبقى حياً حتى الليل .

وهناك جاء سيدي فيليب دي مونتفورت وقال للملك إنه رأى الأمير الذي عقد معه الهدنة ، وأنه ^(١) مستعد للذهاب إليه — إذا وافق الملك — لتجديد البحث في شأن الهدنة على الصورة التي يريدها المسلمون ؛ فتوسل إليه الملك بأن يمضى إليه وقال إنه راغب في ذلك كل الرغبة .

ومن ثم فقد مضى فيليب إلى الأمير المسلم الذي خلع عمامته من على رأسه واستل خاتمته من أصبعه رمزاً إلى أنه سينفذ الهدنة في أمانة .

(١) أي فيليب دي مونتفورت .

٣١١ — غير أنه حدث في هذا الوقت بالذات شر عظيم لرجالنا ، إذ قام سر جندى خائن منا اسمه مارسيل وأخذ في الصباح على رجالنا قاثلاً : « سلموا أنفسكم أيها السادة الفرسان ، فهذا أمرُ الملك إليكم ولا تكونوا سبباً في قتله ». فظن الجميع أن هذه إرادة أصدرها الملك إليهم ، فاستجابوا له وسلموا إلى المسلمين سيوفهم .

فلما رأى الأمير جماعتنا في أسر المسلمين قال لقيليب إنه ليس من الملائم أن يمنح رجالنا هدية بعد أن رآهم رأى العين في أسره .

٣١٢ — وهكذا تأتى لقيليب أن يشاهد أخذَ المسلمين لجميع رجالنا في الأسر ، ولم ينتج منهم سواء لأنه كان إذ ذاك رسولا رغم ما كان في البلاد من عادة شريرة هي أنه إذا بعث الملك رسلاً من قبله إلى السلطان أو أنفذ السلطان رسلاً من لدنه إلى الملك ، ثم حدث أن مات السلطان أو الملك قبل عودة الرسل ، أخذوا الرسل — مسلمين كانوا أم مسيحيين — في الأسر واسترقوهم^(١) .

بقاء جوانقيل في النهر

٣١٣ — في الوقت الذي حاق فيه الخطب برجالنا — وأعنى به أخذهم أسرى وهم على اليابسة — وقعنا نحن أسرى كذلك .

لم نكن نحن الذين ركبنا السفن قادمين إلى دمياط أحسن حظاً ممن

(١) راجع رقم ٣٦٤

كانوا على اليابسة فقد وقعنا جميعاً في قبضة الأسر ، إذ هبت ريح عاصفة من ناحية دمياط ضد التيار ، فهرب الفرسان الذين كان الملك قد رتبهم في القوارب الخفيفة للدفاع عن المرضى ، ولم يستطع ملاحونا التحكم في التيار ، فانطلقوا إلى أحد الخلجان واضطرونا إلى الارتداد إلى وراء ناحية المسلمين .

٣١٤ — وقبل انبثاق الفجر جئنا — نحن الذين كنا في السفن — إلى مجازٍ تقف فيه سفن السلطان لمنع وصول المئونة إلينا من دمياط ، فلما رأنا من بها من المسلمين أحدثوا جلبة كبرى ، وأخذوا في رمينا ورمى فرساننا الواقفين على الشاطئ بنشابهم وبالنار الإغريقية ، حتى لقد كان يخيل لرائيها أن نجوم السماء تنقض من عل .

٣١٥ — ولما خرج بنا بحارتنا من الخليج الذي كانوا قد أخذونا إليه وجدنا قوارب الملك الخفيفة التي كان الملك قد أعدها للدفاع عن مرضانا تسابق الريح في الرحيل إلى دمياط .

ثم هبت من ناحية دمياط ريح قوية حالت بيننا وبين التقدم .

٣١٦ — كان على جانبي النهر مجموعة كبيرة من قوارب رجالنا الذين لم تسعفهم الفرصة بركوب النهر فوقعوا في أسر المسلمين الذين احتفظوا بالقوارب وفتكوا برجالنا وألقوا بهم في اليم ، وأخذوا في جرّ الصناديق والأمتعة من القوارب التي استولوا عليها .

أما الخيالة المسلمون الواقفون على الشاطئ فقد أخذوا يرموننا بالنشاب لأننا لم نذهب إليهم ، وألبسني رجالى درقتى الواقية حتى لا تجرحني النشاب المتساقطة في قاربنا .

٣١٧ — وفي هذه اللحظة صاح بي رجالى الذين كانوا فى مؤخرة القارب :
« مولانا ، مولانا ، إن بحارتك يعتزمون أخذك إلى الشاطئ لأن المسلمين
يهددونهم » ، فرفعت نفسى معتمداً على ذارعى لشدة ما بى من الضعف ،
وجردت عليهم سيفى وقلت لهم إننى لا مناص من أقتلهم إن أخذونى إلى
الشاطئ ، فحَيَّرونى بين واحد من اثنين : إما أخذى إلى الشاطئ أو الإرساء
فى وسط النهر حتى تهدأ الريح ، فقلت لهم إننى أوتر أن يرسوا بى فى وسط النهر
على أن يأخذونى إلى الشاطئ ، حيث لا مفر لى إذ ذاك من الموت المحقق .
فاستجابوا لأمرى .

٣١٨ — لم نلبث قليلا حتى رأينا أربعة من سفن السلطان قادمة نحونا
وعليها ألف رجل ، فنادت فرسانى وجماعى وسألتهم أى سبيل يسلكون :
أيستسلمون لسفن السلطان أم يستسلمون لمن على البر ؟ . فانعقد الرأى بمناجهم
على أن الخير لنا فى الاستسلام لسفن السلطان لأننا نكون إذ ذاك جميعاً معاً ،
أما إذا استسلمنا لمن على الساحل فسوف يوزعوننا ويبيعوننا للبدو .

٣١٩ — حين ذاك قال أحد أتباعى وهو من مواليد أوليقات ، « سيدى
اللورد ، لست أتفق معكم فى هذا القرار » ، فسألته : « وما رأيه » ، فأجابنى
« أن نصيحى أن نُقتل جميعاً لأننا إذ ذاك سنتبوا مقعدنا من الجنة » ، غير
أننا لم نكثر بما قاله .

استسلام جوانقىل للأسر وتهديد حياته

٣٢٠ — حينما رأيت أننا لابد ما سورون تناولت صندوق مجوهراتى وقذفت
به وبما فيه فى النهر ، وأتبعته بما لدى من الآثار المقدسة . وحينذاك قال

لى أخذ بحارتى « سيدى اللورد ، إذا لم تأذن لى بأن أقول لهم إنك ابن عم الملك فإنهم لا بد قاتلوكم جميعاً ونحن معكم أيضاً » ، فأذنت له أن يقول ما يشاء .

وحينما قدم نحونا من كانوا على السفينة الأولى وسمعوا ذلك الزعم ألقوا مراسيهم على مقربة من قاربنا .

٣٢١ — وحينذاك بعث لى الرب نجدة تمثلت فى مسلم من بلاد الإمبراطور^(١) يرتدى سراويل من التيل الخام ، فعبر النهر سباحة وجاء إلى قاربى واحتضننى من ركبتي وقال : « أيها اللورد ، لا بد أنك مقتول إن لم تستمع لما أقول ، وعليك أن تقفز إلى النهر من قاربك ، ولن يراك أحد أو يلقى بالا إليك ، لأن الجميع سيكونون مشغولين بالغنيمة التى سيجدونها فى مركبك » .

ورمى لى أحدهم حبلا من القارب فتسلقته إلى المقدمة كما شاء الله . ويجب أن تعرف أنى كنت شديد الضعف ولو لم يقفز المسلم ورأى ويمسك بى لكنت من الغارقين .

٣٢٢ — وضعونى فى المركب حيث كان به مائتان وثمانون من رجالهم غيرالذين كانوا على سفينتى ، وكان المسلم يمسكنى دائماً بين ذراعيه ، ثم ألقوا بى على الأرض ووثبوا على لقطع رقبتى لأن كلاً منهم كان يرى قتلى بيده شرفاً له ، لكن المسلم أمسك بى بشدة وصرخ فيهم « ابن عم الملك »

(١) يقصد بذلك الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وكانت له أملاك فى

الشرق راجع رقم ٣٣٦

وإذ ذاك ألقوا بي على الأرض مرتين ، وألقوا بي على ركبتي مرة أخرى ،
ثم شعرت بالسكين على رقبتي ، ولقد أنقذني الرب في هذه الشدة بمعونة قدمها
إليّ ذلك المسلم ذاته ، إذ أخذني إلى برج السفينة حيث كان فرسان المسلمين
مجمعين . .

٣٢٣ — فلما صرت بينهم خلعوا عني رنكي ، ودفعتم رحمتهم بي لأن
ياقوا على لحافاً قرمزيا مخططا كانت سيدتي الأم قد أعطتني إياه ، وأحضر لي
أحدهم حزاماً أبيض فتمنطقت به فوق اللحاف ، وعلمت في اللحاف فتحة
مستعملاً إياها مثل جلاباب ، وأحضر لي آخر قلنسوة وضعتها على رأسي ، وما
لبثت أن سرت في جسدي قشعريرة قوية مبعثها الخوف الذي كنت فيه
والمرض الذي كنت أعانيه ، واصططكت أسناني ، ثم سألتهم شيئاً أشربه
فجاءوني بقليل من الماء في جرة ما كدت أرفعها وأنهل منها جرعة حتى لفظته قويا
من أنفي ، والله يعلم سوء حالي ، فقد كنت أتطلع إلى الموت أكثر من تطاعي
للحياة من جراء دمل في بلعومي .

٣٢٣ — فلما رأيت ذلك بعثت في طلب رجال وأخبرتهم أنني هالك
لا محالة ، وقد رأيت الدمل في حلقى فسألوني وكيف عرفته فأريتهم إياه ، وما
كادوا يرون الماء يرتد من حلقى ويندفع من فتحتي أنفي حتى علا نحيبهم ، فلما
رأهم الفرسان المسلمون الموجودون أقبلوا يتساءلون عن علة بكائنا من
المسلم الذي أنجانا ، فأجابهم بأنه فهم أنني أصبت بخراج في الحلق ، وألا أمل لي في

الشفاء منه ، وحينذاك أخبره أحد الفرسان المسلمين أن يأمرنا بالاطمئنان^(١) ،
لأنه سيعطيني شيئاً أشربه فيشفيني مما بي في مدى يومين ، وفعل ما قال .
وسرعان ما برئت من عاقي بفضل رحمة الله ، وبفضل الشراب الذي أعطانيه
القارس المسلم .

٣٢٥ — أما سيدى راعول ورد قانو أحد أتباعى فكان قد عوقب في الواقعة
الكبرى التي جرت يوم ثلاثاء الزفر وأصبح عاجزا عن الوقوف على قدميه .
ويجب أن تعرف أن فارساً مسلماً عجوزاً ممن كانوا في المركب كان يرفعه من
عنقه إذا ما أراد قضاء حاجته .

جوانقيل أسير في المنصورة

٣٢٦ — بعث أمير السفن الكبير في طلبى وسألنى عما إذا كنت ابن
عم الملك فأجبتة نفياً ، وأخبرته كيف ولماذا قال البحار إننى ابن عم الملك ،
فاستصوب الأمير فعلى وذكر أننى سلكت عين الصواب وإلا كنت
ورجالى بين القتلى ، ثم سألنى عما إذا كانت هناك قرابة ما تربطنى بفردريك
إمبراطور ألمانيا الذى كان حياً إذ ذاك ، فأجبتة بأننى أظن أن سيدتى
الوالدة تربطها به رابطة القرابة ، فقال إنه ازداد حباً لى من أجل هذا الأمر .

(١) رواية م على الصورة التالية : « سأل المسلم الذى أتقضى رجالى عن علة
بكائهم ، فأفهموه أننى على وشك الموت من دمل في حلقى يؤذيني ، وحينذاك ذهب هذا المسلم
الطبيب الذى كان عطوفاً على ليفضى بهذا الخبر لى واحد من الفرسان المسلمين الذى طلب إليه
أن يطمئن » .

٣٢٧ — وبينما كنا نتناول الطعام إذا بالفارس يبعث في استقدام أحد أبناء باريس الذي قال لي حين حضر : « سيدى اللورد ، ماذا تفعل ؟ » فسألته : « وماذا أنا فاعل ؟ » فقال لي « تعالى الله ، أنا كل لحما يوم الجمعة ؟ » ، فلما سمعت ذلك وضعت وعاء طعامي خلفي ، فعاج الأمير على صاحبي المسلم سائلاً إياه « لم فعلت ما فعلت ؟ » ، فأخبره بجلية الأمر ، فقال الأمير : « إن الرب لن يعتبر عملي هذا خطيئة ما دمت قد فعلته عن غير قصد » .

٣٢٨ — ويجب أن تعرف أن نفس هذا الجواب قاله لي المندوب البابوي بعد أن غادرنا السجن ، وعلى الرغم من ذلك فإنني لم أكف عن الصوم إلا على الخبز والماء كل يوم جمعة من أيام الصوم الكبير ، بينما كان المندوب البابوي شديد الغضب مني إذ رأيته الشخص الوحيد الهام الذي بقي مع الملك (١) .

٣٢٩ — وفي يوم الأحد التالي (٢) لوقوعنا في الأسر أصدر الأمير أمره بإنزالنا إلى أنا وبقية من أسروا بجرا إلى البر ، وبينما كان القوم ينقلون سيدى جون — قسيسى الطيب — من قاع المركب إذا به يقع مغشياً عليه ، فقتله المسلمون

(١) جاءت رواية جوتر على الصورة التالية : « ويجب أن تعلم أن المندوب البابوي الذى كان يصحب الملك طالما أنبئى أصوم وأنا مريض ، وحيث لا يوجد من سياسى مع الملك سوى ، لأننى أودى نفسى بهذا الصيام » .

(٢) فى م عننوان قبل هذا هو : تكملة الكتاب الثانى من مذكرات جون لورد جوفانفيل «

وألقوا به في اليم ، فأغشى أيضا على كاهنه من أثر المرض الذي اعتري الجيش ،
فضربه القوم بدبوس على رأسه ضربة أماتته ، ودفعوا به هو الآخر إلى
النهر أيضا .

٣٣٠ — وبينما كان القوم مشغولين بإنزال من كان بسفن الأسرى
من المرضى ، كان هناك جماعة من المسلمين واقفين مشرعين سيوفهم يقتلون بها
من يقفون أمامهم ويقذفون بهم في النهر ، فطلبت إلى رفيقي المسلم أن ينبئهم
أن فعلهم هذا عمل غير كريم لمنافاته لتعاليم صلاح الدين الذي قال إنه لا يجوز
لك مطلقا أن تقتل رجلا قاسمك خبزك وشاطرك ملحك ، فأجاب الأمير إن
المقتولين ليسوا من ذوى الأهمية لا سيما وأنه لا أمل لهم في الحياة من جراء
المرض الملم بهم .

٢٣١ — وأمر بإحضار بحارتى أمانى ، وأخبرني أنهم كفروا بدينهم على
بكرة أبيهم ، فنصحتهم ألا يثق بهم أبدا لأنهم - وقد تخلوا عنا في سهولة -
لا بد وأن يتخلوا عن سادتهم الجدد في مثل هذا اليسر متى حان الوقت ولاحت
الفرصة .

فقال الأمير إنه يتفق معى في هذا الرأي لأن صلاح الدين كان يقول إنه
من المستحيل على المسيحي اللئيم أن يصير مسلما ، ولا المسلم اللئيم أن يصبح
نصرانيا .

٣٣٢ — ثم أمر بعد ذلك أن أمتطي حصانا وأركب إلى جانبه ، ومررنا
فوق جسر من القوارب وذهبنا إلى المنصورة ، حيث كان الملك ورجاله أسرى

وجئنا إلى مدخل فسطاط كبير اجتمع فيه كتاب^(١) السلطان فدوتوا اسمي ، ثم قال لي رفيقي المسلم « أيها السيد ، هنا تنتهي رحلتى معك ومرافقتى إياك ، لكنني أتوسل إليك يا سيدي أن تظل ممسكا على الدوام بيد الطفل الذي معك وإلا أخذه المسلمون منك ، واسم هذا الطفل بارتلميو^(٢) ، وهو ابن أم ولد للورد دمونت فوكون .

٣٣٣ — فلما دوت الكتبة اسمي سار بي الأمير إلى داخل الفسطاط حيث كان البارونات مجتمعين ومعهم أكثر من عشرة آلاف شخص ، فلما دخلت عليهم سرت الفرحة بين البارونات حتى لم يعد أحد يسمع ما يقوله الآخر ، وشكروا مخلصنا ، وقالوا إنهم حسبوني مفقودا .

تهديد الأسرى وخبر اتفاقية الملك

٣٣٤ — لم يطل المقام بنا هناك حتى طلبوا من أحد كبار رجالات المسلمين الموجودين أن يأخذنا إلى فسطاطه ففعل [حيث صادفنا منظراتعسا^(٣)] فوضع المسلمون كثيرا من الفرسان في ساحة مسورة بجدران من الطين ، وأمروا أن يأخذوهم واحداً بعد آخر من هذا المكان المسور ، وراحوا يسألون كلا على حدة « أتنبذ دينك ؟ » فمن أبي نبذه نحو جانبا وقطعوا رأسه ، أما الذين أنكروا دينهم فمضوا بهم إلى ناحية أخرى .

٣٣٥ — وفي هذه اللحظة بعث السلطان أعضاء مجلسه إلينا يسألوننا عن

(١) في م « ووجدنا عند مدخل فسطاط كبير كتاباً يدون بأمر السلطان أسماء الأسرى ، فأجبروني على ذكر اسمي الذي لم أكن راغباً في إخفائه » .

(٢) في جوتز أنه ابن موت فوكون ، لكن راجع فيما بعد رقم ٤٠٧ .

(٣) الإضافة من جوتز ، ص ٤٤٣

يسامونه رسالة السلطان ، فدللناهم على الكونت الطيب بطرس دي بريتاني ،
وكانت هناك جماعة معينة يعرف أفرادها اللسانين العربى والفرنسى ويسمونهم
بالترجانات ، فأخذوا يترجمون لكونت بيتر الكلام العربى إلى الفرنسية وقالوا
له « أيها اللورد ، لقد بعثنا السلطان إليك ليعرف عما إذا كنتم تريدون الخلاص
من الأمر » فأجابهم الكونت « أجل » .

٣٣٦ — وحينذاك سأله « وماذا أنتم معطون للسلطان لقاء خلاصكم ؟ »
فقال لهم الكونت « إننا معطوه ما فى قدرتنا إن كان معقولا » .

فسأله « وهل أنتم مستعدون للتنازل — لقاء خلاصكم من الأسر — عن شىء
من الحصون التى بيد البارونات فيما وراء الحدود؟ » ، فأجاب الكونت أنه لا يملك
التصرف فى هذه القلاع لأنها ممنوحة من إمبراطور ألمانيا الذى كان لا يزال
حيًا^(١) إذ ذاك [والذى لن يرضى بحال من الأحوال أن يسمح للسلطان أن يمتلك
أى أرض تابعة له^(٢)] .

ثم سألوا عما إذا كنا نتنازل — لقاء خلاصنا — عن أى حصن من
الحصون التى بيد الداوية أو الاسبتارية ، فأجابهم الكونت إن هذا أمر ليس فى
الإمكان ، إذ جرت السنة على أن يقسم القائمون بأن هذه القلاع حين تسلمهم
إياها ألا يسلموا أبداً إحداها لفك أمر أحدهما ، وهم يؤكدون قسمهم هذا بالآثار
المقدسة .

(١) راجع رقم ٣٢١ ، والمقصود بذلك الإمبراطور فردريك الثانى الذى كان قد توج
فى بيت المقدس .

(٢) الإضافة من جونز ، ص ٤٤٣ .

وحينذاك أجاب رجال السلطان إنه يخيل إليهم أنه ليست الدنيا نية في الخلاص من الأسر، وأنهم راحلون عنا وباعثون إلينا من يتخذون منا ملهاة لسيوفهم كما فعلوا بالآخرين ، ثم مضوا إلى حال سبيلهم .

٣٣٧ - ما كاد رجال السلطان يرحلون حتى اندفع حشد كثيف من شباب المسلمين إلى فسطاطنا وسيوفهم مشرعة بأيديهم ، وعلى رأسهم شيخ قد ردّ إلى أرذل العمر كثيف الشعر ، فطلب أن يسألونا عما إذا كنا نؤمن بالله واحد تعذب من أجلنا وجرح ومات في سبيلنا ، ثم قام من بين الموتى بعد ثلاثة أيام ، فأجبناهم « أجل (١) » .

وحينذاك قال لنا ذلك الشيخ إنه لا ينبغي علينا أن نشكو إذا ما تحملنا كل هذا العذاب من أجل هذا الإله ، وقال « إنكم لم تموتوا بعد من أجله كما مات هو من أجلكم ، وما دام قد استطاع بعث نفسه ثانية فثقوا تمام الثقة أنه مخلصكم إذا ما أحب » .

٣٣٨ - ثم انصرف الشيخ عنا وفي إثره جميع الشبان الذين قدموا معه ، فاشتدّت بي الفرحة لأنه جال بخاطري في إيمان أنهم قدموا لإطاحة رءوسنا (٢) ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجال السلطان وأخبرونا أن الملك قد نجح في مفاوضاته لإطلاق سراحنا .

(١) وردت هذه العبارة على الصورة التالية في جونز ، ص ٤٤٤ « سألونا بواسطة مترجم يتقن لغتنا عما إذا كان صدق ما يقال من أننا نؤمن بالله واحد ولد ليخلصنا ثم صلب حتى مات ، ثم قام بعد ثلاثة أيام لتخليصنا ، فأجبناهم أن ما سمعناه منهم هو عين الصدق » .

(٢) وردت هذه العبارة في جونز ص ٤٤٤ على الصورة الآتية « انصرف الشيخ بجميع الشبان دون أن يفعلوا بنا شيئاً أكثر من ذلك ، الأمر الذي فرحت له فرحاً شديداً » .

٣٣٩ — بعد رحيل الشيخ المسنّ ، ذلك الرحيل الذي أنزل السكينة على قلوبنا ، عاد إلينا رجال السلطان وأخبرونا أن الملك قد نجح في الحصول على إطلاق سراحنا ، وأنه يلزمنا أن نبعث أربعة من رجالنا ليسمعوا ما فعله الملك ، فأرسلنا الرجل الطيب سيدى جون لورد دى قاليرى ومعه سيدى فيليب دى مونتفورت وبلدومين دى إبلين سنكال قبرص ، وجى دى أتين كونستابل قبرص وهو من أبرز الفرسان العظام الذين تسنّت لى رؤيتهم وهو واحد ممن أحبّ أهل هذا البلد حبا عظيما .

وقد عاد إلينا هؤلاء الأربعة وأخبرونا عن الطريقة التى سلكها الملك للحصول على خلاصنا .

تهديد الملك ومفاوضة المسلمين

٣٤٠ — سلك رجال السلطان مع الملك نفس الطريقة التى سلكوها معنا عسّام يستطيعون حملته على تسليمهم شيئا من قلاع الداوية أو الاسبتارية ، [أوشيتا من القلاع^(١)] التى فى أيدي بارونات تلك البلاد ، وشاء الرب أن لا يجيبهم الملك بغير الإجابة التى أجبناهم بها ، فهدّوه وأخبروه أنهم مضطرونّ للأمر بوضعه فى الفلقة^(٢) طالبا أنه لن يقبل ما أراد منه] .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى نسختى ويلي وجونز فقط .

(٢) آثرت ترجمة كلمة Bermicles الفرنسية بكلمة « الفلقة » المصرية فقد جاء أنها آلة للتعذيب يستعملها المسلمون لئصر الأرجل ، Lexique de l'Ancien Français, Paris, 1901 ، وجاء فى وصفها فى جونز ص ٤٤٤ حاشية رقم ١ « يظهر أن آلة التعذيب هذه كانت تصنع من قطع من الخشب ذات ثقوب توضع فيها =

٣٤١ — أما الفلقة فهي أفظع صور التعذيب التي لا يمكن لأحد ما مكابذتها ، وتآلف من عارضتين خشبيتين ملتويتين تتشابك أطرافها بأسنان تدخل الواحدة منها في الأخرى ، وتتصلان من النهاية بسير من جلد الثور المدبوغ ، وحينما يريدون وضع أحد فيها فإنهم يطرحونه على جنبه ويضعون رجله بين الأسنان ، ثم يجلسون رجلا آخر فوق قطعتي الخشب ، وحينذاك يحدث ألا يبقى سوى نصف غير مهروس ، ولكي يزدوا عذاب الشخص بقدر ما يستطيعون فإنهم في نهاية الأيام الثلاثة — وقد انتفخت الأرجل — يعيدون وضع الأرجل المنتفخة في الفلقة ويهرسونها مرة أخرى .

٣٤٢ — فكان رد الملك على هذه التهديدات أنه أسيرهم ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا به ما يريدون ، ولما رأوا أن تهديداتهم الملك الصالح لم تجدهم نفعا في التغلب عليه رجعوا إليه مرة أخرى وسألوه كم يستطيع أن يحمل إلى السلطان من المال إلى جانب تسليمه إياه دمياط ، فأجابهم الملك بأن السلطان إذا سأل مبلغا معقولا فإنه سيطلب إلى الملكة دفعه لإطلاق سراحه هو ورجاله ، فسألوه : « كيف لا تستطيع أن تخبرنا أنت نهائيا أن هذه الأشياء ستنفذ » .

فأجابهم الملك أنه لا يعرف عما إذا كانت الملكة ستقبل الأمر أم لا ، فهي وإن تكن زوجته إلا أنها حرة في تصرفاتها . ثم عاد رجال السلطان إلى مولاهم وقصوا عليه ما وقع ، ثم انكفأوا مرة أخرى إلى الملك وأنبأوه أن السلطان

= أرجل المذنبين وتكون كل منها على مسافة من الأخرى ، وتشد الأرجل شداً عنيفاً مما يؤدي إلى ألم شديد فلا يستطيع المجرمون أن يسحبوا أرجلهم منها ، وكانت الثقوب التي في هذه الأخشاب على مسافات مختلفة » .

سيطلق سراحه من عقاله إن قبلت الملكة أن تدفع ألف ألف بيزية ذهبية ،
وهي تعادل خمسمائة ألف جنيه .

٣٤٣ — فاستحلفهم الملك بدينهم هل سيطلق السلطان سراحهم إذا
استجابت الملكة طلبه ، فمضوا إلى السلطان مرة ثانية وصدقوه بالأمر ، فردهم
إليه مقسمين له أن السلطان سيفك قيده على هذه الشروط .

فلما أقسموا اليمين تحدث الملك إلى الأمراء ووعدهم أنه سيدفع الخمسمائة
ألف دينار عن طيب خاطر لتخليص رجاله ، أما دمياط فسيردها لقاء إطلاق
سراحه هو ذاته ، لأنه يرى أنه ليس من اللياقة أن يقابض عن نفسه بالمال ، فلما
سمع السلطان ذلك قال « وحق ديني إن هذا الرجل الفرنسي لكبير القلب لأنه
لم يساوم في مبلغ كبير مثل هذا المبلغ ، وعليكم الآن بالتوجه إليه وإخباره أنني
معطيه مائة ألف دينار من أصل فديته » .

أخذ الأسرى إلى الدهليز السلطاني

٣٤٤ — بعد ذلك أمر السلطان بوضع كبار الشخصيات في أربع سفن
تبحر بهم إلى دمياط ، وكان معي في نفس المركب الكونت الطيب بطرس
دي بريتاني ووليم كونت فلاندرز والكونت الصالح جون دي سواسون
وهبرتي دي بيجو كونستابل فرنسا ، والفارس الطيب سيدي بلدوين
دي إبلين وأخوه لورد جي .

٣٤٥ — أما الذين وكل إليهم حراستنا في المركب فقد أحضرونا إلى
الشاطئ في مواجهة معسكر أقامه السلطان عند النهر ، وكان على صورة ستسمع
وصفها الآن حالا .

كان أمام المعسكر برج مصنوع من أعمدة خشب الشربين ومحاط بقماش من التيل المخطط حيث المدخل إلى الدهليز السلطانى ، وأقيم عند مدخل الدهليز قاعة يترك فيها الأمراء سيوفهم وسلاحهم حين دخولهم لمحاوثة السلطان .

وكان وراء هذا الدهليز باب آخر مثل الأول إذا عبرته أدى بك إلى فسطاط كبير هو القاعة التى يجلس فيها السلطان .

وخلف هذا الدهليز يوجد برج آخر شبيه بالأول يؤدى بالداخل منه إلى قاعة السلطان الخاصة به .

٣٤٦ — ويوجد خلف قاعة السلطان ساحة يتوسطها برج أعلى من بقية الأبراج الأخرى يفضى إليه السلطان إذا رغب أن يشرف على الناحية كلها والمعسكر ، ويخرج من هذه الساحة يمر ينتهى إلى النهر حيث أمر السلطان بإقامة فسطاط فى وسط الماء للاستحمام ، وكان جميع المعسكر محاطا بتكعيبات خشبية غطيت سطوحها الخارجية بقماش أزرق حتى لا يتمكن من فى الخارج من رؤية من بالداخل ، كما أن الأبراج الأربعة جميعها كانت مغطاة بالقماش .

٣٤٧ — فلما كان يوم الثلاثاء السابق يوم الصعود^(١) وصلنا إلى المكان الذى نصبت فيه هذه المعسكرات ، كما أرسى أمام خيمة السلطان المراكب الأربع التى كنا جميعا مأسورين فيها ، فسار أحدهم بالملك إلى خيمة قريبة كل القرب من خيمة السلطان الذى أمر بتنظيم الأمور جميعها، فرتب أن

(١) هو يوم ٢٨ أبريل ١٢٥٠

يقسم مدينة دمياط يوم السبت السابق لعيد الصعود ، وحينذاك يطلق مبراح
الملك^(١) .

اغتيال السلطان

٣٤٨ — أما الأمراء الذين فصلهم السلطان ليحل مكانهم من خاصته
من جاء بهم من بلاد أجنبية فقد أخذوا في التشاور فيما بينهم ، وقام مسلم داهية
فتكلم على الصورة التالية «أيها الإخوان ، لقد رأيتم ما جللنا به السلطان من
عار ومذلة وكيف أخرجنا مما كنا فيه أيام أبيه ، لهذا يجب أن تعلموا علم اليقين
أنه لن يكاد يجد نفسه في قلعة دمياط حتى يصدر أمره بالقبض علينا وقتلنا في
السجن كما فعل جده مع الأمراء الذين ألقوا القبض على كونت دى بار وكونت
دى مونتفورت ، ومن ثم فإنه يخيّل إلى أنه أجدى علينا أن نعتجل بقتله
قبل أن يفلت من أيدينا » .

٣٤٩ — ومن ثم فقد ذهبوا لهذا الغرض إلى رجال الحلقة ، وكلفوهم بقتل
السلطان حينما يجلسون إلى السطاط معه وقت دعوته إليهم لذلك ، ومن ثم فقد
حدث بعد تناولهم الطعام أن استأذن السلطان الأمراء فى الانصراف ، وبينما هو
ماض إلى حجرتة وثب عليه أحد فرسان الحلقة من حاملى سيفه وضربه
فى منتصف يده ضربة بين الأصابع الأربعة وذراعه .

٣٥٠ — حينذاك التفت السلطان إلى الأمراء الذين كانوا قد أمروا
باغتياله وقال «أيها السادة ، إننى أشكو إليكم رجال الحلقة هؤلاء الذين
أرادوا قتلى كما ترون » .

(١) يستفاد من رواية نسخة جونز ، ص ٤٤٦ ، أن الملك رتب هذا الأمر مع السلطان

فى مفاوضة جرت بينهما .

فأجابه فرسان الحلقة في صوت واحد « مدمت تقول إننا نرغب في اغتيالك فالأجدي أن نبادر بقتلك قبل أن تفاجئنا^(١) » .

٣٥١ — ثم أمروا بضرب الكوسات فجاء الجيش بأجمعه ليقبضوا على السلطان ، فذكروا استيلائهم على دمياط وأن السلطان ماض إليها وأنه يطلب إليهم الذهب في أثره ، ومن ثم لبس الجميع سلاحهم وانطلقوا نحو دمياط . فلما رأيناهم ماضين انقبضت منا القلوب أشد انقباض ، فقد تبادر إلى ذهننا أنها ضاعت منا .

غير أن السلطان — وكان شاباً فتياً — هرب إلى البرج القائم خلف حجرته مع ثلاثة من رفقائه الذين كانوا جالسين يؤاكلونه .

٣٥٢ — أما رجال الحلقة الذين كان عددهم خمسمائة فارس فقد هدموا فسطاط السلطان واحتشدوا حول البرج لحصار السلطان والشيوخ الثلاثة الذين كانوا يؤاكلونه ، وصاحوا به طالبين إليه النزول ، فأجابهم بأنه مستعد لذلك إن وعدوه الأمان ، فقالوا له إنهم قادرون على إنزاله بالعنف لأنه ليس بدمياط ، ثم قذفوه بالنار الإغريقية التي أمسكت بالبرج المصنوع من خشب الشربين والقطن ، وسرعان ما احترق البرج ، ولم أرقط في حياتي لهباً أجمل مرأى وأقوى شدة من هذا اللهب ، فلما رأى السلطان ذلك أسقط في يده وبادر إلى النزول وانطلق إلى النهر مجتازاً الطريق الذي حدثتلك عنه عني من قبل .

(١) الوارد في أبي المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة مصر) ج ٦ ص ٣٧١ نقلاً عن يوسف قزأوغلي إن بعض ممالك أييه البحرية ضربه بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض أصابعه ، ولام من وقته ودخل البرج وصاح « من قتلني » قالوا « الحشيشية » ، فقال « لا والله إلا البحرية » ، والله لا أبقى منهم بقية .

٣٥٣ — أما فرسان الحلقة فقد سدّوا بسيوفهم جميع المسالك أمام السلطان ، وبينما كان مغنّداً الحرب إلى النهر رماه أحدهم بسهم في أضلعه فانطلق به إلى النهر وهو يجر الرمح ، فمضوا في أثره ساجدين . وجاءوه وقتلوه وهو في الماء غير بعيد عن المركب الذي كنا فيه .

وكان الذي ضربه بسيفه ضربة قاطعة فارس اسمه أقطاي^(١) ، وانزع قلبه من صدره ، ثم جاء إلى الملك وما زالت الدماء تلوث يده وتقطر منها وقال له « ترى ماذا تعطيني إذ قتلت عدوك الذي لو عاش لقتلك ؟ » ، فلم يجبه الملك قط بآية كلمة .

إتفاقية الأمراء

٣٥٤ — جاء إلى مركبنا ثلاثون شخصاً من المسلمين وقد جردوا سيوفهم في أيديهم وعلقوا في أعناقهم الفئوس الدانيمركية ، فسألت بلدوين إيرل إبلين الذي كان يتقن لسانهم إتقاناً تاماً عما يبررون به ، فأجاب بأنهم يقولون إنهم جاؤوا لإطاحة رموسنا ، وحينذاك أخذ حشد كثيف جداً من رجال جيشنا في الاعتراف لأخ من إخوان الثالث اسمه جون كان قد جاء مع كونت دي فلاندر .

أما فيما يتعلق بي فلم أذكر لنفسي خطيئة ارتكبتها ، وتذكرت أنه كلما ألححت في الدفاع عن نفسي ومحاولة الحرب كلما ازداد خوفي .

٣٥٥ — فرسمت الصليب على وجهي وركعت عند قدمي أحدهم وكان

(١) هو فارس الدين أقطاي بن عبد الله الجمدار العالحي النجمي ، وكان توران شاه وعده أن يؤمره ولم يف بوعده ، راجع النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٧١ ، هذا وقد سماه جوائيل في الأصل باسم Faraquataye وورد اسمه في نسخة جوتز من ٤٤٨ Faracataic.

يحمل فأساً دانيمة كية. كما يفعل النجارون وقلت له « هكذا كانت ميتة القديس
أجنس Agnes » ورُكع إلى جانبي جي دي إبلين كونستابل قبرص وشرح
يعترف لي فقلت له : إنني أغفر لك بكل القوة التي أمدني بها الرب .
لكنني حينما نهضت من هذا المكان نسيت كل شيء . قاله .

٣٥٦ — أخذنا المسلمون من حيث كنا وألقوا بنا في سجن بقاع المركب،
وظن كثير من رجالنا أنهم فعلوا ذلك لرغبتهم في ألا يقتلونا جميعاً معاً
دفعاً واحدة بل واحداً بعد آخر ^(١) ، فقضينا تلك الليلة في كرب شديد ولم
يغمض لنا جفن إلا في ساعة متأخرة من الليل ، والتصق كل منا بالآخر حتى
إن قدمي كانتا في وجه كونت بيتر دي بريتاني ، وقدماه في وجهي .

٣٥٧ — فلما تبلىج الصباح أمر الأمراء بإخراجنا من الحبس الذي كنا فيه ،
وذكروا لنا رسلهم أننا ماضون لمحاذاتهم بغية تجديد العهد الذي كان السلطان
قد أبرمه معنا [وقالوا ^(٢) لنا أيضاً إنه في استطاعتنا أن نكون واثقين أن لو
كان السلطان لا يزال حياً لأمر بقطع عنق الملك وكذلك أعناقنا جميعاً] .

فسار إليهم القادرون على السير وبقيت حيث أنا وكذلك كونت بريتاني
وكونستابل قبرص من جراء مرضنا الخطير ، على حين ذهب إليهم كونت فلاندر
وكونت جون دي سواسون والأخوان إبلين وغيرهم ممن كان في استطاعتهم
الذهاب .

(١) جاءت هذه العبارة كالآتي في نسخة جونز ص ٤٤٩ « وضعونا في مخزن السفينة
وقد جعلوا رؤوسنا وأقدامنا معاً ، وظننا أنهم أمروا بذلك خوفاً من أن نهاجمهم ونحن
جميعاً معاً » .
(٢) « ما بين الخاضعين وازد في نسخة ويللي فقط . »

٣٥٨ — اتفق هؤلاء المبعوثون مع الأمراء على أنه لا يكاد يتم تسليم دمياط حتى يفكوا قيود الملك وكبار رجالاته من ذل الأسر .

ثم أمر السلطان بأخذ من دونهم مرتبة إلى القاهرة إلا من أمر بقتلهم، فقتلوا رغم العهد الذي أبرمه السلطان مع الملك، ولهذا السبب كان يخيل إلينا أنه لا بد أمر بقتلنا جميعاً حين استرداده دمياط .

٣٥٩ — وكان على الملك أن يقسم اليمين بعد ذلك على دفع مائتي ألف جنيه للمسلمين قبل تركه النهر ، وأن يدفع أيضاً مائتي ألف أخرى في مكة ؛ وكان الاتفاق الذي عقده المسلمون مع الملك يلزمهم برعاية مرضانا في دمياط وبالحفاظة على السلاح والأقواس واللاحوم الملحة وآلات الحرب، حتى يبعث الملك في أخذها .

يمين الأمراء

٣٦٠ — أما الأيمان التي كان على الأمراء أن يحلفوها للملك^(٢) فقد اتفق عليها كتابة، حيث نصبت على أنهم إذا لم يراعوا عهدهم هذا مع الملك فإنهم يفقدون شرفهم ويصبحون أشبه بالرجل الذي تحمله خطيئته إلى أن يحج إلى مكة عارى الرأس ويلطخون شرفهم كرجل طلق زوجته ثم أعادها إلى عصمته ثانية ، إذ جرت شريعتهم محمد على أنه إذا طلق الرجل زوجته لم تعد تمسك له حتى يتزوجها رجل آخر .

٣٦١ — أما اليمين الثالث فكان ينصب على أنهم إذا أخذوا بعهدهم هذا

(١) في جونز ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ « دونت اليمين التي كان على الملك والأمراء قطعها على أنفسهم في هذا المجال »

(٢) معلومات جوافيل عن هذه الناحية مضطربة ولا يستقيم مع الواقع :

مع الملك فإنهم يلمطخون شرفهم شأنهم في ذلك شأن المسلم إن دنس نفسه بتناول لحم الخنزير .

وقد رضى الملك بهذه الأقسام السابقة التي قطعها له الأمراء، لأن السيد نيقولا العكاوى - الذى يعرف اللسان العربى ^(١) - قال إنه ليس فى استطاعة المسلمين تبعاً لشريعتهم - أن يقطعوا يميناً أشد إلزاماً لهم من هذه الأيمان .

٣٦٢ - حين قطع الأمراء هذه الأيمان على أنفسهم دُونوا اليمين التي أرادوا من الملك أن يقطعها على نفسه والتي وضعت صورتها على النمط الذى اقترحه القسس الذين أنكروا ملتهم واعتنقوا الإسلام، وكان نصها أنه إذا لم يلتزم الملك عهوده مع الأمراء فإنه يلمطخ شرفه كسيحى أنكر الرب وأمه ، وخسر صداقة حوارى سيدنا الإثنى عشر وجميع القديسين والقديسات .
وقد قبل الملك هذه اليمين عن طيب خاطر .

أما المادة الأخيرة من القسم فكانت تنص على أنه إذا لم يف الملك بعهوده فإنه يكون قد دنس شرفه كسيحى قد أنكر الرب وشريعته وازدراه ، وبصق على الصليب ، ووطأه بقدمه .

٣٦٣ - فلما وقف الملك على هذا الشرط قال إنه لن يقسم تلك اليمين ، فبعث الأمراء إلى الملك بالسيد نقولا الملم باللسان العربى وقال له « مولاي ، إن الأمراء جدّ محنقين لأنهم أقسموا لك كل ما طلبته منهم على حين أنك تأبى أن تقسم لهم على ما أرادوه منك ، وكن واثقاً أنك إن رفضت أن تقسم لهم هذا اليمين فإنهم سيأمرّون بإطاحة رأسك ورقاب جميع رجالك » .

(١) فى الأصل « الإسلامى » .

فأجاب الملك إنهم في وضع يمكنهم من أن يفعلوا به كل ما يريدون ، ولكنه
يؤثر أن يموت مسيحياً صادق الإيمان على أن يبوء بفضب الرب وأمه
وسخطهما عليه .

٣٦٤ — واستطاع بطريك بيت المقدس — وكان شيخاً موقراً في الثمانين
من عمره — أن يتفق مع المسلمين على صيغة قسم يحفظ على الملك احترامه ، وجاء
لمساعدة الملك في مفاوضاته لإطلاق سراحه .

كان العرف قد جرى عند المسلمين والمسيحيين على أسروا سترقاق الرسل
الذين يكونون في بلاد مسيحية أو إسلامية أو كافرة إذا مات الملك
أو السلطان ، ولما كان السلطان [توارن شاه] الذي أعطى عهد الأمان
للبطرك قد مات فقد جرى على البطرك ما جرى علينا من الأمر .

ولما بعث الملك بجوابه قال أحد الأمراء إن رد الملك هذا كان بإيحاء
البطرك وإشارته ، ثم قال لجماعته « إذا وثقتم بي فإنني سأخل الملك على أن يقسم
لكم القسم الذي تريدونه ، لأنني سأمر بإطاحة رأس البطرك في حجر الملك » .

٣٦٥ — فلم يستمعوا لمقالته بل أخذوا البطرك من جانب الملك
وأوقفوه أمامه وشدوه إلى قائم إحدى الخيام ، كما شدوا يديه خلف عنقه
وأحكموا وثاقهما إحكاماً انتفختا منه حتى صارتا في حجم رأسه ، وانبجس الدم
من بين أظافره ، فصاح البطرك بالملك « بحق الرب ألا أقسمت لهم غير خائف ،
ولأنني لمحتل ما قد يكون في قسمك من خطيئة » .

ولست أعرف الطريقة التي اتبعت لإقرار القسم ، ولكن الأمراء
قنعوا في النهاية باليمين التي أقسمها الملك وغيره من كبار الرجال الذين كانوا
بصحبة إذ ذاك .

٣٦٦— لم يكذ السلطان يُقتل حتى أسروا بإحضار آلاته أمام خيمة الملك وجاء إليه من أفضى له بأن الأسراء راغبون بمحض إرادتهم في تنصيبه سلطاناً على مصر ، فسألني الملك عما إذا كنت أنصح به بقبول عرش مملكة مصر إذا عرضوه عليه ، فأخبرته أن قبوله هذا العرض هو الحق كل الحق بعد ما رآه من قتل الأمراء لولي نعمتهم . إلا أنه أنبأني أنه لن يرفض طلبهم هذا^(١).

٣٦٧— ويجب أن تعلم أن هذه المسألة وقفت عند ذلك الحد دون أن يتقدموا فيها خطوة أكثر ، لأنهم قالوا إن الملك أقوى نصراني رأوه تمسكاً بمسيحيته ، وأقاموا الدليل على ذلك بأنه حينما غادر خيمته أحضر صليبه ووضع على الأرض ثم استلقى عليه بكل جسده ، وقالوا إنهم ما كانوا يبقون على إيمانهم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) لو ألم بهم مثل ما ألم بالملك في هذه المحنة ، وزادوا على ذلك قولهم إن الملك — لو ولي أمر المسلمين — لا بد أن يحملهم جميعاً على اعتناق المسيحية وإلا قتلهم عن بكرة أبيهم .

بعد أن اتفق الملك والأسراء على صيغة اليمين وأقسموا عليها قرّروا على إطلاق سراح غداة يوم الصعود ، كما اتفقوا على المبادرة إلى فك قيود الملك ومن معه من وجوه رجالاته حال تسلمهم دمياط .

فلما كان مساء الخميس^(٢) قام الذين وكل إليهم الإشراف علينا في سفننا

(١) ليس في المراجع العربية والأجنبية أدنى إشارة لهذا العرض من جانب الممالك ، وأحسب أن هذا من خيال أحدهم ، ولكنه يصور في الوقت ذاته طمع لويس في مصر .

(٢) يعني يوم ٥ مايو ١٢٥٠

الأربع بالربو في وسط النهر تجاه جسر دمياط وأمرُوا بإقامة فسطاط أمامه
لنزول الملك .

٣٦٩- فلما أشرقت شمس ذلك اليوم ذهب إلى المدينة جودفرى لورد سارجين
وسلمها إلى الأمراء ، وخفقت أعلام السلطان على جميع أبراجها ، ودخل
فرسان المسلمين المدينة وأخذوا في تناول الشراب ، وما لبثوا أن سكرُوا جميعاً
سكرة كبرى جاء بعدها أحدهم إلى مركبنا وسحب سيفه والدم يقطر منه وقال
إنه قتل ستة من رجالنا .

٣٧٠- وقبل أن يحاط بدمياط أنزلوا الملكة هي وجميع رجالنا الذين كانوا
بالمدينة في السفن التي كنا بها ، ولم يستثنوا سوى المرضى الذين تعهد المسلمون
برعايتهم والحفاظة عليهم ، لكنهم قتلوهم على بكرة أبيهم ، كما حطموا آلات حرب
الملك التي كانوا ملزمين برعايتها هي الأخرى ، ولم يبقوا لنا على اللحم المقدد وهو
لحم الخنزير الذي تعهدوا لنا بحفظه لعدم تناولهم إياه ، وأقاموا كومة من الآلات
وأخرى من لحم الخنزير وثلاثة من قتلتنا وأشعلوا النيران في هذه الأكوام
جميعها ، وكانت النيران شديدة حتى لقد استمرت أيام الجمعة والسبت والأحد .

قتل الأسرى

٣٧١- كان المقرر أن يطلق المسلمون سراح الملك وسراحنا نحن أيضاً عند شروق
الشمس ، غير أنهم استبقونا حتى الغروب دون أن يقدموا لنا شيئاً ماناً كله
نحن ولا الأمراء الذين ظلوا في عراك مستمر طيلة يومهم حتى تكلم أحدهم
أخيراً إلى جماعته فقال : « أيها السادة : إذا أنصم إلى وإلى جميع رجالى
فاعمدوا إلى قتل الملك وكبار رجالاته الذين هنا ، وبذلك تنعم بالطمانينة مدة

أربعين سنة لأن أولادهم سيكونون صغاراً، ولأن دمياط ستكون في أيدينا ،
ونستطيع أن نفعل ذلك في طمأنينة أكبر .

٣٧٢— وحينذاك قام مسلم آخر واسمه صبر الدين^(١) وكان من أهل المغرب
فحكى عكس ما حكاه سابقه إذ قال : « إذا قتلنا الملك بعد اغتيالنا السلطان
فسيقال إن المصريين أشرّ أهل الأرض قاطبة وأبعدهم عن الوفاء » . فلما سمع
قوله الراغبون في هلاكنا ردّوا عليه قائلين : « حقاً ما قيل من أننا كنا جد
مخطئين حين وثبنا على سلطاننا بالأمس فصرعناه ، إذ خرجنا بذلك على تعاليم
رسولنا الذي أمرنا بالمحافظة على حكمانا محافظتنا على جوهر عيننا ، ودونكم
ما في هذا الكتاب من تعاليم مكتوبة ، ولكن استمعوا إلى الوصية الأخرى
من وصايا الرسول التي تجيء بعد هذا » .

٣٧٣— ثم قلب صفحة من كتاب كان في يده وأراه وصية أخرى جاء فيها
« اقتلو عدو الدين من أجل سلامة الدين » ، ثم قال لهم : « والآن وقد عصينا
تعاليم محمد (صلعم) إذ قتلنا مولانا السلطان فإننا سنكون أشدّ عصياناً إذا لم
نقتل الملك مهما كانت العهود التي قطعت له لأنه أقوى رجال الملة المعادية » .

٣٧٤— كاد إجماع القوم أن ينعقد على وجوب التخلص منا بقتلنا جميعاً حينما جاء
إلى النهر أحد الأمراء — وكان من خصومنا — وقد ظن أننا مقتولون ،
وأخذ يهتف بالسان عربي بمن وكلت إليهم حراسة السفن ، ثم خلع عمامته من على
رأسه وأشار إليهم بها إشارة خاصة ، فرفعوا المرساة ورجعوا بنا إلى الوراق
مسافة فرسخ تجاه مدينة القاهرة ، فاعتقدنا أننا مقتولون وذرفنا الدموع الغزار .

(١) في الأصل Sebrecci ولا يعرف في تاريخ هذه الفترة من صبر الدين هذا .

إطلاق سراح الملك ورحيل البعض إلى فرنسا

٣٧٥ - أراد الرب الذي لا ينسى شعبه أن يتم الاتفاق - وقد أوشكت الشمس على المغيب - على وجوب إطلاق سراحنا ، فعادوا بنا إلى حيث كنا وسحبوا مراكبنا الأربعة إلى الشاطئ ، فطلبنا إليهم أن يدعونا نذهب في سبيلنا ، فأبوا قائلين إنهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا « لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبة الدهر في جبين أسرائنا » .

٣٧٦ - حينئذ طلبنا إليهم أن يقدموا لنا ما نأكله فقالوا إن البعض ذهب لإحضاره من المعسكر ، لكن لم يزد ما قدموه لنا عن أقراص من الجبن المقدد في الشمس حتى لا يتوالد فيها الدود ، وبيض مسلوق منذ أربعة أيام أو خمسة وقد صبغوه بألوان مختلفة إكراماً لنا .

٣٧٧ - ثم نقلونا إلى البر فذهبنا ناحية الملك الذي كانوا يسرون به إذ ذاك من القسطنطينية الذي وضعوه به إلى ناحية النهر ، وسار وراءه على الأقدام عشرون ألف مسلم قد تمنطقوا بسيوفهم .

كان في النهر - تجاه موقف الملك - سفينة جنوية بدت خالية من كل أحد سوى رجل واحد على ظهرها ، لم يكدرى الملك على شاطئ النهر حتى صفر صفيراً اندفع له من قاع السفينة ثمانون من رماة الأقواس وهم في كامل سلاحهم وقد رفعوا سهامهم ، وما انقضت برهة إلا ووضعوا النبال في تجاويقها ، فما كاد المسلمون يطالعونهم على هذه الصورة حتى فروا كالأنعام ولم يبق مع الملك منهم سوى اثنين أو ثلاثة أشخاص .

٣٧٨ - ألقت السفينة لوحاً من الخشب إلى اليابسة ليصعد عليه الملك وأخوه

كونت دانجو وجوفرى دى سارجين وسيرفليب دى نيمور مارشال فرنسا -
الذى كان يسمى مارشال فير وسيد الثالوث ، وأنا معهم .

أما الكونت دى بواتييه فقد استبقوه رهينة فى أسرهم حتى يدفع الملك
المائة ألف دينار التى كان قد تعهد بدفعها فدية له قبل مغادرته النهر .

٣٧٩ - وفى يوم السبت^(١) التالى بعد الصعود، وهو اليوم التالى ليوم خلاصنا جاء
إلى الملك كونت فلاندر^(٢) وكونت سواسون وغيرهم من وجوه قومه الذين
كانوا أسرى فى السفن يستأذنونهم فى السفر، فقال لهم الملك إنه يظن أنهم يحسنون
صنعاً لو تريضوا حتى يتم إطلاق سراح أخيه كونت بواتييه ، إلا أنهم أجابوه
أنهم لا يستطيعون انتظاراً وقد أوشكت جميع السفن على الانطلاق إلى
عرض البحر .

ومن ثم فقد ركبوا سفنهم عائدين إلى فرنسا بعد أن أخذوا معهم الكونت
الطيب^(٣) بطرس دى بريتانى الذى اشتد به المرض شدة لم تمد فى حياته أكثر
من ثلاثة أسابيع ، فوافاه أجله وهو مازال بعد فى البحر .

الفدية واستيلاء جوانفيل على مال الداوية

٣٨٠ - أخذ رجالنا فى عدد الأموال التى كان عليهم دفعها فدية صباح السبت،
واستغرق منهم العد طوال يوم السبت وكذلك الأحد حتى المساء لأن النقود
تقدر بالوزن ، وكل وزنة بعشرة آلاف دينار .

(١) هو يوم ٧ مايو ١٢٥٠

(٢) أخطأ جوانفيل حيث سيذكر فيما بعد (٤٢٢ ، ٤٢٤) أن كونت فلاندر

كان فى عكا .

(٣) هذا اللمع غير وارد فى جونز ، ص ٤٥٤ .

فلما كان مساء الأحد قام رجال الملك الموكلون بالعدّ فأرسلوا إليه يخبرونه أنه لا يزال ينقصهم ثلاثون ألف دينار لاستيفاء المبلغ المتفق عليه ، ولم يكن مع الملك إذ ذاك سوى ملك صقلية ومارشال فرنسا ووزير الثالوث وأنا ، أما الباقون فكانوا منهمكين جميعاً في عد المسال اللازم لدفع الفدية .

٣٨١— حينذاك قلت للملك إنه يحسن صنعاً لو أنه بعث إلى مارشال فرسان المعبد — إذ كان أستاذهم الأعظم قد مات — يسأله أن يقرضه ثلاثين ألف دينار للإطلاق سراح أخيه ، فأرسل الملك في البحث عن جماعة الداوية ، وعهد إلى بعرض الأمر عليهم ، فلما أفضيت إليهم بجمالية الخبر تصدى لي الأخ^(١) متيقفين دو تريكورت المشرف على الداوية قائلاً : « يا لورد جوانفيل ، ليس فيما أشرت به على الملك من خير أو تعقل ، لأنك تعرف أننا نتناول ما بيدنا من الأموال بعد أن نقسم الأيمان على ألا نسلمها إلا لمن استودعونا إياها » فتبادلنا^(٢) أنا وهو كثيراً من العبارات الخشنة والشتائم .

٣٨٢— ثم تكلم من بعده الأخ رينودي فيشييه Vichier الذي كان مارشال الداوية فقال : « مولاي ، دعنا نقض هذا النزاع الناشب بين السيد جوانفيل وبين كبيرنا ، لأننا في الواقع — كما قرر مشرفنا — لا نستطيع أن نقدم شيئاً من هذه الأموال دون أن نكون قد حنثنا في يميننا ، أما ما نصبحكم به السنكال بأن تأخذوا قسراً ما نرفض إعارتكم إياه فإنكم بذلك تعملون كما تريدون ، لكن إذا عمدت إلى طرق هذا السبيل واستوليت على ما معنا هنا بمصر فإننا سنموض أنفسنا مما لكم في عكا من أموال » .

(١) في نسخة جوتز ، ص ٤٥٥ « الاب » .

(٢) من هذه الكلمة حتى نهاية الفقرة غير وارد في جوتز ، شترحه .

٣٨٣ — حينما سمعت منه هذا التهديد^(١) قلت للملك : « إننى ذاهب لأخذ المال إن أمرنى بذلك » فاستجاب لقولى وأذن لى فيما طلبته منه ، ومن ثم مضيت إلى كبرى سفن الداوية ، ولما هممت بالنزول إلى مخزنها حيث تودع الأموال سألت مشرف الداوية أن يصحبنى ليكون شاهداً على ما آخذه، إلا أنه رفض سؤالى . أما المارشال فقال إنه قادم معى وسيكون شاهداً على العنف الذى أستعمله معه .

٣٨٤ — وما كبت أصل إلى المخزن حيث توجد الخزانة حتى سألت خازن أموال الداوية للوجود هناك أن يناولنى مفاتيح صندوق أمامه ، فلما رأتى نحيفاً قد أنهكنى المرض وليس على من الثياب غير ما كنت أرتديه فى الحبس أصر على الرفض ، وحينئذك أبصرت مطرقة صغيرة كانت ملقاة على الأرض فتناولتها وقلت : إننى سأأخذ منها مفتاح الملك ، فلما رأى المارشال ذلك لىكنى ، وقال : « سيدى ، إننا نرى أنك تستعمل العنف مغناً ، وسنأمر بإعطائك المفاتيح » . ثم أصدر أمره إلى الخازن بإسلامى إياها ، فاستجاب له الخازن الذى استبدت به الدهشة حينما أفصح له المارشال عن شخصيتى .

٣٨٥ — وجدت أن الصندوق الذى فتحته ملكاً لنيقولا دى شواسيه أحد سرجندية الملك ، فأخرجت ما به من فضة ، وذهبت فجلست على مقدم القارب الذى جاء بى ، وأخذت معى المارشال فرنسا وتركته حارساً على ما فى مركب الداوية من المال ، كما أبقيت وزير الثالث على ظهر السفينة .

فلما صرنا على السفينة ناول المارشال النقود إلى الوزير الذى ناولنى إياها

(١) من بداية الفقرة حتى هذه الكلمة وارد فى جونز فقط ، ولم يرد فى الأصل .

يدوره وأنا على القارب الصغير حيث كنت جالساً ، فلما انتهينا من ذلك
وصرنا على مقربة من مركب الملك أخذت في الهتاف به « مولاي ، مولاي ،
أنظر كيف جئت في أحسن زاد » ، فتلقانى الرجل القديس بالفرحة البالغة ، ثم
ناولت المبلغ الذى جئت به إلى القائمين بعد مال الفدية^(١) .

وفاء الملك بتنفيذ الاتفاق

٣٨٦ — حين فرغ القوم من العد ، جاء إلى الملك مشيروه الذين أنجزوا
العد وقالوا : إن المسلمين لن يطلقوا سراح أخيه حتى يصبح المبلغ فى أيديهم ،
وكان من بين هؤلاء المشيرين من يرون ألا يدفع الملك الفدية حتى يردوا إليه
أخاه أولاً ، ولكن الملك أجابهم أنه سيسلمهم الأموال وفاء لما اتفق وإياهم
عليه ؛ أما فيما يتعلق بالمسلمين فلو أرادوا التمسك بشرف كلمتهم فلا بد لهم من
الالتزام بالوفاء بما عاهدوه عليه .

وحينذاك قال فيليب لورد نيمور للملك إنهم اكتبوا فى الوزن عشرة آلاف
دينار من حق المسلمين .

٣٨٧ — غضب الملك إذ طرق سمعه هذا الكلام ، وقال إنه مصرّ على
أن يعيد العشرة آلاف درهم بعد أن عاهدهم أن يدفع لهم مائتى ألف دينار قبل

(١) نسخة وبلى أوفى من بقية النسخ فى تفصيل الطريقة التى حصل بها جوانفيل على
المبلغ المطلوب من الداوية فقد جاء فى جونز ، ص ٤٥٦ مانصه « ذهبت فى الحال إلى إحدى
سفن الداوية وأبصرت صندوقاً رفضوا إعطائى مفاتيحه فهمت بفتحه كسراً باسم الملك بإسفين
لولا أن أمر المارشال — وقد رأى صدق عزمى — بإعطائى المفاتيح ، ففتحت الصندوق وأخذت
المبلغ المطلوب وسلمته إلى الملك الذى كان سروره عظيماً بعودتى » .

مغادرته النهر ، فوكزت لورد فيليب بقدمي وطلبت إلى الملك ألا يصدقه فيما يدعى ، وإذ ذاك قال السيد فيليب : « إنني لم أقل غير الحق ، وأنه قال ما قال على سبيل المداعبة ، فأجابه الملك : « ولكنها دعايات ثقيلة ممجوجة » ، وقال لفيليب : « وإنني لأمر بك بحق طاعتك إياي باعتبارك تابعاً لي أن تأمر برد هذه الآلاف العشرة من الدنانير دون إبطاء ، إن لم تكن قد دفعت بعد » .

٣٨٨ — وقد نصح الكثيرون الملك بالانسحاب إلى سفينته التي كانت في انتظاره في البحر حتى لا يكون في متناول يد المسلمين ، ولكنه لم يستمع إليهم أبداً قائلاً : إنه لن يترك مكانه بالنهر حتى يتم دفع المائتي ألف دينار .

على أنه ما كاد يتم الدفع حتى قال الملك من تلقاء نفسه إنه أصبح في حل من أيمانه ، وأنه ينبغي علينا الرحيل والمضي إلى السفينة الراسية بالبحر .

٣٨٩ — أخذ مركبنا في الإقلاع ، وقطعنا مرحلة كبيرة ونحن صامتون من جراء الأذى الذي كلفنا نعانيه لتركننا كونت بواتييه في الأسر ، ثم جاء فيليب دي مونتفورت في سفينة إسبانية وصاح بالملك : « مولاي ، مولاي ، كلم أخاك الكونت دي بواتييه الموجود في هذه السفينة الأخرى » فهتف الملك : « استبشروا خيراً ، استبشروا خيراً ! » فكان ما أراد ، وعما سرور لم نر أعظم منه ، ومضى الملك إلى سفينة الكونت ونحن في إثره ، وانطلق صياد فقير إلى زوجة كونت دي بواتييه ذا كراً لها أنه رأى الكونت طليقاً ، فأمرت له بعشرين ديناراً باريسياً .

...

دى شاتون وأسقف سواسون

٣٩٠ — يجب ألا ننسى بعض أمور حدثت في مصر حين كنا بها ،
وسأخبرك أولاً عن جوشيه دى شاتيون ، حيث ذكر لي أحد الفرسان —
واسمه جون دى مونسون — أنه رآه يشق أحد شوارع القرية التي كان
الملك أسيراً بها وقد سل حسامه في يده ، وكان هذا الشارع يشق القرية في
استقامة ، حتى لقد كنت تستطيع أن ترى الحقول الفسيحة من طرفيه .

٣٩١ — فلما رأى دى شاتيون أن الترك قادمون إلى هذا الشارع كر
عليهم وسيفه في يده وطردهم خارج القرية ، وحدث في أثناء هروبهم أمامه
أن أخذوا يرمونه بنشابهم ، لأنهم كانوا قادرين على الرمي من وراء
ومن قدام .

فلما طردهم من القرية استل السهام التي كانت به ثم أعاد وضع سترته
الحربية ونهض مقتعداً سرجه ورفع ذراعه وصاح : « شاتيون يافارس ؟
يا شاتيون ! أين رجالى البارعون ؟ » وحين استدار ورأى أن الترك قد دخلوا
الشارع من ناحيته الأخرى كر عليهم كرة أخرى وسيفه في يده فولوا مدبرين ،
وقد فعل ذلك بهم ثلاث مرات على هذه الصورة .

٣٩٢ — ولما أخذنى أمير السفن لأنضم إلى أولئك الذين أسروهم على
اليابسة سألت عن كونت شاتيون ممن كانوا حوله ، ولسكنى لم أجد أحداً
يستطيع أن يدلنى كيف أخذه ، غير أن جون دى فوينون Fouinon الفارس
الطيب أخبرنى أنهم كانوا قد أخذه هو ذاته أسيراً إلى المنصورة ، فأبصر
تر كياً ممتطياً صهوة جواد سيدى جوشيه دى شاتيون وكان سرج الحصان

ملطخاً كله بالدم ، فاستفسر لورد جون من التركي عما فعله بصاحب هذا الحصان .
فأجابه التركي : إنه قطع رقبتة على نفس هذا الحصان الذي يمتطيه ، كما يتبين .
من السرج الملوث بالدماء .

٣٩٣ — وكان في الجيش رجل باسل جداً اسمه جمس القشتالي أسقف
سواسون شاهد رجالنا وهم آخذون في الارتداد نحو دمياط ، فلم تعد به ثمت .
رغبة في العودة إلى الأرض التي ولد بها ، وحملته لهفته على ملاقة الرب إلى
ضرب خاصرتي جواده بمهمازه ، وكر وحيداً على الترك الذين تناوشته سيوفهم
قتلاً ، فهدوا له السبيل لمرافقة الرب ليدرج بين عداد الشهداء .

٣٩٤ — وبينما كان الملك ينتظر أن يسدد رجاله المبلغ المتفق عليه .
لإطلاق سراح أخيه كونت دي بواتييه جاء إلى الملك مسلم غرانق في أحسن
كسوة ، وقدم إليه لبناً في جرار وزهوراً مختلفة الألوان والأنواع هدية من
أبناء الناصر^(١) Nasac الذي كان سلطان مصر ، وقدم إليه هذه الأشياء ،
وكان هذا المسلم يتكلم الفرنسية .

٣٩٥ — حينذاك سأله الملك أين تعلم الفرنسية ، فذكر أنه كان في سابق
عهده نصرانيا ، فقال له الملك « أغرب عني فلن أتحدث إليك » . فانتحيت
به جانبا وسألته عن خبره فأنبأني أنه من مواليد منطقة بروفنس ، ثم قدم إلى
مصر في صحبة الملك حنا وتزوج بها وأصبح من كبار رجالها ، فقلت له :

(١) هكذا في الأصل وكذلك في الترجمة الفرنسية ، أما جونز (ص ٤٥٨) فقد ترجها
The Nasac of the Sultan على حين أن جوانفل قال في الأصل Par les enfans le
Nasac وربما كان المقصود بذلك الملك الناصر داود الذي سمي نفسه بسلطان مصر .

ألا تعرف جيداً أنك لومت على هذا الوضع فإنك ستكون ملعوناً ويكون
الجميع مثواك؟» .

٣٩٦ — ولما كان مؤمناً تمام الإيمان بأن ليس هناك من دين أحسن من
النصرانية فقد أجابني بقوله : « بلى ولكنى لا أستطيع مجابهة الفقر الذى لا بد
أن أعيش فيه والمعرة التى أعانيها لوعدت إليكم ، فستقولون عني كما رأيتموني :
« انظروا هذا العليج » . لذلك فإننى أفضل الحياة هنا فى ثراء وراحة على أن
أضع نفسى فى مثل هذا الموقف الذى أتوقعه » .

فأخبرته بأن العار الذى سيكابدّه يوم الحساب — حين تتضح خطيئته
أمام الجميع — سيكون أكبر من العار الذى يتحدث عنه ، وشجعتة بكثير
من الكلمات المشجعة لكنها لم تجد معه نفعا ، ومن ثم تركنى ولم أره بعد
ذلك أبداً .

...

آلام للملكة بدمياط

٣٩٧ — لقد سمعت فيما ذكرت آثفا عن الخطوب الكبار التى تحملناها
نحن والملك والى لم تكن الملكة ذاتها بمنجاة منها كما سنسمع حالا ، فقد
جاءها خبر أسر الملك قبل اعتكافها فى الفراش بثلاثة أيام ، فأفزعا النبأ
فزعاً كان يخيل إليها معه وهى نائمة أن الغرفة غاصّة بالمسلمين فتصرخ « النجدة !
النجدة ! » .

وخافت أن يؤدى ذلك إلى موت الجنين فى بطنها ، فاستقدمت فارساً
كهلاً فى الثمانين من عمره ينام على مقربة من سريرها ويمسك راحتها ، فكانت

كلما صرخت فازعة هتف بها « لا تنزعجى يامولاتى فأنا هنا » .

٣٩٨ — وكانت قبل انكفائها إلى فراشها تأمر بإخلاء حجرتها من كل من بها سوى هذا الفارس ، ثم تركع أمامه ملتزمة منه أداء خدمة لها ، فيقبل الفارس ويقسم لها اليمين على ذلك وتقول له « أتوسل إليك بحق العهد الذى قطعته لى الآن أن تبادر إلى قطع رأسى — إذا دخل المسلمون المدينة — قبل وقوعى فى أيديهم » . فيرد عليها الفارس « كوني واثقة أننى سأفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، لأننى مصمم كل التصميم على قتلك قبل أن يأخذوك » .

٣٩٩ — وضعت الملكة طفلاً اسمه جون^(١) ونعتوه بالحزين Tristan بسبب الألم الكبير والحزن العظيم اللذين كانا عند ولادته ، وقد حدث فى نفس يوم الوضع أن أخبرها البعض باعتزام البيازنة والجنوية وأهل المدن الحرة الأخرى الفرار ، فلما كان اليوم التالى استدعتهم جميعاً إليها بجوار فراشها حتى غصت بهم الحجرة وقالت لهم : « أيها السادة ، أتوسل إليكم بحق الله ألا تغادروا هذه المدينة ، لأنكم ترون أن فى ضياع هذه المدينة ضياعاً نهائياً للملك وجميع من أخذوه أسيراً معه ، فإذا لم يحرك هذا منكم ساكناً فاستشعروا الرحمة بهذه المخلوقة البائسة الفقيرة المسجاة هنا وترثوا حتى أبل من مرضى » .

٤٠٠ — فأجابوها « وماذا نفعل يامولاتنا ؟ إننا سنموت جوعاً فى هذه المدينة ؟ » فأخبرتهم ألا يجعلوا المجاعة سبباً فى مغادرتهم إياها ، « لأننى سأمر ببشرائى كل ما فى المدينة من طعام ، وسأعينكم جميعاً على نفقة الملك » .

فتشاوروا فيما بينهم ثم عادوا إليها قائلين لها إنهم ارتضوا البقاء ، وإذا

(١) هو الذى بات بتونس عام ١٢٧٠ وهو فى العشرين من عمره .

ذلك أمرت الملكة عليها رحمة الله بشراء كل ما في المدينة من طعام بمبلغ ثلاثمائة وستين ألف جنيه أو يزيد ، غير أنه قدر لها أن تغادر فراشها قبل الأجل المضروب بسبب اضطرار المدينة للتسليم للمسلمين ، فرحلت الملكة إلى عكا في انتظار الملك .

...

سفر الملك إلى عكا

٤٠١ — بينما^(١) كان الملك في انتظار إطلاق سراح أخيه بعث بالأخ راؤل — وهو أحد الإخوان المبشرين — إلى أمير من الأمراء اسمه فارس الدين أقطاي وهو من أخلص من رأيت من المسلمين ، مخبراً إياه كيف أنه عجب كل العجب من أن ينقض هو وغيره من الأمراء الاتفاق المبرم بينهم وبينه حين عمدوا إلى قتل الرضى الذين كانت حمايتهم إياهم فرضاً عليهم ، وكيف أنهم اتخذوا من الآلات الحربية قامة ، وكيف أخرجوا الرضى واللحم المملحة التي تعهدوا بحفظها .

٤٠٢ — فرد فارس الدين أقطاي على الأخ راؤل قائلاً « أيها الأخ راؤل: خبر الملك أن ديني يحول بيني وبين مساعدته في هذه المسألة الشديدة الوقع على نفسى ، وخبره أيضاً عن لسانى ألا يبدى أى مظهر من مظاهر عدم الرضاء طالما هو فى أيدينا ، لأن ذلك يؤدى به إلى الموت » .

وكان من رأى الأمير أن يعاود الملك هذا الطلب بعد وصوله إلى عكا .

(١) الخبر من هذه الكلمة حتى نهاية فقرة ٤٠٢ غير وارد فى جوتز .

٤٠٣ — ولما^(١) جاء الملك إلى السفينة وجد أن جماعته لم يهيئوا له شيئاً من الطعام أو الملابس ، ومن ثم كان عليه أن ينام — حتى وصولنا إلى عكا — على الحشايا التي أعطاها له السلطان ، وأن يلبس ما كان السلطان قد أمر بتجهيزه له وإمداده به ، وكانت هنا الملابس من الساتان الأسود المخطط وفراء السنجاب الأغبر وكمية كبيرة جداً من الأزرار المصنوعة من الذهب الخالص .

٤٠٤ — بقيت إلى جوار الملك الأيام الستة التي قضيناها بالبحر رغم ما كنت أعانيه من وعكة ، ولقد أخبرني حينذاك عن كيفية أسره وكيف استطاع بمعونة الرب مفاوضتهم في صدد الفدية المطلوبة لنفسه ولنا .

ثم طلب إلى أن أذكر له كيف أسرونا على سطح الماء [وكيف أنقذني أحد المسلمين من الموت^(٢)] ، فلما سمع ذلك أخبرني أنني مدين بالشكر الجزيل لسيدنا ، إذ خلصني من هذه الأخطار الجسيمة .

كما أنه حزن حزناً شديداً على أخيه كونت دارتوا الذي لم يكن ليأبى القدوم لرؤيته كما فعل كونت بواتييه ، وأنه كان بلا شك مستعداً لرؤيته على ظهر مراكبه .

٤٠٥ — كذلك اشتكى لي من كونت دانبجو الذي كان على ظهر السفينة لأن الكونت لم يرافقه أبداً . ولقد حدث ذات يوم أن سأل عما

(١) ورد هذا الخبر في جوائز على الصورة التالية « وعلى الرغم من أن الملك قد قاسى شتى ضروب الآلام إلا أنه حين أصبح بالسفينة وجد أن خدمه لم يهيئوا له أى ترتيبات بها مما يحتاجه كالتياب والفرش والغطاء » .

(٢) الإضافة من جوائز ، ص ٤٦٠ .

يفعله كونت دأنجو فأخبروه أنه يلعب الورق على المائدة مع وولتر دى نيمور،
فذهب إليهم وهو يدب على الأرض لشدة ما به من الضعف بسبب المرض،
وقذف إلى اليمِّ بما أمامهم من زهر اللعب وموائده، غير أن خسارة دى نيمور
كانت أكبر من خسارة الكونت لأن الملك أتبع ذلك بإلقائه كل ما على
المائدة من النقود.

واشتد غضبه على أخيه لأنه كان منهمكا في لعب الميسر [ولأنه^(١) لم
يكن يفكر إلا في إدخال المسرة على نفسه بالمقامرة، مقنasia موت أخيه
كونت دارتوا، والأخطار الجسيمة التي خلصهم الرب منها].

...

متاعب جواناتيل بعكا

٤٠٦ — سأخبرك هنا عن كثير من البلايا والأهوال التي لقيتها في عكا
التي خلصني منها الرب الذي كنت ولا زلت أضع ثقتي فيه، وسأروى فيما
يلي هذه المشاق حتى يتوكل على الرب من ألمت بهم هذه البلايا ويشقوا بمساعدة
الرب إياهم كما ساعدني.

٤٠٧ — ودعنا نقص خبرها الآن، ذلك أنه حينما جاء الملك إلى عكا
قدمت إلى شاطئ البحر مراكب جميع رجال الدين وأهل عكا الذين خرجوا
لاستقباله فرحين أشد الفرح، وجاءوني بجواد صغير لم أكد أمتطيه حتى
خفق قلبي وقلت لمن أحضره أن يمسكني خوف الوقوع. ثم أخذوني ولقوا

(١) الإضافة من جونز، ص ٤٦٠

كثيراً من المشقة في إصعادي درجات قاعة الملك حيث ذهبت وجلست إلى إحدى النوافذ ، وعلى مقربة مني طفل في حوالى العاشرة من عمره اسمه بارتاميو ، وكانت أمه أم ولد للورد أمى دي مونتبلير de Montbeliard صاحب مونت فوكون Montfaucon .

٤٠٨ — وبينما أنا في مجلسي هذا وليس من أحد يرعاني جاءني خادم في قميص أحمر ومعه سوطان أصفران فحياني ، وسألني عما إذا كنت أعرفه فأجبته نفياً ، فذكر لي أنه قادم من Oiselay قلعة عمى ، فسألته لمن ولاؤه ، فذكر أن ليس له من سيد وأنه سيبقى معي إذا رغبت في ذلك ، فرحبت به كل الترحيب ، فذهب باحثاً لي عن شعر أبيض مستعار ومشطني جيداً .

٤٠٩ — ثم بعث الملك في طلبي لا كل معه فذهبت إليه مرتدياً القميص الذي كنت ألبسه زمن وقوعي في الأسر .

٤١٠ — ثم جاءني تابعي الجديد وأخبرني أنه ^(١) تمكن من إيجاد منزل آوى إليه قريب من الحمامات حيث أستطيع إزالة ما علق بي من الأوساخ وما تراكم من العرق أثناء وجودي في الأسر ، فلما أقبل الليل دخلت الحمام فاعترائني هبوط في القلب وإغماء ، فأخذوني في مشقة كبيرة من الحمام وسجّوني في فراشي .

فلما كان اليوم التالي قدم لعيادتي فارس كهل اسمه بطرس دي بوربون ، فأبقيته إلى جوارى ، فكان كفيلي في المدينة فيما احتجته من ملابس ومعدات أخرى .

(١) رواية نسخة جونز ، ص ٤٦٣ صريحة في أن أسقف عكا هو الذي رتب لجوانفيل هذا المكان ليقم فيه أثناء وجوده بعكا .

٤١١ — ولما أخذت زينتي بعد أربعة أيام كاملة من قدومنا إلى هناك ذهبت لرؤية الملك، فلامني قائلاً إنني لم أحسن صنعاً لتأخري طوال هذه الفترة عن الذهاب إليه ، وأمرني — إظهاراً لحبه — أن آكل معه كل يوم في الصباح والمساء حتى يقرر ما ينبغي علينا عمله من الذهاب إلى فرنسا أو البقاء حيث نحن .

٤١٢ — فأخبرت^(١) الملك أن سيدى بطرس دى كورتني Courtney مدين لى بأربعمائة دينار من أجرى وأنه يأبى دفعها لى ، فأجابنى الملك بأنه سوف يأمر حالا بدفع هذا المبلغ من المال الذى فى ذمته للسيد كورتني ، وتم ذلك فعلا ، وانصعنا لنصيحة بطرس دى بوربون فأخذنا أربعين دينارا نفقة لنا، أما الباقي فقد أودعناه أمانة عند المشرف على دير الداوية، حتى إذا تم إنفاق الأربعين ديناراً بعثت بالأب جون كايم دى سانت ميتهولد (الذى استخدمته عندى فيما وراء البحار) ليحضر لى أربعين أخرى ، فأنكر مشرف بيت الداوية أننى استودعته شيئاً ، وأنكر معرفته بى .

٤١٣ — فذهبت من ثم إلى الأخ رينو دى فينشيه الذى أصبح رئيس فرسان المعبد بفضل مساعدة الملك إياه وبفضل رعايته الملك وقت أمره ، وشكوت إليه أمر مشرف حصنه الذى أبى أن يرد إلى مالى الذى استودعته إياه، فقال لى «ياسيد جواناتيل ، أنت تعلم أننى أحبك كثيراً ، لكن ثقتى أننى لن أحبك إذا لم تكف عن إثارة هذه القضية لأنك تريد أن تدخل فى اعتقاد الناس أن إخواننا الفرشان الداوية لصوص » .

فأخبرته أننى لن أكف عن هذه القضية بعون الله .

(١) الفقرات ٤١٢ — ٤١٤ غير واردة فى نسخة جونز .

٤١٤ — أقيمت أربعة أيام أعانى ألم القلب شأن من لا مال عنده للصرف
فلما انصرفت هذه الأيام الأربعة جاءني كبير الداوية ضاحكاً وقال إنه وجد
نقودي .

أما كيف وجدوها فقد بدّلوا المشرف على الحصن وأرسله إلى قرية اسمها
سيفوري ، وبذلك أعاد لي هذا الرجل مالى .

• • •

مرض جوانثيل وكرم كونت أنجو

٤١٥ — أمر أسقف عكا — وكان من أهالى بروفس — أن يؤجر لي
بيت قسيس سنت ميشيل ، وكنت قد أبقيت في خدمتي كايم دى سانت مينهولد
الذى ظل يخدمنى في أمانة مدى عامين أحسن من أى تابع آخر لي خارج فرنسا ،
و كنت قد اصطنعت في خدمتي كثيراً من الناس .

وكان عند رأس فراشى مقصورة تؤدي إلى الكنيسة ، وحدث أن اعترتني كما
اعترت جميع رجالى ، حمى دائمة فمضوا بي إلى فراشى ؛ ولم يكن عندي أحد في
أثناء مرضى يقوم على خدمتي أو يساعدنى على النهوض من فراشى فلم أكن
أتوقع غير الموت ، وذلك من جراء التخدير الذى كان يرن في أذنى حيث كانوا
يحضرون إلى الكنيسة كل يوم عشرين ميتاً أو يزيد ، وكنت أسمع في كل
مرة . وأنا في فراشى هذه الأنشودة Libera me, Domine فأبكي وأرفع
شكرى لله وأخاطبه قائلاً :

« أيها الرب ، أرفع إليك عبادتى لهذا الألم الذى تذكرتنى به في يقظتى
ورقودى ، وأتوسل إليك أيها الرب أن تخلصنى منه » .

وهكذا استجاب الرب لفخصتي أنا ورجالي . .

٤١٧ — التمسيت بعدئذ من جيليمين — تابعي الجديد — أن يقدم لي كشف الحساب ففعل ، فوجدت أنه خدعني في مبلغ قارب عشرة آلاف توري أو أكثر ، فلما طالبت بها قال : نظرة إلى ميسرة . ففصلته من خدمتي وأخبرته أنني متنازل له عما في ذمته لي لأنه يستحق ذلك المبلغ .

ثم علمت بعدئذ من فرسان برجنديا بعد عودتهم من الأسر أنه كان أظرف لص شاهدوه ، ذلك أن الفارس كان إذا احتاج إلى سكين أو سرج أو قفاز أو مهماز أو أى شيء آخر ذهب جيليمين وسرقه وأعطاه إياه .

٤١٨ — وفي الوقت الذي كان الملك في عكا أخذ إخوته أنفسهم بلعب الميسر ؛ وكان كونت بواتييه كريماً في لعبه ، فكان إذا ربح أمر بفتح الحجرة ودعوة السادة إليها وكذلك السيدات — إن وجدن — وأغدق عليهم من نقوده ومما كسب .

أما إذا خسر فإنه يشتري نقود من يلاعبه سواء أكان هذا أخاه كونت أنجوا أم غيره ، ثم يوزع ما معه سواء من نقوده أم نقود الآخرين .

مناقشة عودة الملك

٤١٩ — في أثناء وجودنا بعكا أرسل الملك في أحد أيام الأحاد في استدعاء أخويه وكونت فلاندر^(١) وكبار الرجال الآخرين وقال لهم « أيها السادة

(١) . الوارد في نسخة جونز ، ص ٤٦٣ ، أن الملك بعث في استدعاء « إخوته وبقية النبلاء » دون ذكر لكونت فلاندر مما يؤكد أنه لم يكن بها إذ ذاك . راجع المقدمة . وكذلك فقرة ٣٧٩ .

لقد بعثت لى سيدتى الملكة الوالدة^(١) تلح على أن أعود إلى فرنسا لما هو حائق بمملكتى من خطر كبير من جراء عدم إبرام الصلح أو عقد الهدنة بينى وبين ملك إنجلترا .

وقد أخبرنى أهالى هذا البلد ممن حادثهم فى هذا الصدد أن مغادرتى إياه سترتب عليها ضياع كل هذه النواحي إذ سينهج نهجى كل من بعكا ، ولن يجروا أحد على البقاء بها لعدم وجود قوة كافية للدفاع عنها ، لذلك ألتمس منكم أن تتدبروا هذه المسألة غاية التدبر لما لها من أهمية بالغة ، ثم تعودوا إلى بعد ثمانية أيام من يومنا هذا لموافاتى برأيكم فيما تعتقدونه صالحاً .

٤٢٠ — وفى خلال^(٢) هذه الأيام الثمانية جاءنى القاصد الرسولى وقال إنه لا يدرك كيف يستطيع الملك البقاء حيث هو ، ثم ألح على أن أعود معه فى الحال فى سفينته ، فأخبرته بخروج هذا الأمر عن قدرتى ، فلم أعد أملك شيئاً بعد أن ألقيت فى النهر — كما علمت — كل ما كان فى حوزتى حين أسرنى المسلمون .

٤٢١ — وقد أجبته بذلك لا عن كراهية منى للذهاب معه ، بل من جراء عبارة قالها سيدى دى بورليمونت Bourlemont ابن خالتى رحمه الله وأنا ماض إلى الأرض المقدسة ، حيث قال « أنت ذاهب الآن إلى ما وراء البحار فتدبر أمر عودتك ، لأنه مامن فارس — فقيراً كان أم غنياً — يستطيع العودة دون أن يدنس شرفه إذا ما خلف وراءه فى أيدي المسلمين من هم أقل منه من شعب الرب ممن ذهبوا فى صحبته » .

(١) يستفاد من رواية جوتز ص ٤٦٣ أن لويس ذاته هو الذى رأى أن الظروف تحتم عليه العودة إلى فرنسا ، وهذا خطأ تاريخى .

(٢) لم ترد الفقرتان ٤٢٠ ، ٤٢١ فى نسخة جوتز ، شرحه .

فغضب القاصد الرسولى منى وأخبرنى أنه ما كان ينبغى على أن أرفض
اقتراحه .

• • •

تباين الآراء وتمسك جواناتيل بالبقاء

٤٢٢ — مثلنا يوم الأحد التالى مرة أخرى فى حضرة الملك الذى^(١) سأل
إخوته والبارونات الآخرين وكونت فلاندرز الرأى الذى اتفقوا عليه بشأن
العودة إلى فرنسا أو البقاء حيث هم ، فأجابوه أنهم وكلوا إلى السيد جى
دى موفوازان أن يقرر له صورة النصيحة التى يريدون إسداءها إلى الملك .

وإذ ذاك أمر الملك جى دى موفوازان أن يفضى إليه بها فقال له .

٤٢٣ — « مولاي ، لقد تدبر إخوتك وكبار رجالك الحاضرون هنا
وضعك ، ورأوا ألا جدوى تعود عليك من بقاءك فى هذه البلاد ولا نفع
لمملككتك ، إذ لم يبق معك فى هذه المدينة غير مائة فارس فقط من جميع
فرسانك الذين قدموا صحبتك ، مع أنك سرت إلى قبرص على رأس ألفين
وثمانى مائة منهم ، ولذلك فإننا نمحضك النصيح يا مولاي أن تعود إلى فرنسا
وأن تدبر المال والرجال ، ثم تعود على جناح السرعة إلى هذه البلاد ، وتنتقم من
أعداء الرب الذين أخذوك من قبل أسيراً » .

٤٢٤ — غير أن الملك لم تطب نفسه بما قاله جى دى موفوازان ، فراح
يسأل كونت أنجو وكونت بواتييه وكونت فلاندر وكثيرين غيرهم من كبار

(١) الجملة من هنا حتى عبارة « حيث هم » فى السطر بعد التالى غير واردة فى
جونز ، ص ٤٦٣ .

رجالاته الجالسين على مقربة منهم أن يطالعوه بأرائهم ، فاتفقوا جميعاً على ما قاله
لورد جى دى موفوازان .

وإذ ذاك سأل القاصد الرسول كونت جون دى يافا - وكان جالسا خلفهم -
عما يرى ، فالتمس منه كونت يافا إعفاءه من الإجابة على هذا السؤال قائلاً « إن
قلعتى واقعة على الحدود ، فإذا نصحت الملك بالبقاء ظن القوم أننى فعلتُ ذلك
إيثاراً لمصالحى الذاتية » .

٤٢٥ - - - - - وحينذاك سأله الملك أن يقول ما يراه ، فقال الكونت « إذا
استطاع الملك البقاء هنا مدة عام واحد كان ذلك أجدى عليه » ، وحينذاك سأل
القاصد الرسول من كانوا جالسين مع كونت يافا ، فاتفق رأيهم جميعاً على
ما قاله السيد جى دى موفوازان .

٢٤٦ - - - - - وكان ترتيبى الرابع عشر ، وكنت جالسا فى مواجهة القاصد
الرسولى ، فسألنى ماذا أرى ، فأجبتة أننى متفق مع كونت يافا ، ثم سألنى القاصد
الرسولى فى غضب كيف يستطيع الملك أن يبقى فى مثل هذا العدد الضئيل من
الرجال ؟ فحسبته قد تعمد إغضابى بما قال ، فأجبتة فى عنف : « سيدى ، سوف
أخبرك ما دامت هذه هى رغبتك » .

٤٢٧ - - - - - « يقال يا سيدى - وإن كنت لا أدري مكانة الصديق فى هذا
القول - إن الملك لم يصرف بعد شيئاً من أمواله ^(١) ، ولكنه صرف أموال
رجال الدين ، لذلك فلندع الملك ينفق من أمواله ، ولندعه يرسل فى استقدام الفرسان .

(١) هذا يؤيد رواية النسخة التى ترجم عنها جونز ص ٤٦٣ حيث ورد أن من بين
الأسباب التى تذرع بها جى دى موفوازان لصرف الملك عن البقاء فى عكا عدم توفر الأموال
فى يدى الملك ، راجع أيضاً Grousset : Hist. des Croisades, t., III, p.495

من المورة Morea ومن وراء البحار ، وحيثما يسمعون أن الملك سوف يؤجرهم
أجرا كبيرا فإنهم سيفقدون عاليه من جميع النواحي ، وإذ ذاك يستطيع بواسطتهم
وبمشيئة الرب الصمود مدة عام يتمكن خلاله من تخليص الأسرى الفقراء الذين
ضحوافى سبيل الرب وفى سبيل خدمة الملك ، والذين لن يتحرروا إذا
ما رحل .

ولم يكن بين الحاضرين من أحد إلا وله قريب أو صديق فى رتبة
الأسر ، ومن ثم لم يلمنى أحدا ما ، بل شرع الجميع فى البكاء .

٤٢٨ - بعد أن فرغت من كلمتى عاج القاصد الرسول بالسؤال على ونيم
لورد بيمونت الذى كان إذ ذاك مارشال فرنسا ، يستفسره عن رأيه ، فذكر أننى
تكلمت حقا ثم قال « سأخبرك عن السبب » .

وحيث ذاك نهض عمه سيدي لورد بيمونت Beaumont الفارس الطيب
وكان شديد اللهفة على العودة إلى فرنسا ، فصاح به منتهرا إياه وراح بنعته بالحق
والغباء وقال له : « ماذا لديك من قول تريد قوله يا قذر اللسان ، ألا فاجلس
مكانك والزم الصمت » .

٤٢٩ - فقال الملك : « يا سيدي جون لقد اخطأت ، دعه يتكلم »

فأجابه : « محال يا مولاي لن أفعل ذلك » .

ومع ذلك فإن المارشال رأى الخير فى الصمت ، ولم يعد ثمت أحد يتفق
معى فى رأي غير لورد شاتنى .

وحيث ذاك قال الملك « أيها السادة ، لقد استمعت إليكم كما ينبغي وسأخبركم
بالجواب الذى أرتضيه بعد ثمانية أيام من يومنا هذا » .

. . .

لوم جوانفيل ومقابلته السرية مع الملك

٤٣٠ — عندما خرجنا من هذا الاجتماع أخذ القوم أفي التهم على ولوى من كل النواحي قائلين « يا جوانفيل إن لم يأخذ الملك برأيك ويؤثره على مجلس جميع مملكة فرنسا فلا بد أن تكون به لوثة حنون » .

فلما نصبت الموائد أجلسنى الملك إلى جواره أثناء تناول الطعام حيث اعتاد دائماً أن يجلسنى فى غياب إخوته ؛ ولم يخاطبني بينت شفة طيلة تناول الطعام على غير مألوف عادته ، لأنه كان يرعانى دائماً حينما نجلس إلى المائدة ، والواقع أن الظن ذهب بى مذهبا خلت معه أنه غاضب على لما قلته من أنه لم ينفق بعد شيئاً من أمواله ، وأنه يتحتم عليه الإنفاق بسخاء .

٤٣١ — وبينما كان الملك يستمع إلى صلاة المائدة ذهبت إلى نافذة عند سريره وأخرجت يدي من قضبانها الحديدية ، ورحت أفكر إذا رجع الملك إلى فرنسا فلا بد لى من أن أذهب إلى أمير أنطاكية^(١) الذى يعدنى من أقاربه ، وكان قد بعث إلى يسألنى الشخوص إليه والمقام عنده حتى يحين موعد حملة أخرى تواتيها الفرصة لإطلاق سراح الأسرى ، نفاذاً للمشورة التى أسدانيها لورد بولينكورت Boulaincourt .

٤٣٢ — وبينما كنت فى مكانى هذا إذا بالملك قد قدم واتسكأ على كتفى ووضع يديه فوق رأسى ، فحسبته فيليب دى نيمور Nemours الذى

(١) هو يوهيمند الخامس أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، والواقع أن حكمه فى أنطاكية كان حكماً سورياً ، هذا إلى أنه كان شديد التعلق بالكنيسة ، وقد كانت وفاته عام ١٢٦١ راجع Rey: Histoire des Princes d'Antioche, p. 400 seq

اشتد في إيدائي هذا اليوم بسبب النصيحة التي ذكرتها ، ومن ثم قلت :
« اتركني في هدوء ياسيدي لورد فيليب » .

وحدث بالصدفة أن أدركت رأسي فوقعت يد الملك على وجهي فعرفت أنه
هو الملك بسبب وجود حجر زمردى في إصبعه ، فقال « إلزم هدوءك لأنني
أريد أن أسألك كيف تأتت لك أن تبلغ هذا الحد من الجرأة ، أنت يا من لم تجاوز
بعد شرح الشباب فتعصى لتنصحنى بالبقاء هنا ، رغم نصيحة جميع كبار رجالات
فرنسا وعقلائها الذين أشاروا عليّ بالرحيل ؟ » .

٤٣٣ — فقلت له : « مولاي ، لو أن في قلبي ذرة من الشر لما نصحتك » ،
فأجابني « هل تقصد أن تقول إنني أخطيء لو رحلت ؟ » ، فقلت له « ليساعدني
الرب ، أجل يا مولاي ! » :

فسألني : « هل تبقى أنت أيضاً لو بقيت أنا ؟ »

فقلت له « أجل إذا استطعت على نفقتي أو على نفقة أحد آخر » . فأجابني
« لتطمئن نفسك لأنني جد مسرور منك من أجل الرأي الذي ذكرته ،
ولكن لا تخبر أحداً بذلك حتى ينصرم الأسبوع » .

٢٣٤ — فغمرتني ^(١) الطمانينة أكثر من قبل حين سمعت هذه الكلمات
وأخذت أدافع عن نفسي بجرأة أكبر ضد أولئك الذين هاجموني ، وكان
فلاحو هذه البلاد يسمون بالمولدين ^(٢) Poulains ، وقد قال السيد بطرس

(١) في نسخة جونز ، ص ٤٦٥ « غمرتني السرور طوله هذا الأسبوع من جراء

ما سمعته منه » .

(٢) جاء في تعريف الـ Poulains أنه طفل نتاج زواج فرنسي من مسيحية في سورية =

دى أفالون Avallon الذى كان يعيش فى صور إنه سمع البعض يدعى أنتى من جماعة المولدين المهجنين لأنتى نصحت المالك بالبقاء بين هؤلاء المهجنين ، لذلك أرسل بطرس دى أفالون إلى " يطلب منى أن أقوم بالدفاع عن نفسى ضد أولئك الذين سمونى بالعلاج، وأن أقول لهم إننى أوتر أن أسمى مهجنًا من أن أتخلى عن الميدان كما فعلوا هم أنفسهم .

• • •

الملك يقرر البقاء

٤٣٥ — فلما كان يوم الأحد التالى عدنا جميعاً إلى الملك وإذا رأى الشمل مكتملاً رسم علامة الصليب على فمه ، ولعله فعل ذلك إلتماساً لمساعدة الروح القدس، لأن سيدتى الأم قالت لى إنه ينبغى على أن التمس عون الروح القدس. وأن أرسم علامة الصليب المقدس فوق فمى كلما هممت بالكلام .

٤٣٦ — ثم تسكلم الملك فقال « أيها السادة ، أشكر شكراً جزيلاً أولئك الذين نصحنى بالعودة إلى فرنسا ، كما أشكر أيضاً من أشاروا على بالبقاء هنا ، وقد حدثنى نفسى أنتى لو بقيت هنا فلن يكون ثم خطر على مملكتى ، لأن سيدتى الملكة^(٢) عندها الكثيرون للدفاع عن مملكتى ، وقد تدبرت ما قاله

Enfant né de mariage d'un Franc et d'une femme indigène =
Chretienne en Syrie (cf. Lexique de l'ancien Français, art. Poulin)
وقد جاء فى تعليق جونز (ص ٤٦٦ حاشيه رقم ١) لترجمته للمذكرات أنه الطفل المولود من أم أوريسية وأب شامى ، على أن النص الذى جاء به لا يتفق مع ما ذكره بل على التعريف الذى ترجمناه فى أول هذه الحاشية وفيه يقول Pulaine dicuntor, qui de
patre Syriano et matre Francigena generantur ».

(١) يقصد بذلك أمه الملكة بلاش التى كانت تدبر الملكة أثناء غيابه فى مصر والشام.

بارونات هذه البلاد من ضياع مملكة بيت المقدس المحتم لو أننى غادرت هذه البقعة التى لن يجرؤ على البقاء بها أحد بعد مغادرتى إياها .

٤٣٧ — « لكل هذا عزمت عزماً أكيداً على ألا أبرح مملكة بيت المقدس بأى حال من الأحوال وهى المملكة التى جئت لحمايتها وإعادة فتحها ، وقد صدق منى العزم على البقاء هنا فى الوقت الحاضر ، لذلك أقول لكم جميعاً — أنتم يا كبار الرجال الموجودين هنا — أن من أراد البقاء معى فليأت لى ذاكراً . رغبته هذه ، وسأنفق عليكم عن سعة حتى لا تكون لكم حجة على ، ويكون العيب عيبكم إن رفضتم البقاء » .

فامتلاً الكثيرون ممن سمعوا قوله عجباً ، وبكى كثير من الحاضرين .

لويس يرسل أخويه ويستبقى جوائنثيل

٤٣٨ — أمر الملك — كما قيل — بوجوب عودة إخوته إلى فرنسا ، ولست أدرى إذا كان ذلك بناءً على التماسهم هم أنفسهم أم هى مشيئة الملك الذى قال ما قال بشأن بقائه فيما وراء البحار قرابة عيد القديس يوحنا (١) .

وحدث فى يوم الاحتفال بعيد القديس جيمس — وكنت من حجّاجه وكانت له أيادى كريمة جمّة على — أن عاد الملك إلى حجرته التى أقيم فيها قداسه ، وجمع مجلسه المؤلف من بقى معه وأعنى بهم السيد بطرس كاتم سره الذى كان أخلص من رأيت له وأشد أفراد حاشيته استقامة ، ثم السيد جوفرى دى سارجين Sargines الفارس الطيب والرجل الفاضل ، ثم السيد جيل

(١) وذلك يوم ٢٥ يوليو ١٢٥٠ .

لى برون Brun الفارس الطيب والرجل الفاضل الذى خلع الملك عليه
كونستابلية فرنسا بعد موت الفاضل إيمبرت دى بيجو Imbert de Bejeu .

٤٣٩ — تكلم الملك إلى هؤلاء فى صوت منخفض فيه رنة الغضب
فقال : « أيها السادة ، لقد مضى الآن شهر منذ أن عرف الناس أننى اعتزمت
البقاء هنا ، ولم أسمع أنكم استبقيتم أى فرسان فى خدمتى » .

فقالوا له « لقد عجزنا يا مولانا عن حملهم على ماتطلب ، لأنهم جميعاً يغالون
فى تقدير أجر خدمتهم وإلاّ عادوا إلى بلادهم ، مما لم نجرؤ معه على تقديم
ما يطلبون » .

فقال الملك « ومن تظنون أنكم قادرون على استخدامه ؟ » .
فأجابوه « الحق نقول ، إنه سنسكال شميانيا ولكننا لا نستطيع إعطاءه
ما يريد » .

٤٤٠ — كنت فى هذه اللحظة فى حجرة الملك وسمعت هذا الحديث^(١) ،
فقال الملك : « ادعوا إلى السنكال » . فذهبت إليه وركعت أمامه فأتهضنى
على قدمي وقال :

« ياسنكال ، إنك تعرف أننى أحببك كثيراً ، وقد أخبرنى رجالى أنهم
وجدوك تطلب أجراً أكثر من سواك ، فكيف كان ذلك ؟ » .
فأجبتة : « مولاي ، إننى لا أستطيع غير هذا ، لأنك تعلم أننى وقعت
فى الأسر وأنا على سطح الماء فقدفت فى اليم بكل ما كنت أملكه » .

(١) جاء فى نسخة جونز (ص ٤٦٨) بعد هذه العبارة التالية التى تبين وقوف الجميع
ضد الملك « لقد أخبر المجلس الملك بكل تلك الأمور عنى لأننى نصحتهم بما لا يتفق ورأيهم إذ طلبت
إليه البقاء ، وبذلك حلت بينهم وبين العودة إلى فرنسا » .

فسألني عما أطلب فقلت إنني أطلب بألفي دينار حتى يحل عيد الفصح^(١)
لمدة ثلثي العام المتبقين .

٤٤١ — فقال لي «والآن خبرني ، هلاً حاولت مساومة أحد من الفرسان؟
فقلت له « بلى ، حاولت ذلك مع بطرس دي بونت مولان Pontmolain ثالث
فرسان ثلاثة من حملة الأعلام ، يكلف كل منهم أربعمائة دينار حتى يحل عيد
الفصح » فعّد الملك على أصابعه ثم قال : « إن فرسانك يكلفونك ألفاً
ومائتي دينار . »

فقلت له « وإني لمذكرك يامولاي أنني أنكلف ثمانمائة دينار أخرى
لشراء حصان وسلاح لي ولشراء طعام لفرساني ، لأنك^(٢) لن تسمح لنا
بالأكل في بيتك . »

فالتفت إلى رجاله وقال لهم . « الواقع أنني لا أجده مبالغاً فيما طلب ،
ثم استدار إلى قائلاً : « وإني لمحتفظ بخدماتك . »

...

رحيل أخيه ورسل فردريك وسُلطان دمشق

٤٤٢ — بعد ذلك أعدّ شقيقا الملك وكبار رجاله الذين بعكوا سفنهم
للرحيل الذي ما كاد يحين وقتبه حتى استعار كونت بواتييه مجوهرات من
أولئك الذين كانوا عائدِينَ إلى فرنسا ويذللها في سخاء مجاناً لمن تخلف منها بعكاً .

(١) يني بذلك عيد فصح ١٢٥١

(٢) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية الجملة غير وارد في جوتز .

والتمس مني كل من الإخوين أن أرعى الملك كل الرعاية ، وأخبراني أنهما لا يستطيعان الاعتماد على أحد ممن بقي معه مثل اعتمادهما عليّ .

ولما همّ كونت أنجو بركوب سفينته أظهر الحزن الشديد حتى عجبنا له جميعاً ، ومع ذلك فقد عاد إلى فرنسا .

٤٤٣ — لم يمض وقت طويل على رحيل إخوة الملك عن عكا حتى جاءه رسل من قبل الإمبراطور فردريك يحملون خطابات الاعتماد، ويقولون للملك إن الإمبراطور أوفدهم للعمل على إطلاق سراحنا ، وأطلعوا الملك على الكتب التي بعث بها الإمبراطور إلى السلطان الراحل الذي لم يعلم فردريك بعد بخبر موته ، ويطلب منه فيها أن يلقي سمعه إلى ما يقوله الرسل بشأن تخليص الملك، فقال البعض إنه لم يكن من الخير لنا أن يجذبنا الرسل في الأسر ، ظناً من هذا البعض أن الإمبراطور قد أوفد رسله لمضايقتنا أكثر من إنفاذه إياهم لإطلاق سراحنا ، وقد ألفنا الرسل أحراراً ومن ثم تابعوا مسيرهم .

٤٤٤ — وتلقى الملك أثناء إقامته في عكا رسلاً أنفذهم إليه سلطان دمشق، شاكياً إليه مرة الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه : وقطع السلطان عهداً على نفسه أن يُسلم الملك مملكة بيت المقدس التي بيده إن ساعده ضد ابن عمه ، فصمم الملك على أن يبعث بجوابه إلى سلطان دمشق على يد رسل من قبله أنفذهم إلى السلطان، وذهب معهم الأخ إيفيز Yives البريطاني من جماعة الإخوان المبشرين ، وكان يعرف اللسان العربي .

٤٤٥ — وبينما كانوا ذاهبين من محل إقامتهم^(١) إلى قصر السلطان

(١) في جونز ، ص ٤٦٩ «لأنهم كانوا ذاهبين من قصر السلطان إلى محل إقامتهم» .

رأى^(١) الأخ إيفيز امرأة عجوزاً تمرّ بالشارع وهي تحمل في يدها وعاءاً مملوءاً بالنار، وفي يدها قنينة مملوءة بالماء، فسألها الأخ إيفيز « ماذا تفعلين بهذين ؟ » فأجابته إنها اعتزمت أن تحرق الجنة بالنار حتى لا يبقى شيء ، وآلت أن تطفىء الجحيم بالماء حتى لا يبقى منها شيء ، فسألها « ولم تفعلين ذلك ؟ » فأجابته « لأنني لا أحب أن أعود فأرى أحداً يفعل الخير طمعاً في الجنة أو خشية من الجحيم ، ولكن يجب أن يعمل المرء الخير مرضاة للرب وحده القادر على أن نينا يعمل كل ما يراه حسناً » [والذي^(٢) أحبنا حباً شديداً حتى لاقى الموت لمنجاتنا ، وهو موت قضى به على نفسه دفعاً لخطيئته ارتكبها أبونا الأول آدم ونخلصنا] .

...

جون الأرمني صانع أسلحة الملك

٤٤٦ — في^(٣) هذا الوقت بالذات ذهب جون الأرمني — وكان صانع أسلحة الملك — إلى دمشق لشراء وعاء وغراء لصنع أقواس الحرب ، فرأى كهلاً شديداً العجز جالساً في سوق دمشق ، فناداه إليه وسأله عما إذا كان نصرانياً ، فردّ عليه بالإيجاب ، فقال له الشيخ الكهل « لا بد أنكم أيها المسيحيون تكرهون بعضكم بعضاً ، لأنني رأيت ذات مرة الملك بلدوين ملك بيت المقدس — وكان أبرص — أثناء محاربته صلاح الدين ، ولم يكن مع بلدوين سوى ثلثمائة

(١) في جونز ، شرحه أن ليفز قص بنفسه هذه القصة على جوائيل .

(٢) الإضافة من جونز ، شرحه .

(٣) الفقرات ٤٤٦ — ٤٥٠ غير واردة في نسخة جونز .

رجل مسلّحين على حين كان مع صلاح الدين ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكن
ها أنتم الآن قد صرتم في ضعف شديد من جراء خطاياكم حتى أصبحنا نتصيدكم
في ميادين القتال تصيد الوحوش .

٤٤٧ — وحينذاك قال جون الأرمني إنه من الخير له أن يسكت فيما يتعلق
بخطايا النصارى ، التى لا تعدّ شيئاً مذكوراً إلى ما يرتكبه المسلمون من المعاصى ،
فأجابه المسلم بأنه قد ردّ عليه رداً ينطوى على الغباء ، فسأله جون عن السبب
فقال إنه محجّب سؤاله ولكنه يريد قبل كل شيء أن يلقى عليه سؤالاً عما
إذا كان له ابن ؟ فردّ جون بالإيجاب فسأله أيهما أكثر إزعاجاً له : ضربة تأتيه
من ولده أم منه هو المسلم ؟ فقال جون إنه سيكون أشدّ غضباً من ابنه أكثر
من غضبه من المسلم لو فعل ذلك .

٤٤٨ — فقال المسلم « إذا سأجيبك عن سؤالك ، إنكم أيها المسيحيون
تعتبرون أنفسكم أبناء النصارى^(١) ، وأنكم تسمّون أنفسكم تبعاً لذلك
بالنصارى ، وهذا هو تفضّله عليكم إذا أمدّكم بمعلمين تستطيعون بواسطتهم
أن تدركوا ما فعلتموه من خير أو ما ارتكبتموه من شر ، ومن ثم كان غضب
الرب منكم لخطيئة تركبونها أشد من غضبه علينا لمعصية حتى ولو شأت
معصيتكم ، لأنه يدرك أننا ارتكبناها عن جهل وأنا عميان ، حتى أننا لنظن
أننا سنتحرّر من جميع ذنوبنا إذا ما اغتسلنا بالماء قبل دفننا ، لأنّ محمداً
(صلى الله عليه وسلم) أخبرنا أن الماء مطهر ناعند موتنا . »

٤٤٩ — وكان جون الأرمني ذات مرة في صحبتي بعد عودتي من الأرض

(١) أثرت ترجمة « الرب » هنا بكلمة النصارى ليستقيم التخريج المقصود من المتن .

المقدسة وكنت في طريقى إلى باريس ، وبينما نحن جالسون لتناول الطعام في القسطنطينية جاء جمع غفير من الفقراء يتوسلون من أجل خاطر الرب وأحدثوا جلبة كبيرة ، فبعث أحد رجالنا الموجودين خادمه قائلاً « أسرع أسرع واطرد هؤلاء الفقراء » .

٤٥٠ — وإذ ذاك قال جون الأرمني « لقد قلت أسوأ ما يمكن أن يقال ، فلو كان ملك فرنسا قد أرسل في هذه اللحظة بالذات إلى كل منا عن طريق رساله مائة مارك من الفضة لما طردناهم عن بابنا ، أما الآن فأنت تطرد هؤلاء الرسل الذين يقدمون أعظم ما يمكن تقديمه ، لأنهم يتوسلون إليك أن تمنحهم شيئاً في سبيل الله مما يعنى أنك سوف تعطيهم مما عندك ، وإزاء ذلك فإنهم يرون عطيتك ممثلة في الله ذاته ، لأن السيد قال بضمه « إن للفقراء قوة في إهدائنا هدية من الرب نفسه » ، ويقول القديسون إن الفقراء يستطيعون أن يوفقوا بيننا وبينه ، وكما يطفىء الماء النار كذلك تمحو الحسنه السيئه فلا تعد مرة أخرى أبداً إلى طرد الفقراء بل أعطيهم يعطك الله » .

.....

رسل شيخ الجبل وتهديداتهم

٤٥١ — بينما كان الملك مقيماً في عكا^(١) وفد عليه رسل شيخ الجبل^(٢) ، فلما عاد الملك من من قداسه بعث في استقدامهم إليه^(٣) وأجلسهم ، فكانوا على

(١) وردت العبارة التالية في جوتز بعد هذه الكلمة « وفد عليه رسل من قبل أمير البدو المعروف بشيخ الجبل » .

(٢) راجع فقرة رقم ٢٤٩ .

(٣) استفاد مما رواه Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyre,

R.H.C.Occ., t., II, p. 624 إن هذه الواقعة كانت في سنة ١٢٥٠ .

التحى التالى : جعل فى مقدمتهم أميراً حسن الوقار رفيع المكانة، ومن خلفه شاب أعزب يمسك بيده ثلاثة خناجر متداخل بعضها فى بعض ، والغرض منها أن يقدمها حاملها إلى الملك تحدياً له إن هو رفض مقترحات الأمير^(١) .

ووقف خلف الشاب الأعزب الذى يحمل الخناجر الثلاثة رجل آخر معه قطعة من قماش قد لفها حول ذراعه يقدمها للملك كفناً إذا رفض مطالب شيخ الجبل .

٤٥٢ — طلب الملك من الأمير أن يذكر له ما جاء من أجله ، فقَدَّم الأمير كتاب الشيخ إليه وقال له : « لقد بعثنى شيخى إليك سائلاً إياك عما إذا كنت تعرفه ؟ » فأجابه الملك بأنه لا يعرفه إذ لم يسبق له أبداً رؤيته ، ولكنه طالما سمع عنه ، فقال الأمير : « أما وقد سمعت عن شيخى فإننى لأعجب أشد العجب كيف لم تبعث إليه بكثير مما لديك لتبقى على صداقته لك كما فعل إمبراطور ألمانيا وملك الجرج وسلاطان مصر وغيرهم عاماً بعد عام ، لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم مطمئنون على حياتهم طالما هم متمتعون برضاء مولاي عليهم » .

٤٥٣ — « فاذا لم يَرُقْكَ أن تفعل هذا ، فأمر بإعفائه من الجزية التى يدفعها للاسبتارية والداوية ، وحينذاك ينصرف عنك » .

وكان شيخ الجبل يدفع فى ذلك الحين جزية للداوية والاسبتارية الذين كانوا لا يرهبون بأس الحشاشين لمعرفةهم ألا جدوى تعود على شيخ الجبل من موت كبير الداوية أو الاسبتارية ، أضف إلى ذلك أنه كان يدرك أنه لو أمر بقتل

(١) المقصود بالأمير هنا شيخ الاسماعيلية .

أجدهما فسيحل مكانه رجل آخر في مثل كفاءته ، ولذلك لم يكن راغباً في
التضحية برجاله الحشاشين في عمل لا نفع من ورائه .

فقال الملك للأمير إنه سيراه مرة أخرى بعد الظهيرة .

٤٥٤ — فلما عاد الأمير وجد الملك جالساً وعلى جانبه كبيراً الداوية
والاستتارية، وإذ ذاك طلب الملك من الأمير أن يقول بحضرتيهما ماقاله في الصباح،
فقال الأمير أن ليس في نيته تكرار ما سبق أن صرح به إلا في حضور من كانوا
في المجلس صباحاً وخدم دون غيرهم ، وإذ ذاك قال الأستاذان : « نأمرك بإعادة
ماقلته » .

فأجابهم بأنه معيد ماقاله صباحاً انصياعاً لأوامرها .

وإذ ذاك أمر الأستاذان المترجم أن يقول له باللسان العربي أن يأتي في الصباح
إلى بيت الاستتارية للتكلم معهما ، فاستجاب لهما .

٤٤٥ — فلما جاءوها في الصباح أمرا الترجمان أن ينبئهم أن مولاهم [يعني
شيخ الجبل] قد تسرع جداً حين جرؤ على مخاطبة الملك بهذا الأسلوب الوقح،
وأنه لولا شرف الملك الذي وفدوا عليه مبعوثين لأغرقوهم في بحر عكا القدر
إغاضة لشيخهم، وقالوا له « ونحن نأمرك بأن تعود إلى مولاك ثم تحضر ثانياً في
مدى خمسة عشر يوماً ، جالباً إلى الملك من الكتب والجواهر ما يحمله على الصفح
عنكم والرضا عليكم » .

عودة الرسل وإرسال إيفيز إليه

٤٥٦ — عاد رسل شيخ الجبل بعد خمسة عشر يوماً إلى عكا ، وأحضروا
معهم قميص الشيخ إلى الملك ذاكرين له — نيابة عن شيخهم — أنه لما كان

القميص أقرب إلى الجسد من أى ثوب آخر فإن هذا يعنى أن شيخ الجبل أصبح يعدّ الملك أقرب إلى نفسه من أى ملك آخر ، كما أرسل إليه خاتمه - وكانت من الذهب الخالص - وقد نقش عليه اسمه ، وبعث مع الخادم كلمة فخواها أنه يؤيد الملك ، وأنها أصبحت منذ اللحظة روحاً واحداً في جسدين .

٤٥٧ - كان من بين المجوهرات الأخرى التى بعث بها شيخ الجبل إلى الملك فيل من الخزف الصينى قد أبدعته يد صناع ماهر ، وحيوان يسمونه بالزرافة وكان من الخزف أيضاً ، ومجموعة مختلفة الأنواع من تفاح بلورى وألعاب للمائدة والشطرنج ، وكانت جميعاً قد ظلت بالعنبر الذى شدّ إلى الخزف بأسلاك رقيقة من الذهب الخالص الجيّد .

ويجب أن تعرف أنه عندما فتح الرسل الضناديق المحتوية على هذه الأشياء بدى كأنّ الحجرة بأجمعها قد عبقت بالريحان ، فسرى شذاه من بعيد .

٤٥٨ - ردّ الملك رسل شيخ الجبل إليه ومعهم مجموعة كبيرة من المجوهرات والأقمشة القرمزية والكثوس الذهبية وحوافر جياذ فضية ، كذلك بعث بصحبته عارفاً باللسان العربى هو الأخ إيفيز البريطنانى ، الذى وجد أن شيخ الجبل غير مؤمن بمحمد (صلعم) ولكنه يعتقد فى شريعة عمه ^(١) على .

٤٥٩ - وكان على هذا قد رفع محمداً إلى مرتبة التعظيم التى تبوأها ، فلما ثبتت أركان سيادة محمد على الناس احتقر عمه وباعد فيما بينه وبينه ، فلما رأى على ذلك جمع حوله أكبر عدد مستطاع جمعه من الناس ^(٢) ولقنهم تعاليم أخرى

(١) هذا جهل من جوانفيل بقراءة الإمام بالرسول وبالشرعية ، راجع أيضاً فقرة رقم ٢٤٩ .

(٢) فى نسخة جوتز (ص ٤٧٣) فى معرض الكلام عن النزاع المزعوم بين الرسول عليه السلام والإمام على كرم الله وجهه جاء ما يبدل على جهل كاتب المذكرات بتاريخ الإسلام =

مناقضة لتعاليم محمد حتى أصبح المؤمنون بعلي الآن يرمون أتباع شرعية محمد بالكفر ، وكذلك الحال إزاء المؤمنين بمحمد حيث يكفرون أتباع علي .

٤٦٠ — ومن بين التعاليم التي حوتها شريعة علي أنه إذا مات أحد ما وهو قائم بتنفيذ أوامر شيخه فإن روحه تحلّ في جسد أحسن من جسده هو ، ومن ثم فإن الحشاشين لا يترددون في قتل أنفسهم إن أمرهم شيوخهم بذلك ، اعتقاداً منهم أنهم سيكونون في موتهم في حال أحسن مما هم عليها الآن .

٤٦١ — وهناك نقطة أخرى هي أنهم يؤمنون أنه لن يموت أحد إلا في اليوم المقدّر له ، وهذه العقيدة تقول إنه ليس لأحد ما أن يرى أن الله قادر على إطالة الحياة أو تقصيرها ، ولذلك فالبدو^(١) يقبلون شريعة علي على أساس هذه الناحية ، ولذلك لا يلبسون الدروع حين ذهابهم للقتال ، لأنهم يظنون أن وضعهم الدروع إنما هو عمل مناقض لتعاليم دينهم ، وهم إذا لعنوا أطفالهم قالوا لهم « عليكم لعنة الفرنجة الذين يدّعون خوف الموت^(٢) » .

٤٦٢ — وقد وجد الأخ إيفيز كتاباً إلى جوار رأس فراش شيخ الجبل ، تضمن كثيراً من العبارات التي قالها سيدنا الرب حين كان على الأرض للقديس بطرس ، فقال له الأخ إيفيز « بحق الرب يا مولاي أرجو أن تداوم النظر في هذا الكتاب لما ينطوي عليه من أقوال رائعة جداً » ، فقال شيخ الجبل إنه يُكثر من مطالعته ، وأضاف قائلاً « إن سيدنا القديس بطرس

— جهلاً مطبقاً ، حيث ذكر « أن علياً أخذ يجذب إلى مذهبه أكثر ما يستطيع جمعهم من الناس وارتد إلى بعض نواحي الصحراء وإلى جبال مصر حيث لقنهم مذهباً جديداً يخالف مذهب محمد » .

(١) يخلط جواناتيل بين البدو والحشاشين .

(٢) راجع فقرة رقم ٢٥١ .

عزيز جدًا علىّ لأنه في بداية العالم حلت روح هايل — بعد قتله — في جسد نوح ، فلما مات انتقلت روحه في إبراهيم ، ثم حلت بعد موت إبراهيم في جسد القديس بطرس ، وإذ ذاك نزل السيد إلى الأرض .

٤٦٣ — فلما سمع الأخ إيفيز هذا الكلام أفهمه خطأ عقيدته ، وأخذ يفقهه بعبارات طيبة كثيرة ، ولكن شيخ الجبل لم يرغب في الاستماع إليه .
وقد ذكر الأخ إيفيز للملك كل هذه الأمور حينما عاد إلينا .

وكان شيخ الجبل إذا ركب سار مُنادٍ أمامه وهو يحمل فأسا دانيمركية ذات يد طويلة مغطاة كلها بالفضة ، وقد تدلى منها كثير من الخناجر ، وينادى المنادى أمامه قائلا « تنحوا من أمامه وأفسحوا الطريق لمن في يده حياة الملوك وموتهم » .

...

رد سلطان دمشق وإطلاق سراح بعض الأسرى في مصر

٤٦٤ — نسيت أن أروى لك خبر ردّ الملك على سؤال سلطان دمشق حيث كان على الصورة التالية : أنه ليس عنده نية الانضمام إلى سلطان دمشق في الوقت الحاضر حتى يرسل إلى أمراء مصر يسألهم أن يعوّضوه عن الاتفاقية التي كانت بينهم وبينه ثم نكثوها ، فإن لم يجيبوه إلى ذلك نهض لمساعدة سلطان دمشق عن طيب خاطر في الانتقام لابن عمه سلطان مصر الذي فتك به هؤلاء الأمراء .

٤٦٥ — في أثناء وجود الملك بعكا أرسل إلى مصر سيدي جون دي فالنسين الذي طالب الأمراء بوجوب تعويضهم الملك عما ارتكبهوه من إفساد،

وما أنزلوه به من أضرار ، فقالوا إنهم على أنهم استعداد لإجابة مطلبه ، شريطة أن يتفق الملك وإياهم ضد سلطان دمشق ، فلامهم سيدي لورد جون دي فالنسين لوماً شديداً لما ارتكبوه في حق الملك من الأخطاء التي ذكرناها آنفاً ، وأشار أنهم يحسنون صنعاً لو أنهم بعثوا إليه بجميع من في أسراهم من فرسانه ، عساهم بذلك يستميلون قلب الملك بالعطف عليهم ، فاستجابوا لذلك فعلاً ، وبعثوا إليه على سبيل المجاملة عظام كونت وولتر دي برين لكي تدفن في أرض طاهرة .

٤٦٦ - عاد سيدي جون دي فالنسين إلى عكا وبصحبة مائتا فارس جاء بهم من الأسر غير سواهم من الناس ، وكذلك صاحبة أميرة صيدا وهي ابنة عم كونت وولتر وأخت لورد وولتر ولورد دي رنيل الذي تزوج ابنة جون لورد دي جوانفيل بعد عودته من وراء البحار - أقول إن سيدي صاحبة صيدا أخذت عظام كونت وولتر وأمرت بدفنها في كنيسة الاسبتارية في عكا ، وأمرت بإقامة الصلاة على أن يقسم كل فارس بتقديم شمعة صغيرة ودرهم من فضة ، وفعل ذلك أيضاً الملك حيث قدّم شمعة صغيرة وبيزنتة من الذهب ، وكلها على حساب سيدي صاحبة صيدا ، وتعجب الناس كثيراً حين فعل الملك ذلك ، إذ لم يؤثر عنه أنه قدّم من قبل مالا ليس ملك يمينه ، ولكنه فعّل ذلك على سبيل المجاملة .

٤٦٧ - وجدت بين الفرسان الذين جاء بهم سيدي لورد جون دي فالنسين من مصر أربعين فارساً من بلاط شهبانيا وكانوا في خرق مهملّة رثة وحالة فذرة ، فأمرت بإعداد قمصان وعباءات خضراء لهم ، ومضيت بهم إلى حضرة الملك

ملتصسا منه أن يعاملهم باعتبارهم باقون في خدمته ، فاستمع الملك لما طلبته منه دون أن يجيب بكلمة ما .

٤٦٨ — وإذ ذاك نهض أحد فرسان مجلسه قائلاً إننى لم أنهج طريقاً سوى ما حين اقترحت على الملك ما اقترحت ، فقد جاوز مصروفه دخله بسبعة آلاف دينار، فأجبت به إن سوء الطالع قد يدفع الإنسان أحياناً إلى الكلام ، وأنا فقدنا من أهل شهبانيا ما يقل عن خمسة وثلاثين فارساً كلهم من حملة السناجق ماتوا في خدمة الملك ، وزدتُ على ذلك قائلاً « إن الملك لا يفعل جيداً إذا استجاب لما تقول، في الوقت الذي يدعى فيه حاجته إلى الفرسان » ، وما فرغت من ذلك الحديث حتى استخرطت في البكاء الحار ، فطلب إلى الملك أن أنقذ نفسه عن نفسه ، وقال إنه سيجيبني إلى كل ما طلبته بشأن هؤلاء الفرسان جميعهم ؛ ثم عيّنهم كما شئت وضمهم إلى فرقتي .

٤٦٩ — ردّ الملك على رسل مصر أنه لن يعقد اتفاقاً معهم إلا إذا بعثوا إليه برءوس جميع النصاري التي علقوها على أسوار القاهرة ، منذ أن وقع في أسرهم كونت دى بار وكونت دى مونتفورت ، وإلا إذا أسلموه جميع الأطفال الذين أخذوهم صغاراً وأخرجوهم من دينهم ، وإلا إذا أعطوه مخالصة بمبلغ المائتي ألف جنيه التي لا زالوا مدينين لهم بها .

وبعث الملك مع رسل الأمراء المصريين إلى القاهرة سيدي جون دى فالنسين ، وهو رجل حكيم شجاع .

٤٧٠ — وفي مستهل الصوم الكبير تأهب الملك — وجميع ما لديه من القوات — للذهاب إلى قيسارية لتقويتها بعد أن دمرها المسلمون ، وكانت تقع على مسيرة اثنتي عشرة مرحلة من عكا في الطريق إلى القدس .

أما سيدى لورد سواسون الذى كان فى عكا مريضاً فقد صحب الملك
لتحصين قيسارية، ولست أعرف كيف لم يؤذنا المسلمون أثناء العام كله ، إلا أن
تكون هذه إرادة الرب .

وبينا كان الملك يعمل فى تحصين قيسارية عا د رسل التتار إليه ، وسفخبرك
بالخبر الذى جاءوا به .

٤٧١ — لقد أخبرتك من قبل أنه فى أثناء إقامة الملك بقبرص وقد عليه
رسل من قبل التتار ، وأفهموا أنهم ناصروه على المسلمين ومساعدوه على استرداد بيت
القدس من أيديهم ، وعاد هؤلاء الرسل بعد أن بعث الملك معهم سفراء من
لده ، ومعهم كنيسة صغيرة أمر بأن تكون جميعها قرمزية ، وحملته رغبته على
اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على تلك
الكنيسة ، وأعنى بذلك بشارة الملائكة بالولادة والميلاد والتعميد وجميع
الأخزان ونزول الروح القدس .

وأرسل كذلك مع الحراب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع
الأشياء اللازمة لترتيل القداس ، واثنين من الإخوان المبشرين لتلاوة القداس
أمام التتار .

٤٧٢ — وصل رسل الملك إلى ميناء أنطاكية ، واستغرق سفرهم منها إلى
ملك التتار العظيم مدة عام كامل كانوا يقطعون فى كل يوم مسافة عشرة فراسخ ؛
فلما وصلوا إلى هناك وجدوا أن التتار قد بسطوا سلطانهم على جميع البلاد ،
وأنهم دمروا كثيراً من المدن ، وأبصروا أكواماً ضخمة من عظام الموتى .

٤٧٣ — فسأل الرسل التتار كيف استطاعوا بلوغ مثل هذا السلطان

وتقتيل هذه الأقوام وتشريدهم ، فكان رذمهم عليهم ما نقله الرسل إلى الملك
في الجبل .

« جاء التتار أصلا من بطاح رملية فسيحة لم يتهيأ لأحد عبورها ، ويبدأ هذا
السهل من صخور ضخمة عظيمة الارتفاع عجيبة جدا تقع في نهاية شرق العالم ،
ولم يسبق لأحد ما اجتياز تلك الصخور - كما يشهد بذلك التتار - وهم يقولون
إن حول هذه الأسوار شعب يأجوج ومأجوج الذين لا بد من محيئهم عند انتهاء
العالم حينما يأتي المسيح الدجال ليفسد كل شيء » .

٤٧٤ — ويسكن الشعب التتاري في هذا السهل ، وكان التتار
بخاضعين لبريستور جون^(١) ولإمبراطور فارس الذي تقع بلاده متاخمة لبلاده .
ولأراض كثير من الملوك الكفرة الآخرين الذين يدفعون له جزية سنوية ،
ويؤدون له بعض الخدمة لقاء السماح لحيواناتهم بالرعى التي عليها وحدها
حياتهم ، وكانت عادة بريستر جون وإمبراطور فارس وسواه من الملوك
ازدراء التتار الذين كانوا إذا جاءوهم لدفع ما عليهم من إقامة وجزية صرفوا
وجوههم عنهم وولولهم ظهورهم ، ترفعا منهم أن يأخذوها أمامهم .

٤٧٥ — كان بين التتار رجل حكيم تنقل بين جميع نواحي السهول ،
وحادث عقلاءها وشيوخ النواحي المختلفة ، وبين لهم ما يرسفون فيه من قيود
العبودية ، وتوسل إليهم أن يتدبروا جميعا أحسن السبل للتحرر من قيدهم ،
ونجح في جمعهم كلهم في أحد أطراف السهل في بقعة مواجهة لأرض بريستر جون .

(١) آثرت إبقاء كلمة « Prester John » كما هي في الإنجليزية لآسيا بعد أن
انكسبت هذه العبارة معنى تاريخيا معينا معروفا لطلاب العصور الوسطى .

وشرح لهم كل هذه الأمور، فأجابوه بالسمع والطاعة لما يشير به ، فذكرهم أنهم لن ينالوا ما يريدون إلا إذا نصبوا عليهم من بينهم ملكاً أو زعيماً ، ثم أخذ يبصرهم بالطرق التي يتخذون بها لأنفسهم ملكاً ، فاتفقوا على ما أشار به .

٤٧٦ — كانت الخطة التي رسمها لهم هي أن تأتي كل من الاثنتين وخمسين قبيلة الموجودة هناك بسهم يحمل اسمها ، وأجمعت هذه القبائل على أن توضع الأسهم كلها أمام طفل في الخامسة من عمره ، واتفقوا على أن ينتخب الملك من القبيلة التي يتناول الطفل سهمها ، فلما سحب الصبي أحد القداح أمر الحكماء جميع القبائل الأخرى بالانسحاب، ثم اتفقوا فيما بينهم على أن تختار القبيلة التي قدر للملك أن يكون فيها اثنين وخمسين رجلاً من أحكم رجالها وأحسنهم ، فلما اختير هؤلاء أحضر كل واحد منهم سهماً باسمه .

ثم اتفقوا فيما بينهم على تتويج من يبرز باسمه السهم الذي يتناوله الطفل ، فتناول الصبي أحدها، فكان سهم الحكيم الذي أخذ نفسه بإرشاد الناس ، فوقع هذا الأمر منهم موقع الرضاء وازدهتهم الفرحة ، وإذا ذلك طلب إليهم ذلك الحكيم الصمت وقال لهم « أيها السادة ، إذا أردتموني ملكاً عليكم فأقسموا لي بحق مبدع السموات والأرض أن تلتزموا أوامري » فأقسموا له على ما طلبه .

٤٧٧ — كانت الشرائع التي سنّها تهدف لإقرار السلم بين الأهالي ، وتتلخص في ألا يسرق أحد حوائج غيره ، ولا يضرب فرد آخر وإلا كان جزاؤه قطع يده ، وألا يعاشر رجل زوجة آخر أو ابنته وإلا بترت يده وأو قتل .

كذلك أقر بينهم كثيراً من الشرائع الأخرى الجليلة بقصد استئباب
السلم .

...

.. غلبة التتار وتنصر أحد أمراءهم .

٤٧٨ — بعد أن نظم الملك أمورهم ورتب صفوفهم تكلم فيهم قائلاً :
« أيها السادة إن أشد أعدائنا قوة هو بريسترجون ، وإنني لأمرم أن تكونوا
جميعاً متأهبين غداً لمهاجمته ، فإذا كُتبت له الغلبة علينا — لا قدر الله —
فليفعل كل منكم ما يرى فيه صلاحه ، أما إذا هزمناه فإنني آمرم بمقابلة
القتال ثلاثة أيام وثلاث ليال سوية ، ولا تحدثن أحداً نفسه فتمتد يده إلى
الغنيمة ، بل اصرفوا همكم جميعاً إلى الفتك بقومه ، حتى إذا تم لنا النصر
بادرت إلى توزيع الأسلاب عليكم بالعدل ، فينال كل منكم قسطه الذي
يرضيه » .

فاتفقوا جميعاً على ما قال .

٤٧٩ — فلما كانت الغداة كرتوا على أعدائهم كرة صدق وهزمهم
بمشيئة الرب ، وأعملوا السيف في جميع من وجدوه في لباس الحرب أو قادراً
على الدفاع عن نفسه ، ولم يستثنوا من القتل إلا كل ذي مسوح دين وغير
القسيسين والرهبان ، فخضع للتتار جميع سكان بلاد « بريسترجون » ممن لم
يشاركوا في هذه المعركة .

٤٨٠ — وحدث أن تغيب أحد أمراء القبائل المشار إليها مدة ثلاثة

أشهر لم يوقف له فيها على أثر ، أو يسمع عنه خبر ، ثم عاد غير شاك ظمأ أو مسغبة ، حاسباً أن غيبته عن قومه لم تطل أكثر من ليلة واحدة . وروى لهم قصته فذكر من خبره أنه ذهب إلى قمة رابية عالية فوجد بها قوماً كثيرين ، لهم بشرة من أنصع ما رأت عيناه ، وعليهم من الثياب أحسنها وأزيناها ، وأبصر عند نهاية الربوة ملكهم ، وكان أنصعهم بشرة وأجملهم هندماً وأحسنهم زينة ، وقد جلس على عرش من الذهب .

٤٨١ — كان على يمينه وشماله ستة ملوك على رؤوسهم التيجان ، وقد ازبنوا بالأحجار الكريمة الكثيرة ، كما أبصر قريباً منه ملكة ركعت على يمينه تتوسل إليه أن يعطف على شعبها ، كما ركع على يساره رجل أفرغ في قلب من الجمال الفاتن ، له جناحان يتألقان كأنهما وهج الشمس ، واحتشد حول الملك جمع كثيف من أناس حسنى الطلقة مجنحين .

٤٨٢ — ثم نادى الملك هذا الأمير التتاري إليه وقال له : « لقد جئت من جيش التتار » ، فأجابه « حقاً ما قلت يا مولاي » ، وإذ ذاك قال الملك : ألا فاذهب إلى ملكك وخبره أنك رأيتني - أنا ملك السموات والأرض - واطلب إليه أن يشكرني لنصري إياه على « بريسترجون » وقومه ، وخبره أيضاً - نيابة عني - إنني سأعينه بقوة تمكنه من ضم جميع العالم تحت حكمه » فقال له الأمير : « وما آتني عنده يا مولاي كي يصدقني » .

٤٨٣ — فأجابه « آيات صدقك لديه ليؤمن بما تقول أنك سوف تخرج لمحاربة امبراطور فارس في ثلاثمائة من رجالك لن تزيد عليهم أحداً ، وليكي يؤمن بملكك العظيم أن لي القدرة على كل شيء فإنني سأنصرك نصراً

عزيزاً على إمبراطور فارس الذى سوف يحاربك بثلاثمائة ألف مقاتل أو يزيد ،
ولكن قبل أن تمضى لقتاله سل ملكك أنت يعطيك القسس ورجال الدين
الذين أسرهم فى المعركة [الأخيرة] ، وصدقهم أنت وقومك فى كل
ما يقولونه لك .

٤٨٤ — فقال له الأمير « مولاي ، إننى لا أستطيع الذهاب إذا لم تأمر
لى بمن يرشدنى الطريق » ، فالتفت الملك إلى حشد كبير من فرسانه المسلحين
أحسن سلاح يسرّ العين أن تراهم فيه ، ونادى إليه واحدا منهم قائلاً :
« تعال هنا يا جورج » ، فجاءه الفارس وركع بين يديه ، فقال له الملك « انهض
وسير بهذا الرجل إلى قومه آمناً فى نفسه ، سليماً فى روحه » . فصعد الفارس
— فى فجر أحد الأيام — لما أمره به الملك .

٤٨٥ — لم يكذ الأمير يطلع على قومه فيبصرونه حتى أخذتهم — هم
والجيش بأجمعه — هزة الفرع ، ثم التمس الأمير من الملك الكبير أن يعطيه
القسس فأعطاه إياهم ، وإذ ذاك تلقى الأمير ورجاله تعاليم القسس أحسن لقاء ،
حتى إنهم تعمدوا على بكرة أبيهم ، فلما فرغوا من ذلك جاء الأمير بثلاثمائة
مقاتل ودعاهم للاعتراف والتأهب للقتال ، ثم خرج بهم لمحاربة إمبراطور
فارس فتحت لهم الغلبة عليه وأخرجوه من مملكته ، فظل هائماً على وجهه حتى
بلغ مملكة بيت المقدس ؛ وهو نفس الإمبراطور الذى قاتل شعبنا وأمر
كونت وولتر دي برين ، وسنقص عليك خبر ذلك فى موضعه (١) .

* * *

عادات التتار وندم لويس على الاتصال بهم

٤٨٦ — كان عدد شعب هذا الأمير [التتارى] المسيحى كبيراً ، حتى لقد أنبأ نارسلى الملك أنهم شاهدوا فى معسكره ثمانمائة كنيسة صغيرة محمولة على عربات .

وأسلوبهم فى العيش أنهم لا يأكلون الخبز بل يعيشون على اللحم واللبن ، وأحسن ما يشتهون لحوم الخيل التى ينقعونها فى الماء المالح ثم يجففونها فيمكنهم قطعها كما لو كانت خبزاً أسود .

وأحب مشروب إليهم وأقواه لبن إناث الخيل بعد أن يعطروه بالأعشاب . وقد قدم أحدهم إلى ملك التتار العظيم حصاناً محملاً بالدقيق جىء به من مسافة رحلة ثلاثة أشهر ، فأعطاه إلى مندوبى الملك [لويس] .

٤٨٧ — ويوجد بين التتار كثير من المسيحيين الذين يعتنقون عقيدة الإغريق ، إلى جانب النصارى الذين تكلمنا عنهم حالاً هم وغيرهم ، وإذا أراد التتار محاربة المسلمين عمدوا إلى إرسال هؤلاء العيسويين لقتالهم ، كما أنهم يصطنعون المسلمين فى أى حرب ضد النصارى ، وجرت عادتهم أن يصحبهم إلى ميدان القتال جميع صنوف النساء غير المعيلات وهم يأجرون هؤلاء النسوة كما يؤجرون الرجال على السواء ، تبعاً لقوتهن وضرائهن .

وقد ذكر لنا نارسلى الملك أن المحاربين من الرجال والنساء يأكلون معاً فى معسكرات الشيوخ الذين يعملون فى خدمتهم ، ولا يجرؤ الرجال على مس النساء بأية صورة ، عملاً بالمبدأ الذى علمهم إياه ملوكهم الأول .

٤٨٨ — وهم يأكلون لحوم جميع أنواع الحيوانات التى تنفق بالعسكر ، أما النساء

اللائى عندهن أطفال فيشرفن على حفظ هذه اللحوم والعناية بها ، كما يَقْمَنَ
أيضاً بإعداد طعام المحاربين .

وهم يضعون اللحم النىء بين سروجهم وعذبات ملابسهم ، حتى إذا خرج
كل مابه من دم أكلوه نيئاً ، أما ما لا يستطيعون أكله بين آن وآخر
فيضعونه فى حقيبة من الجلد، فإذا جاعوا فتحتوا هذه الحقيبة وأكلوا أو لا أقدم
ما بها من قطع اللحم ، ولقد رأيت بنفسى رجلاً خراسانياً من رعايا إمبراطور
فارس كان يقوم بحراستنا أثناء أسْرِنَا يفتح حقيبتة، فسدونا أنوفنا لعدم استطاعتنا
تحمل رائحة النتن المتصاعد منها .

٤٨٩- ولنرجع الآن إلى ما كنا فيه فنذكر ما فعله الإيلخان بعد تلقيه رسل
الملك وهداياه من إرساله عهد أمان لجمع جميع الملوك الذين لم يدينوا له بالطاعة
بعد ، فلما جاءوه أمر بنصب كنيسته الملك وخاطبهم بقوله : « أيها السادة ،
لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمساً عطفنا للدخول فى طاعتنا ، وها كم الجزية
التي أنقذها إلينا فانظروها ، فإذا لم تستسلموا لنا فإننا مرسلون فى طلبه
للقضاء عليكم » ، وإذ ذاك أعلن أكثر الحاضرين استسلامهم للملك التتارى
خوفاً من الملك الفرنسى .

٤٩٠- عاد مبعوثو الملك وفى صحبتهم آخرون من قبل ملك التتار العظيم ، الذى
حلمهم كتباً منه إلى ملك فرنسا جاء فيها « السلم خير ، فإنه إذا ساد أرضاً أكلت
كل ذات أربع حشيش السلام ، كما أن من يدبّون على قدمين يفلحون الأرض
التي تخرج كل طيب فى سلام أيضاً » .

٤٩١ - « وإننا نقص عليك هذا الخبر لتزداد معرفتك ، إذ لن تعرف معنى
السلم إلا إذا عقدته معناه ، فقد ثار بريسترجون ضدنا كما ثار علينا فلان وفلان غيره

من الملوك ، فحكمنا السيف فيهم جميعاً . » ، ثم راح يعدد له هؤلاء الملوك ، ثم قال
« لذلك ننصحك أن تبعث إلينا — عاماً بعد عام — بشيء من ذهبك وفضتك ،
وبذلك تبقينا أصدقاءك ، فإن لم تفعل هذا دمّرتك أنت وشعبك كما فعلنا مع
من ذكرنا لك من الملوك . »

ويجب أن تعلم أن الملك ندم أشد الندم على إرساله رسلاً إليه .

* * *

وصول بعض الفرسان النرويجيين

٤٩٢ - لنعد الآن إلى ما كنا فيه وما حدث أثناء قيام الملك بتحصين مدينة
قيسارية من مجيء سيدي « إيلنارد دي سنيا نجان » إلى المعسكر ، فذكر أنه
بنى سفينة في مملكته النرويج الواقعة^(١) عند نهاية المعمورة من ناحية الغرب ،
وكيف أنه في أثناء قدومه على الملك دار حول إسبانيا كلها ثم عبر مضيق بلاد
المغرب ، وصادف أخطاراً كثيرة قبل أن يتأتى له الوصول إلينا ، فاستبقاه
الملك هو وتسعة من فرسانه في خدمته ، وقد أخبرنا لورد إيلنارد هذا أن
الليل في بلاد النرويج قصير جداً في شهور الصيف ، حتى إنك لترى في آن
واحد أضواء اليوم الآفل تلتقي بأضواء اليوم الوليد .

٤٩٣ - وقد أخذ هو ورجاله أنفسهم بصيد السباع ، واستطاعوا أخذ عدة منها
متمجّمين الأخطار الجسام لأنهم كانوا يتقدمون لصيدها بكل ما يستطيعون
من قوة ، ثم يرمونها ينبالهم ، وإذا ذاك تثب عليهم الأسود وثبة تكاد تأخذهم فيها

(١) من هذه الكلمة حتى كلمة الغرب ساقطة من جونز ، ص ٤٨٢

وتأكلهم ، لولا خرقه من قماش بالٍ يلوح بها للأسد الذى يثب عليها فيمزقها
ويأخذ في التهامها ، ظناً منه أنه يفتك بالصياد . وبينما يكون الأسد مشغولاً
بتمزيق القماش يضى صياد آخر ناحيته رامياً إياه بنباله ، وإذا ذاك يترك السبع
بتمزيق القماش ويثب على صائده الذى يلقى عليه هو الآخر بدوره قطعة ثانية
من القماش ، فيثب عليها الأسد مرة أخرى ؛ وهكذا يقتلون الأسد
بأقواسهم .

عادات الكومان

٤٩٥- بينما كان الملك يحصن قيسارية جاءه سيدى فيليب دى توسى Taucy
الذى قال الملك إنه ابن عمه ، لأنه كان من ذرية إحدى أخوات الملك فيليب^(١)
التي تزوجها إمبراطور القسطنطينية ، فاستبقاه الملك في خدمته مع تسعة من
فرسانه مدة عام رحل بعده قافلاً إلى القسطنطينية التي جاء منها ، وقد أفضى
إلى الملك^(٢) أن إمبراطور القسطنطينية^(٣) وكبار من بها من الرجال قد تحالفوا
مع شعب يدعى الكومان Comans ليسكونوا عوناً له ضد Vataces
إمبراطور الإغريق .

(١) أخطأ جوائفيل إذا خلط بين فيليب دى توسى وبين نارجو Narjot دى توسى ،
فقد كان فيليب حفيد أخت فيليب المسماة Agnès التي تزوجت من Vanas اليونانى ،
كما تزوجت مرة أخرى من إمبراطور القسطنطينية .

(٢) رواية جونز ، ص ٤٨٢ تنص صراحة على أن جوائفيل سمعه وهو يروى للملك
خبر هذا التحالف .

(٣) يقصد بذلك بلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى .

٤٩٦ - ولكي يقف كل فريق منهم إلى جانب الآخر في إخلاص فقد ارتضى الإمبراطور وكبار رجاله بجرح أنفسهم ، ووضعوا دماءهم كلها في وعاء فضي كبير ، وحذا حذوهم ملك الكومان ووجوه من معه ، ثم مزجوا دماءهم بدماء شعبنا ، وخلطوا ذلك كله بالتمر والماء ، وشرب الجميع من هذا المزيج وقالوا إن رابطة الدم آتت بينهم جميعاً ، ثم أمر بكلب سيّروه بين قومهم وقومنا وانهاؤا عليه بسيوفهم فمزقوه إرباً ، وفعل رجالنا فعلتهم ، وقال الجميع إن من يغدر بالآخر في هذا الحلف حق عليه أن يمزق هذا التمزيق .

٤٩٧ - كذلك أخبرنا سيدى فيليب عن عجيبة شاهدها بنفسه حين كان في معسكر الكومان ، إذ مات أحد ثراة فرسانهم فحفرُوا له قبراً بالغ الكبر والاتساع ، وأقعدوه به في كرسي ، بعد أن ألبسوه فاخر الثياب ، ثم جاءوا بأحسن جواد كان لديه ، وأحسن جندي عنده ، ودفنوهما معه في القبر حينئذ .

أما الجندي قبل وضعه في القبر مع مولاه فقد استأذن من ملك الكومان وغيره من الثراة ، وبينما كان يستأذنها في ذلك عمدوا إلى وضع كمية كبيرة من الذهب والفضة في ملفحته ، وكلُّ يقول له : « حينما أجيء إلى العالم الآخر ، عليك أن ترد إلى ما أعهد به إليك الآن » ، فيقول الجندي : « سأفعل ذلك عن طيب خاطر » .

٤٩٨ - ثم ناوله ملك الكومان العظيم رسالة موجهة إلى أول ملك من ملوكهم ، مبينة فيها أن الجندي المشار إليه عاش كريم الخبر وأنه بذل نفسه في خدمته ، ومن ثم يحتم الواجب مكافأته في الحال ؛ فلما فرغوا من ذلك كله أنزلوا الجندي إلى القبر في صحبة مولاه مع الحصان الحى ، ثم غطوا فوهة

القبر بالواح التصق بعضها ببعض ، وانطلق الجيش بأجمعه في جلب الأخجار والتراب، وقبل أن يأووا إلى فراشهم في تلك الليلة كانوا قد أقاموا رابية كبيرة ذكرى لمن استودعهم جوف الثرى .

حياة جوانفيل فيما وراء البحار

٤٩٩ — بينما كان الملك يعمل في تقوية قيسارية ذهبت ذات يوم إلى معسكره لرؤيته فشاهدته يتحدث إلى القاصد الرسولى ، فما كاد يرانى أدخل حجرته حتى نهض واقفاً ، وانتحى بى جانباً وقال : « أنت تعلم أننى استبقيتلك فى خدمتى حتى عيد الفصح^(١) ، لذلك أرجو منك أن تنبئنى عما تطلبه من أجر لتبقى عاماً بعد هذا العيد » ، فأفضيت إليه أننى لا أريد أن يعطينى من أمواله أكثر مما أعطانى من قبل ، ولكنى أريد عقد اتفاق آخر معه .

٥٠٠ — ثم قلت له : « إنك تسلم نفسك للغضب فتستشرى إن سألك سائل شيئاً ما ، لذلك أرغب إليك أن تبرم معى عهداً ألا ينزو برأسك الغضب منى إن طلبت منك شيئاً طوال السنة ، ولك على أنا الآخر ألا أغضب إن رفضت سؤالى » ، فلما سمع الملك ذلك انفجر ضاحكاً فى صوت مجلجل ، وقال : إنه سيبتقنى فى خدمته على هذا الشرط ، ثم أخذنى من يدى وسار بى إلى القاصد الرسولى وإلى أعضاء مجلس مشورته وأخبرهم بالشروط التى اتفقنا عليها فكان سرورهم عظيماً^(٢) لأننى كنت من أبرز رجال الجيش وأهمهم .

٥٠١ — وسأقص^(٣) عليك فيما بعد كيف دبرت أمورى ونظمتها

(١) يعنى بذلك عيد فصح ١٢٥١ ، راجع رقم ٤٤٠ ، ٤٤١

(٢) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية العبارة غير وارد فى نسخة جونز ٤٨٤

(٣) الفقرات من هنا حتى رقم ٥٠٤ ناقصة فى جونز

خلال السنوات الأربع التي بقيتها مغترباً بعد رحيل إخوة الملك ، فلقد كان
عندى قسّان يقرآن على كتاب الساعات ، كان أحدهما يرتل قداسي حالما يبرزغ
الفجر ، ويظل الآخر في انتظار استيقاظ فرسانى والفرسان التابعين لفريقي ،
فإذا فرغت من سماع قداسي توجهت إلى الملك ، فإن كان راغباً في الركوب للنزهة
صحبه في غدوته ؛ وكان يحدث في بعض الأحيان أن يأتي الرسل فنظل في شغل
طول الصباح .

٥٠٢ — كان فراشي موضوعاً في فسطاطي بصورة يستحيل على أحد
ما أن يدخل دون أن يراني ، وقد تعمدت وضعه على هذه الصورة حتى لا تنسرب
الظنون الآتية إلى أحد فيحسب أن عندى امرأة ، فلما جاء عيد القديس
Remigus أمرت بإحضار الخنازير إلى زرائي والماشية إلى حظائري والطحين
والخمر لتموين جماعتي مدة فصل الشتاء ، وقد فعلت ذلك لندرة الثروة في الشتاء
وارتفاع أسعارها في هذا الفصل من السنة ، بسبب هياج البحر خلاله أكثر من
هياجه إبان الصيف .

٥٠٣ — واشتريت كذلك مائة طن من الخمر ، وكنت آتما أن يبدأ
بشرب أجودها أولاً ، أما شراب أتباعي فقد أمرت بمزجه بالماء الذي أمرت
بالإقلال من كمياته المضافة إلى خمرة السادة ، وكان يوضع على مائدتي الخاصة -
آمام كل فارس - قنينة كبيرة من النبيذ ، وأخرى في حجمها من الماء فيمزج كل
منهم حسبما يشتهي .

٥٠٤ — كان الملك قد أمد كتيبتى بخمسين فارساً ، وكنت كلما جلست إلى
الطعام دعوت إليه عشرة فرسان بالإضافة إلى فرسانى العشرة ، فكانوا يأكلون
وقد يواجه الواحد منهم الآخر تبعاً لعادة هذه البلاد ، افترشوا الحصيد على

الأرض ، وكنت كلما نودى للسلح بعثت أربعة وخمسين فارساً يسمونهم
أمراء عشرات لأن كلا منهم كان أميراً على عشرة ، وكنا كلما خرجنا مسلحين
أكل الفرسان الخمسون في معسكرى عند عودتهم ، وكنت في جميع الأعياد
السوية الرسمية أدعو إلى مائتي كافة رجال الجيش البارزين ، وكان يحدث
في بعض الأحيان أن يستعير الملك بعض ضيوفى .

بعض الأحكام الصادرة في قيسارية

٥٠٥ — ستسمع هنا عن العدالة والأحكام التى رأيتها تنفذ في قيسارية
أثناء إقامة الملك بها ، ونبدأ أولاً بنحبر الفارس الذى أمسكوه في بيت من
بيوت العاهرات ، فخيروه - وفق عادات البلد - بين أن تأخذ المرأة العاهرة
بمقوده في المعسكر وهو في قميصه ، وقد شدته بحبل تجريساً له ، وبين أن يتخلى
عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش ، فأثر التخلي عن فرسه وسلاحه للملك
وترك الجيش .

٥٠٦ — ثم ذهبت إلى الملك سائلاً إياه أن يمنحنى الحصان لأعطيهِ لسيد
فقير في الجيش ، فأنكر الملك على وجهه مطلبى ، لأن الحصان لا يزال يساوى
ثمانين جنيهها فأجبتة : « لقد نقضت الآن ما أبرمناه من اتفاق ، لأنك غاضب
على لما سألتك إياه » فقال لى ضاحكاً فى مرح : « قل ماشئت فلست غاضباً
عليك » ، ومع ذلك فلم أتمكن من الحصول على الحصان للسيد الفقير .

٥٠٧ — أما الحكم الثانى فيتلخص فى أن فرسان كتيبتنا كانوا يتصيدون
ذات يوم حيواناً متوحشاً يسمونه الغزال ، فوثب الإخوان الاسبتارية على
فريسانى ودافعوهم ودفعوهم عن ذلك المكان ، فشكوت أمرهم إلى كبيرهم الذى

أجابني أنه سينصفني وفق تقاليد الأراضى المقدسة ، التى تتلخص فى أنه سوف يأمر رجاله الذين ارتكبوا تلك الحماقة بأن يأكلوا وهم جلوس على عباءاتهم ، حتى يعفو عنهم فرسانى الذين لحقت بهم الإهانة ويسمحوا لهم بالفهوض .

٥٠٨ — طبق رئيس الاسبتارية على رجاله ما عاهدنى به ، فلما رأيناهم وقد مكثوا يتناولون طعامهم ردىاً من الزمن قعوداً على عباءاتهم مضيت إلى الرئيس فوجدته جالساً على المائدة ، فسألته أن يأمر بقيام الإخوان الذين كانوا يأكلون أمامه وهم مقترشون عباءاتهم ، وحذا حذوى فرسانى الذين ارتكب الإخوان تلك الحماقة فى حقهم ، فأجاب بأنه لن يفعل ما سألتاه إياه لأنه لا يريد من الفرسان الاسبتارية أن يفعلوا ما فعلوا من سوء مع القادمين للحج إلى الأراضى المقدسة ، فلما سمعت منه ذلك جلست مع الإخوان ، وشرعت فى مشاركتهم طعامهم ، وأخبرته أننى لن أقوم حتى يقوموا ، فذكر لى أننى أكرهه على ما لا يجب ، ثم لى رجائى وأمر أن أشاركه أنا وفرسانى طعامه ، بينما ذهب الإخوان للأكل مع غيرنا على مائدة أخرى .

٥٠٩ — أما القضاء الثالث^(١) الذى شاهدت تنفيذه فى قيسارية فكان كالاتى : حدث ذات مرة أن دفع أحد جنود الملك واسمه « لى جولو » أحد رجالى المحاربين بيده ، فشكوت أمره إلى الملك الذى قال إنه يرى من الأجدى أن أترك المسألة حيث وصلت ، لأن الجندى لم يزد على أن دفع فارسى دفعة ، فقلت له : إننى لن أدع المسألة تمر بلا بحث ، وأننى سوف أترك خدمته إن لم ينصفني ، فقد كثر تعديى جنده على فرسانى .

(١) فى نسخة جونز ص ٤٨٤ « الثانى » .

٥١٠ — حينذاك أمر بأن تأخذ العدالة مجراها وفق مألوف ماجرى عليه العرف في الأرض المقدسة ، حيث جاء الجندي إلى معسكرى حافيا غير منتعل ، وليس عليه من الثياب سوى قميصه وسرواله وحسامه في يمينه مجرداً من غمده ، ثم ركع أمام الفارس وأمسك سيفه من ذبابه ، وناول مقبضه إلى الفارس قائلاً له : « سيدى ، استمحيك العقو عما فعلته من دفعى إياك بيدي ، وهأنذا قد أحضرت لك هذا السيف لتبتر به يدي إن كان في بترها إرضاء لك » .

فطلبت من الفارس أن يعفو عنه فعفا .

٥١١ — أما^(١) العقوبة الرابعة فخبرها أن رئيس فرسان الداوية كان قد بعث الأخ « هيج دى چوى » — مارشال الداوية — إلى سلطان دمشق لعقد اتفاق يتعلق بقطعة كبيرة من الأرض اعتاد فرسان المعبد استعمالها كلها ، ثم رغب السلطان في أن يكون استغلالها مناصفة بينه وبينهم ، وارتضى الطرفان هذا الاتفاق على أن يكون تنفيذه مرهوناً بموافقة الملك عليه ؛ واستصحب الأخ هيج معه — حين عودته من عند سلطان دمشق — أميراً من لدنه ومعه الاتفاق المكتوب لتنفيذه في الحال .

٥١٢ — أفضى كبير فرسان المعبد بكل هذا إلى الملك فاشتدت دهشته ، وقال إن الرئيس جاوز حده حين خاطب السلطان واتفق معه دون مشاورته في الأمر أولاً ، وزاد على ذلك أنه لا بد من إصلاح ماجرى ، ثم أمر الملك برفع ثلاث درقات من خيمته ، وأن يجتمع جميع عامة الجيش لرؤية ما حدث ، فجاء كبير فرسان الداوية وكافة إخوانه الفرسان حفاة الأقدام قاصدين المعسكر ، لأن خيامهم كانت

(١) الفقرات ٥١١ — ٥١٤ غير واردة في نسخة جونز .

بعيدة عنه، فأجلس الملك أمامه رئيس إخوان الداوية وكذلك رسول السلطان،
وقال للرئيس في صوت مرتفع :

٥١٣- « أيها الأستاذ الأعظم : عليك أن تخبر رسول السلطان أنك نائب
عن كل اتفاق أبرمته مع مولاه دون محادثتي أولاً بشأنه ، ولما لم تكن قد
شاورتني في الأمر من قبل فإنك تعتبر السلطان في حل من كل ما اتفق عليه
معك ، وأنت غير ملتزم بشيء مما عاهدته عليه . »

حينذاك تناول كبير الداوية الاتفاقات المكتوبة وناولها للأمير قائلاً له :
« إنني أعيد إليك الاتفاقات التي أبرمتها خطأ ، وأنا نائب عنها . »

وإذ ذاك أمر الملك الأستاذ الأعظم بالنهوض وطلب إليه أن يُنهِض كذلك
بقية الإخوان الاسبتارية ، فامتلأ أمره ، وإذ ذاك قال له الملك : « والآن اركع
أمامي مكفراً عن ذهابك إلى السلطان دون إذني . »

٥١٤ - حينذاك ركع الأستاذ الأعظم وقدم طرف عباة إلى الملك، وتخلّى
له عن جميع ما يملكه الإخوان الداوية غرامةً وعقوبة كما يقرر الملك الذي قال :
« وإنني لأعلن باديء ذي بدء بنفي الأخ هيج - الذي أبرم هذه الاتفاقيات -
من جميع نواحي مملكة بيت المقدس » ، ولم يستطع كبير الداوية - الذي كان
هو الملك إشبيني كونت ألنسُون المولود في قلعة الحجاج - بل لم تستطع المملكة
ذاتها ولا أي أحد سواهما - حملَ الملك على الرجوع عما قضى به على الأخ هيج،
الذي اضطر لمغادرة الأراضي المقدسة ومملكة بيت المقدس .

.....

الاتفاق مع الأمراء المصريين وتقوية يافا

٥١٥ — بينما^(١) كان الملك يعمل في تحصين مدينة قيسارية عاد إليه رسل^(٢) مصر وأحضروا معهم المعاهدة على الصورة التي اقترحها الملك والتي ذكرناها آنفاً، ونصت الاتفاقات المبرمة بين الملك والأمراء على تحديد يوم معين يذهب فيه الملك إلى يافا، ويكون الأمراء المصريون في هذا اليوم في غزة وفاءً لقسمهم أن يسلموه مملكة بيت المقدس^(٣).

وقد أقسم الملك وأعيان جيشه على المعاهدة التي جاء بها الرسل، والتزمنا — وفاءً بأيماننا — مساعدة الأمراء ضد سلطان دمشق.

(١) بداية هذه الرواية في نسخة جونز، ص ٤٨٥ جاءت على الصورة التالية: «لقد سمعت من من قبل كيف أرسل الملك رسلاً إلى أمراء مصر يخبرهم أنه لن يلتزم الوفاء بأية هدنة معهم إن لم يعوضوه عن الأضرار التي أنزلوها به، ومن ثم وصل رسل الأمراء ومعههم الكتب التي تؤكد للملك أنهم فاعلون كل ما يرغب فيه».

(٢) جاء في ترجمة مرزيبالس أن الذين عادوا هم رسل الملك لويس، على حين أن الأصل الفرنسي القديم يقول *Li messaige d'Egypte*، وقد ترجمها بهذا المعنى أيضاً ماسيو ويلى، ص ٢٨٣. راجع أيضاً الحاشية السابقة.

(٣) الواقع أن شيئاً من الغموض يمتور المعنى المقصود من هذه العبارة المترجمة أعلاه من النص الفرنسي القديم حيث جاءت على الصورة التالية *et a cette journée qui li roys dut ales a Japhe, li amiral d'Egypte devoient estre a Gadre per lour seremens, pour delivrer au roi le royaume de Jerusalem.* وربما كانت ترجمة جونز أكثر استقامة، إذ ورد فيها أنه «اتفق على يوم يلتقى فيه الملك وهؤلاء السفراء في يافا حيث يقطعون العهد للملك بتسليمه بيت المقدس، لقاء أن يقسم الأمراء وكبار نبلائه الميمين على أن يكونوا عوناً للأمراء ونجدة لهم ضد سلطان دمشق». هذا ويلاحظ أن الترجمة الإنجليزية خلت من الإشارة إلى غزة خلوا تاماً.

٥١٦ — حين علم سلطان دمشق بتحالفتنا مع أمراء مصر بعث بأربعة آلاف تركي في كامل سلاحهم إلى غزة حيث كان قادماً عليهم من يجيئون من مصر ، وقد فعل ذلك ليقينه بهلاكه إن تمكن جيش مصر من المجيء إلينا والالتحام بنا ، غير أن ذلك لم يثن عزم الملك عن الحركة والزحف إلى يافا التي لم يكد كونتها يوقن بمقدم الملك إليها^(١) حتى أعد قلعته إعداداً بدت معه كأنها مدينة متأهبة كل التأهب للدفاع عن نفسها ، إذ وضع عند كل سور بأعلى الطوابي (وكان بها ما يقرب من خمسمائة) درعاً بأسلحته وريشة صغيرة ، فكان المنظر جميلاً تهواه العيون ، لأن أسلحته كانت من الذهب عليها صليب من الذهب المخطط .

٥١٧ — ضربنا مخيمنا في النواحي المحيطة بالقلعة والمجاورة لها المشرفة على البحر من جانب إلى آخر ، ثم شرع الملك في الحال في تحصين ضاحية جديدة من الضواحي المحيطة بالقلاع القديمة المطلة على البحر والممتدة من ناحية إلى أخرى وكثيراً ما رأيت الملك يحمل بنفسه وعاء الطين إلى الخنادق ، عساه ينال الغفران المرتجى .

٥١٨ — لم يف الأمراء المصريون باتفاقهم الذي كان بيننا وبينهم لأنهم لم يجروا على القدوم إلى غزة خوفاً من بها من جند سلطان دمشق ، على أنهم نفذوا شرطاً منه حين بعثوا إلى الملك برؤوس جميع النصاري التي كانت معلقة على أسوار قلعة القاهرة حين وقع في أسرهم كونت دي بار وكونت دي مونتفورت^(٢) ، فأمر الملك بدفنها في بقعة طاهرة .

(١) كان ذلك حوالي شهر مايو ١٢٥٢ حيث بقي بها إلى ٢٩ يونيو ١٢٥٣ ، راجع

فيما بعد فقرة رقم ٥٦٣

(٢) راجع رقم ٢٨٦

كذلك بعثوا إليه الأطفال الذين أخذوهم عند أسرهم إياه ، وقد فعلوا ذلك آسفين لأنهم كانوا قد بدّلوا دين هؤلاء الصغار ، كما أرسلوا إلى الملك بصحبتهم فيلا بعث به الملك إلى فرنسا ^(١) .

٥١٩ — وبينما كنا مقيمين في يافا جاءها أمير من قبل سلطان دمشق لحصر الغلة في قرية ^(٢) تبعد عن المعسكر ثلاثة فراسخ ، فاتفقنا على وجوب مهاجمته ، فلما رأنا قادمين نحوه لاذ بأذيال الفرار ، وبينما هو يجرى فراراً خرج لمطاردته خادم شاب وجندل على الأرض اثنين من فرسانه دون أن ينكسر رمحهم ثم شك الأمير شكة انكسر معها الرمح في جسده ^(٣) .

٥٢٠ — التمس مندوبو الأمراء المصريين من الملك أن يحدد لهم يوماً يجيئون فيه ، فقرر الملك ألا يرفض طلبهم ، وضرب لهم يوماً قدموا فيه عليه ، فأبرموا معه اتفاقاً وأقسموا جهد أيمانهم أن يكونوا بغزة في ذلك اليوم المتفق عليه ^(٤) .

* * *

(١) ذكر جونز أنه ورد في *Recueil des Historiens de France*, t. XXI, 355 تحت هذه السنة قصة بشأن فيل أرسله لويس إلى فرنسا ، وليس من المستبعد أن يكون هو نفس الفيل الذي يتكلم عنه جوفانفيل في المتن أعلاه .

(٢) ترجح جونز بكلمة *Karet* أما جوفانفيل فذكر أنها *Kasel* ولعلها القسطل .

(٣) وردت هذه الرواية في جونز ، ص ٤٨٦ على الصورة التالية : « وفي الحال أرسل الملك جماعة لصدّهم وتبعهم هو ذاته ، فلم يكف قائدهم يرانا حتى لاذ بأذيال الفرار ، فانطلق في إثره جماعة من رجالنا بأقصى سرعة » .

(٤) جاءت هذه الرواية على الصورة التالية في *op. cit* p.487 « حين علم الأمراء المصريون أن الملك وجيشه كانوا في يافا ، أرسلوا إليه سفراء آخرين لتحديد يوم يلاقونه فيه بلا توان ، فميز لهم الملك ذلك اليوم ، وعاهدوه صادقين أن يكونوا دقيقين في الفراغ من المسائل المختلفة التي كانت موضع نزاع » .

كونت أو وأمير انطاكية والأرمن

٥٢١ - بينما كنا في انتظار اليوم الذي حدده الملك لمقابلة الأمراء المصريين قدم إلى المعسكر كونت أو^(١) مستصحبا معه لورد إرنول دي جوين Guines الفارس الطيب وأخويه وفرسانه الذين كانوا تمام العشرة، فاستبقى الملك الكونت أو^(٢) في خدمته وجعله فارساً [وكان «أو» في ذلك الحين صغير السن جداً^(٣)] .

٥٢٢ - حينذاك عاد أمير^(٤) أنطاكية وأمه الأميرة إلى المعسكر ، فاحتفى به الملك احتفاءً عظيماً ، وأقام له حفلاً بالغ العظمة نصّب فيه فارساً رغم عدم مجاوزته إذ ذاك السادسة عشرة من عمره، لكنني لم أرقط في حياتي غلاماً في مثل فطنته ، فقد التمس من الملك أن يتفضل بسماعه في حضرة أمه ، فرضى الملك فكان ما قاله له أمامها :

٥٢٣ - « مولاي ، ليس من شك في أن من حق أمي أن تبقيني تحت وصايتها مدة أربعة أعوام أخرى ، ولكن ليس ثم ما يبرر عمل شيء ما من شأنه دمار إمارتي وتدهورها، وأنا أقول هذا يا مولاي لأن مدينة أنطاكية آيلة

(١) هو جان بن ألفونس دي برين وماري كونتس أو ، وسيرد خبر صداقة الكونت الشاب لجوانفيل فيما بعد في تقريري رقم ٨٢٢ و ٨٢٣ .

(٢) يستفاد من رواية Jones, p. 487 أن الملك استبقى الفرسان العشرة في خدمته ولم يدخل فيهم كونت أو ، بل خلع عليه لقب الفارس رغم شدة صغر سنه .

(٣) الإضافة من op. cit. loc. cit.

(٤) هو بوهيمند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، وأبيه لوسيا Lucia ، وقد تكلم جوانفيل من قبل عن هيمند الخامس ، وسيأتيكم فيما بعد أيضاً عن بوهيمند السادس .

إلى الانهيار في يديها ، ومن ثم فإني ألتمس منك يا مولاي أن تتحدث إليها في هذا الصدد ، وأن تطلب إليها أن تمدني بالمال والرجال اللازمين لأنجدهم من في هذه المدينة من الرجال ، وهذا أيضاً ما يقضى به الواجب عليها ، فإن فعلته كان ذلك خيراً لها هي الأخرى أيضاً ، لأنني^(١) إن ظلت مقيماً معها في مدينة طرابلس فإن ذلك يتطلب نفقة باهظة ، وكل ما أنفقه حينذاك سيكون بلا طائل أو جدوى .

٥٢٤ - فاستمع إليه الملك قرير النفس ، وبذل قصارى جهده ليحمل أمه على إعطائه أقصى ما تستطيع .

ولم يكد الأمير يغادر مجلس الملك حتى شخص إلى أنطاكية حيث لقي بها عطفاً وأخذ منذ ذلك الحين يصنع أسلحته على نمط أسلحة فرنسا ، لأن الملك كان قد نصبه فارساً .

٥٢٥ - جاء^(٢) بصحبة الأمير ثلاثة أخوة مهرجون من أرمينيا الكبرى كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس للحج ومعهم ثلاثة أبواق صنعت على صورة معينة : إذا خرج منها الصوت خرج من ناحية وجوههم ، وكانوا إذا نفخوا فيها تعالت كأنها صوت بجمعات خارجة من بحيرة وصدرت منها أجمل موسيقى وأرق أنغام ، فكان سماعها لذة كبرى .

٥٢٦ - كان الإخوة الثلاثة بأربعين أيضاً في الوثب ، فقد فرشت حصيرة تحت أقدامهم وقاموا بحركات بهلوانية حتى عادت أقدامهم مرة ثانية إلى الحصير ، وقد تشقلب اثنان منهم ورأساهما إلى الوراء وكذلك فعل كبيرهم ، فلما

(١) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية كلام النكوت ساقط من جوتز ، ص ٤٧٨ .

(٢) خات نسخة جوتز من فقرتي ٥٢٥، ٥٢٦ .

أمروه بالشقلبة - ورأسه إلى الأمام - رسم علامة الصليب على نفسه ، إذ كان يخشى أن يندق عنقه وهو يتشقلب .

• • •

ملك فارس ياسر وولتر

٥٢٧ - لما كان ، الخير ألا يسدل النسيان ستاره على ذكرى كونت برين - الذى كان كونت يافا - فإننا سنقص بعضاً من أخباره هنا .

ولى السكونت أمر يافا عدة سنوات ، كما تولى الدفاع عنها بيسالته زمناً طويلاً ، وعاش معظم أيام حياته على ما كان ينتزعه من المسلمين وأعداء الدين^(١) . وقد حدث فى ذات مرة أن هاجم جمعاً غفيراً من المسلمين كانوا ينقلون كمية ضخمة من الملابس المطرزة بالذهب والفضة فاستولى عليها كلها ، فلما أحضرها إلى يافا وزّعها كلها بين فرسانه غير مستبق لنفسه منها شيئاً ، وكان أسلوب حياته أنه إذا ترك فرسانه أغلق على نفسه كنيسته ، وظل عاكفاً وقتاً طويلاً على ابتهالاته حتى إذا أوشك الليل أن ينقضى ذهب لينام مع زوجته ، وكانت امرأة طيبة حكيمة وهى أخت ملك قبرص^(٢) .

٥٢٨ - أما^(٣) امبراطور فارس الذى كان اسمه بركة خان والذى هزمه

(١) جاء فى Jones, p. 483 إنه أنجز فى حياته أروع أعمال الفروسية وحافظ على كوثية يافا عدة سنوات رغم استمرار مهاجمة الصليبيين له .

(٢) هى ماري أخت هنرى الأول ملك قبرص ، راجع فقرة رقم ٨٨ .

(٣) جاء فى جوتز ، ص ٤٧٨ قبل هذا ما يلى : « لقد سمعت من قبل بالأمير القنارى الذى استطاع بمعونة الله هزيمة امبراطور فارس وجيشه المؤلف من ثلاثمائة ألف رجل ، بقوة قوامها ثلاثمائة رجل فقط ثم طرده بعدئذ من مملكته » .

أحد أمراء التتار كما أخبرتك من من قبل^(١) فقد جاء بكامل جيشه إلى مملكة بيت المقدس ، واستولى على قلعة طبرية التي كان أوتودي مونت بيليارد قد حصنها . وكان أوتو هذا الكونستابل قد أصبح صاحب طبرية عن طريق زوجته .

أوقع امبراطور فارس كثيراً من الشرور بشعبنا [وقتل كثيراً من رجالنا حول عكا ويافا^(٢)] ، وحطم كل ما صادفه خارج قلعة الحجاج وعكا وصفد ويافا أيضاً ، فلما أنجز تخريبه زحف بنفسه على غزة لينضم بنفسه إلى سلطان مصر الذي كان مسرعاً في القدوم لسلب شعبنا والقضاء عليه .

٥٢٩ — اتفق رأى كل بارونات البلاد والبطرك على النهوض لمهاجمة الإمبراطور قبل وصول سلطان مصر ، ورغبة منهم في الحصول على المساعدة. بعثوا في استقدام سلطان حمص ، وكان من أحسن الفرسان في جميع البلاد غير النصرانية ، واستقبلوه استقبلاً رائعاً في عكا ، حتى لقد كانوا يوزعون الملابس المذهبة والحريرية أمامه أنى سار ، وهكذا وصل إلى يافا جماعتنا ومعهم ذلك السلطان .

٥٣٠ — أصدر البطرك قرار الحرمان ضد كونت وولتر لأنه أبى أن يسلم برجاً في حوزته بيافا يعرف ببرج البطرك ، والتمس رجال لنا من وولتر أن ينهض معهم لمحاربة إمبراطور فارس ، فقال إنه مستد لذلك على أن يمنحه البطرك الغفران حتى العودة ، فرفض البطرك هذا الطلب ، إلا أن رفضه هذا لم يمنع الكونت وولتر من الذهاب معهم^(٣) .

(١) راجع رقم ٤٨٥ .

(٢) الإضافة من Jones, p. 488

(٣) في Jones, p. 489 « معنا » .

كان رجالنا يؤلفون ثلاث فرق: إحداهما تحت قيادة كونت وولتر، والثانية بقيادة سلطان حمص، أما البطرك والجماعة التي من تلك الأراضي فكانوا يؤلفون الفرقة الثالثة، وكان الاسبتارية في فريق كونت دي بريين.

٥٣١ — زحف العسكر حتى أصبحوا على مرأى من العدو الذي ما كان رجاله يرونه حتى توقفوا، فقسم العدو رجاله إلى ثلاث فرق أيضاً، وبينما كان الخراسانيون ينظمون صفوفهم جاء كونت وولتر إلى رجالنا وصاح بهم «أيها السادة: استحلفكم بحق الرب أن نهض لمهاجمتهم، لأننا بتمهلنا نتيح لهم فرصة لتقوية صفوفهم»، فلم يستمع أحد لقوله.

٥٣٢ — لما رأى الكونت انصرفهم عن دعواه جاء إلى البطرك وتوسل إليه أن يمنحه الغفران على الصورة التي التمسها منه من قبل، إلا أن البطرك ظل مقبلاً على رفضه، وكان مع كونت بريين كاهن باسل تولى من قبل أسقفية الرملة وقام بكثير من أعمال البطولة وهو في صحبة الكونت، فلما علم الكاهن إصرار البطرك على الرفض قال لكونت وولتر «لا يضطربن خاطرك إذا ما رفض البطرك منحك الغفران لأنه هو المخطيء وأنت المصيب، وأنتي لأغفر لك باسم الأب والابن والروح القدس، والآن هيا بنا لقتالهم».

٥٣٣ — ثم ثبتوا مهاميزهم في جيادهم وكرّوا على فريق إمبراطور فارس الذي كان يؤلف مؤخرة العدو، واستحرق القتل في الجانبين، ووقع كونت وولتر أسيراً في يد العدو بسبب فرار جميع رجالنا^(١) فرار العار، حتى إن الكثيرين منهم رموا بأنفسهم في البحر يأساً من النجاة، وكان مما أياسهم

(١) في جونز ص ٨٩ «رجال» يعني بذلك رجال كونت وولتر.

وأُنزل بهم الهزيمة رؤيتهم إحدى كتائب إمبراطور فارس تهاجم سلطان حمص الذي لم يبق من جنده الألفين بعد المعركة سوى مائتين^(١) وثمانين رجلاً رغم دفاعه العظيم عن نفسه .

هزيمة فارس واتفاق مصر والشام

٥٣٤ — صمم الإمبراطور على محاصرة السلطان في قلعة حمص ، لأنه ظن أنه لن يستطيع الصمود طويلاً بعد أن فقد الكثير من رجاله ، فلما رأى السلطان ذلك جاء إلى جماعته وأنبأهم أنه زاحف لمحاربة العدو ، لأنه إذا قُبِعَ في مكانه وتركه يحاصره فإنه لا بد هالك ، ومن ثم رتب الأمور بأن يبعث بجميع رجاله غير المسلحين سلاحاً جيداً عبر أحد الوديان الخفية ، آمراً إياهم بمهاجمة مؤخرة معسكر العدو والفتك بنسائه وأطفاله حالمًا — تطرق أسماعهم دقات طبول السلطان .

٥٣٥ — خرج الإمبراطور إلى ميدان القتال لمحاربة السلطان، ورأى كلاهما الآخر رأى العين ، ولكنه ما كاد يسمع صراخ قومه في المؤخرة حتى انكفأ عائداً إلى معسكره لفجدة النساء والأطفال ، وإذا ذلك هاجمه السلطان هو وزجاله هجومًا قوياً منظماً ، حتى لم يبق أحد من جماعة الإمبراطور البالغة خمسة وعشرين ألفاً ما بين رجل وامرأة ، حيث لا قوا جميعاً حتفهم ، ما بين قتيل في المعركة أو هالك بحمد السيف .

٥٣٦ — كان إمبراطور فارس — قبل مجيئه إلى حمص — قد أسركونت وولتر أمام يافا ، وغلقه رجال من ذراعيه إلى مشنقة ، وأخبروه أنهم لن ينزلوه حتى يسلم.

(١) في جونز ، شرحه « غير ثمانين فقط » .

قلعة يافا إليهم ، وبينما كان هو على هذا الحال من الصلب أخذ في الصياح على رجاله الذين بالقلعة ألا يسلموها أبداً مهما أنزل العدو به من أذى ، لأنهم إذا سلموه القلعة فإنه سيدبحهم بيديه .

٥٣٧ - فلما رأى الإمبراطور أنه لن يستطيع الحصول على أكثر مما حصل أرسل كونت وولتر إلى مصر هدية لسلطانها ، كما بعث إليه برئيس الداوية وكثيرين غيرهم ممن أخذهم أسرى ، وعهد بحراستهم في طريقهم إلى مصر إلى ثلاثمائة رجل [من فرسانه ^(١)] ممن قبضت لهم الحياة يوم هزيمة الإمبراطور أمام حمص .

كان ^(٢) هؤلاء الثلاثمائة رجل - وهم من الخوارزمية ^(٣) - من بين أولئك الذين هاجمونا فيما بعد يوم الجمعة ، يوم أن كنا مشاة ، وكانت سناجفهم حمراء ومشرشره أعلا تجاه الرماح ، وكانوا يرسمون على حراهم رؤوسا بشعرها أشبه برؤوس الشياطين .

٥٣٨ - ألح كثير من تجار القاهرة على السلطان أن يشار لهم من كونت وولتر لما كان قد أنزله بهم من خسائر جمة ، فأذن لهم السلطان بالذهاب إليه والانتقام منه ، فمضوا ^(٤) إليه في حبسه وذبحوه فمات في سبيل الرب ، وعقيدتنا أنه الآن في السموات وفي عداد الشهداء الصديقين .

(١) الإضافة من جوتز ، ص ٤٩٠ .

(٢) من هنا حتى نهاية رقم ٥٣٧ غير وارد في جوتز .

(٣) أشار جوفانفيل من قبل (رقم ٢٦٣ - - ٢٧٦) إلى هذه المعركة دون أن يشير إلى تدخل الخوارزمية . أما فيما يتعلق بهم ودخولهم بلاد الشام بعد مطاردة التتار لهم فراجع رقم ٥٢٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٤ .

(٤) في جوتز « قضى إليه الكلاب الخونة » .

الصلح بين سلطان دمشق وأمراء مصر

٥٣٩ — أخذ سلطان دمشق مَنْ كان من رجاله بغزة^(١) ودخل بهم مصر ،
التي نهض أمراؤها لمحاربتة هو وفريقه الذي استطاع بقيادته أن ينزل الهزيمة
بهم في الحال . على أن فريق أمراء مصر هزم مؤخرة فريق سلطان دمشق ،
الذي ارتد إذ ذاك إلى غزة مصاباً بجروح في رأسه ويده ، وكان أمراء مصر — قد
يعثوا إليه — قبل رحيله إلى غزة — برسلمهم لعقد الصلح معه ، وإن كانوا لم
يحافظوا قط على اتفقاتهم معنا ، ومنذ ذلك الحين لم تعقد أية هدنة أو صلح مع
جند دمشق أو جند مصر ، ويجب أن تعرف أنه لم يزد عدد رجالنا من
المحاربين في أية مرة على ألف وأربعمائة مقاتل .

هزيمة صاحب سنت لازار

٥٤٠ — وبينما^(٢) كان الملك معسكراً أمام يافا شاهد رئيس سنت لازار
— تجاه الرملة على بعد ثلاثة فراسخ — بعض حيوانات وأشياء مختلفة، فحدثته نفسه
بالحصول على غنيمة هائلة ، ولم يكن ذا رتبة في الجيش مما مكّنه أن يفعل
ما يريد ، فمضى نحو ما رأى دون أن يستشير الملك ، فلما جمع غنائمه بعضها
إلى بعض هاجمه المسلمون وهزموه شر هزيمة، حتى إنه لم ينج من جميع رفاقه
غير أربعة .

٥٤١ — لم يكد رئيس سنت لازار يعود إلى المعسكر حتى أخذ في
الصياح والدعوة للسلاح ، فذهبت وسلّحت نفسى ، والتمست من الملك أن

(١) لأول مرة ترد كلمة « غزة » في نسخة جونز ، ص ٤٩١

(٢) قصه صاحب سنت لازار (رقم ٥٤٠، ٥٤١) غير واردة في جونز .

يأذن لي بالذهاب إلى تلك البقعة ، فاستجاب لي وأمرني أن أصطحب معي بعض فرسان الداوية والاسبتارية ، فلما أشرفنا على تلك الناحية وجدنا جماعة من المسلمين الغرباء قد نزلت إلى الوادي حيث حاقت الهزيمة بسبب سنت لازار ، وبينما كان هؤلاء الغرباء يسرون بين القتلى هاجمهم رئيس رماة سهام الملك ، وتمت له الغلبة عليهم وقتل أكثرهم قبل أن نصل إليه .

٥٤٢ — وحدث أن اشتبك أحد جنود الملك مع واحد من المسلمين في قتال، وأصاب كل منهما الآخر بضربة من رمحه طرحته أرضاً، فلما رأى ذلك أحد جنود الملك تسلل إلى حصانيهما وتعمد أن لا يراه أحد ، وانطلق بهما بين أسوار مدينة الرملة ؛ وبينما كان سائراً بالحصانين انهار تحته صهريج قديم كان يمشى فوقه ، فسقط هو والجياد الثلاثة التي كانت معه إلى القاع ، وقد أخبرني البعض بقصته فذهبت لرؤيته ، فوجدت أن الصهريج لا يزال ينهار فوقهم وأنهم لن يلبثوا أن يدفنوا تحته . وهكذا عدنا دون أن نفقد شيئاً سوى الخسارة التي أحدثها صاحب سنت لازار .

٥٤٣ — لم يكد سلطان دمشق يعقد الصلح مع أمراء مصر حتى أمر بعودة رجاله من غزوة إليه، فمروا من أمام معسكرنا على مسافة تقل عن فرسخين دون أن تواتيهم الشجاعة بالهجوم علينا رغم ما كانوا عليه من السكثرة العددية ، إذ كانوا في عشرين ألف مسلم وعشرة آلاف بدوي . وحدث قبل أن يحاذوا معسكرنا أن ظل رئيس رماة الملك ورجاله يرقبونهم مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال سويًا حتى لا يأخذونا على غرة .

٥٤٤ — فلما كان يوم عيد القديس يوحنا^(١) الواقع بعد عيد الفصح

(١) وذلك يوم ٦ مايو ١٢٥٣ .

كان الملك يستمع إلى موعظته حين دخل عليه كنيسته فدأى من فريق رئيس رماة السهام وهو في كامل سلاحه، وأفضى إليه أن المسلمين قد أحذقوا بسكبار الرماة . فالتفت من الملك أن يأذن لي في الخروج إليهم ، فلي رجائي وطلب إلى أن أستصحب معي خمسمائة رجل مسلح ، وذكر لي أسماء من أراد أن أصحبهم معي ، فما كدنا نغادر المعسكر حتى كان المسلمون الذين فصلوا بين رئيس الرماة وبين المعسكر قد رحلوا للانضمام إلى أمير من الأمراء كان مرابطاً على رابية صغيرة أمام رئيس الرماة ، ومعه ما لا يقل عن ألف رجل مسلح .

٥٤٥ — وبدأ القتال بين المسلمين وبين جنود رئيس الرماة الذين كانوا يبلغون مائتين وثمانين ، وما كاد الأمير يرى أن الضغط قد اشتد على رجاله حتى بعث إليهم نجدة في أعداد كثيرة ، مسكنت جنودنا من معاودة الانضمام إلى قوات رئيس الرماة الذي رأى اشتداد الضغط على رجاله ، فأرسل لمساعدتهم مائة أو مائة وعشرين مقاتلاً ردوا المهاجمين على أعقابهم .

٥٤٦ — وبينما كنا هناك قام القاصد الرسول وبارونات البلاد الذين ظلوا مع الملك بإخباره أنه أخطأ خطأ جسيماً بتعريضه للخطر ، ونزل الملك عند نصيحتهم ، فأرسل في استدعائي واستدعاء رئيس الرماة أيضاً ففر الترك وعدنا إلى المعسكر ، وتعجب الكثيرون من رجالنا كيف لم يأت العدو لمهاجمتنا ، وقال البعض إنهم لم يهاجمونا لأنهم وجيادهم كانوا يعانون التعب في غزاة التي أقاموا بها قرابة عام .

حسن أسلحة الجيش

٥٤٧ — حين مر هؤلاء المسلمون أمام يافا وبلغوا عكا بعثوا برسالة

إلى صاحب صور وكان في الوقت نفسه كونستابل مملكة بيت المقدس يخبرونه فيها أنهم سيد مرون بساتين المدينة ، إذا لم يبعث إليهم بخمسين ألف بيزنطة ؛ فأجابهم أنه لن يفعل شيئاً من ذلك أبداً ؛ ثم أخذوا في تنظيم كتائبهم ، وانتشروا على طول رمال عكا حتى صاروا جد قريبين من البلد الذي أضحي على مرمى قوس منهم ، فخرج لورد صور من المدينة للدفاع عن مبانيها ، ورابط على جبل القديس يوحنا حيث توجد مقبرة القديس نيقولا ، كما خرج جنودنا من عكا وأخذوا في مشاغبة المسلمين برميهم عن سهامهم وقسيهم .

٥٤٨ — استدعى صاحب صور إليه فارساً جندياً يدعى لورد جون العظيم وأمره بالمضي لا استدعاء عامة الناس الذين خرجوا من مدينة عكا حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر ، وبينما كان يفعل ذلك إذا بفارس مسلم ينادي عليه باللسان العربي ، ويدعوه للمثاقفة إن رغب في ذلك ، فأخبره سيدي لورد جون بأنه يرحب بذلك كل الترحيب ، وبينما كان ذاهباً إلى المسلم لمصارعته التفت إلى يساره فشاهد جماعة قوامها ثمانية [أو تسعة ^(١)] من الترك قد توقفوا ليشاهدوا المثاقفة .

٥٤٩ — وإذ ذاك انصرف عنها الجندي ومضى ناحية الأتراك القلائل الذين كانوا واقفين في هدوء ليشاهدوا اللعب ، ورمى أحدهم برمح رمية استقر الرمح معها في جسده وجنبدله صريعاً ، فلما رأى الآخرون ذلك هجموا عليه وهو راجع ناحيتنا ، وضربه أحدهم بصولجانه ضربة قوية على خوذته الحديدية ، فلما مرّ به هذا التركي ضرب به جون بسيفه على عمامته التي كان يلفها حول رأسه

add. BAL., p. 492, (١)

ضربةً دحرجتها على الأرض ، وكان من عادتهم أن يلبسوا العباء في حروبهم لأنها تحول دون الضربة القوية من السيف .

٥٥٠ — وإذالك وثب عليه تركي آخر وكاد أن يغمد رمحاً فيما بين كتفيه ، لولا أن انحرف السيد جون يساراً حين أبصر الرمح يقصده ، فلما مر الرجل المسلم بسيدى جون ضربه جون ضربةً يسارية خلفية بسيفه في ذراعه ، فأطارت السيف من يده وسط الحقل .

وهكذا عاد لورد جون وأحضر معه رجاله مشاة . وقد جرت جميع هذه الضربات الثلاث الرائعة أمام لورد صور ورجال عكا البارزين وعلى مرأى من جميع النساء اللاتي كن يشاهدن هذا المنظر من أعلا الأسوار .

نهب صيدا

٥٥١ — حينما ترمى إلى سمع هذه الجموع الكثيرة من المسلمين الواقعة أمام عكا ممن لم يجرؤوا على محاربتنا كما علمت ولا على مقاتلة من بعكا ، أقول حين سمعت هذه الجموع أن الملك يعمل على تحصين مدينة صيدا في قوى عسكرية قليلة شرعوا في قصدها . فلما سمع خبر مجيئهم سيدى لورد سيمون دى مونت بليارد رئيس رماة الملك وكبير رجاله في صيدا ارتد إلى قلعة صيدا الشديدة المناعة والمحاطة بالبحر من جميع نواحيها ، وكان ارتداده هذا من وحى بصيرته النافذة ، من جراء عدم وجود قوة كافية لديه تمكنه من مقاومة المسلمين الغزاة ، وأخذ معه داخل القلعة أكبر عدد مستطاع من الناس ، ولكنهم كانوا قلة نظراً لشدة صغر مساحة الحصن .

٥٥٢ — هاجم المسلمون المدينة دون أن يلقوا أية مقاومة ، لأنها لم تكن

مسورة^(١) من جميع نواحيها ، وقتلوا أكثر من ألف رجل من جماعتنا وانطلقوا بما غنموه إلى دمشق ، فلما سمع الملك هذه الأنباء اشتد غضبه [لأن^(٢) المسلمين خربوا كل ما أقامه في صيدا] ولكن هل يجدى غضبه في إصلاح ماجرى ؟ استغل بارونات البلاد غضب الملك لصالحهم ، إذ كان قد جمع عزمه من قبل على الذهاب لتحصين رابية واقعة على الطريق الواصل بين يافا وبيت المقدس حيث كان يقوم على هذه الرابية حصن قديم في أيام المكايين .

٥٥٣ — لم يكن من رأى بارونات البلاد إعادة بناء هذه القلعة ، لأنها كانت على مسافة خمسة فراسخ من البحر ، وهذا هو السبب الذى من أجله لم يكن فى الاستطاعة إرسال الذخائر إليها بحراً دون وقوعها فى أيدي المسلمين الذين كانوا أقوى منا ، فلما جاءت الأنباء إلى المعسكر بتخريب ضاحية صيدا تحدثت بارونات هذه البلاد إلى الملك ، مبينين له أن إعادة تحصين صيدا التى ضربها المسلمون أجدى وأعظم قيمة من بثائه قلعة جديدة ، فوافقهم الملك على رأيهم .

الملك يرفض الذهاب إلى بيت المقدس

٥٥٤ — فى أثناء وجود الملك بيافا جاءه النبأ بأن سلطان دمشق يرحب بذهابه إلى بيت المقدس آمناً سالماً [وكان^(٣) وكان شديد الرغبة فى زيارتها لولا أنه] عقد مجلساً كبيراً فلم يوافق فيه أحد من الحاضرين على ذهابه إلى بيت المقدس لأنه بذلك العمل سيجعل المدينة فى أيدي المسلمين .

(١) فى نسخة BAL., p.493 «لأن أسوارها لم تكن قد كملت بعد» .

(٢) الإضافة من النسخة السابقة، ص ٤٩٣ .

(٣) Add. BAL., p. 493.

٥٥٥ — وضربوا للملك مثلاً على ذلك بما فعله الملك فيليب العظيم عند رحيله من عكا إلى فرنسا، حيث كلف رجاله جميعاً بالبقاء في الجيش مع الدوق هيج دي برجنديا : جد الدوق المتوفى حديثاً ، وحدث في أثناء إقامة الدوق ورينشارد ملك إنجلترا في عكا أن جاءت الأنباء باستطاعتهم الاستيلاء على بيت المقدس غداً إن شاءوا ، نظراً لعودة جميع فرسان سلطان دمشق^(١) إليه لمساعدته في حروب ضخمة بينه وبين أحد^(٢) السلاطين الآخرين ، ومن ثم فقد انقسم رجالنا قسمين : أحدهما بقيادة ملك إنجلترا ، وثانيهما بقيادة دوق برجنديا وجميع عسكر ملك فرنسا .

٥٥٦ — وبينما كانوا يدبرون خطة الاستيلاء على المدينة وفد على ملك إنجلترا رسول من معسكر دوق برجنديا يفيد بأن الدوق لن يتقدم خطوة ، بل إنه صرّده إلى الوراء غيراً من أن يقال إن الأنجليز استولوا على بيت المقدس .

وبينما كانوا يتباحثون في هذا الأمر تقدم أحد فرسان الملك منه وقال له : « مولاي ، تقدم إلى هناك فسأريك الطريق إلى بيت المقدس » ، فلما سمع الملك ذلك رمى سترته الحربية وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، [ورفع يديه إلى السماء^(٣)] . « ها تفأ بسيدنا » أيها السيد الرب الحنون ، أتوسل إليك ألا تريني مدينتك المقدسة إن لم أكن قادراً على تخليصها من أيدي أعدائك ! » .

(١) في op. cit. p. 494 « فرسان مصر إلى سلطان دمشق » .

(٢) في op. cit. Loc. cit. « لمساعدة سلطان دمشق في حربه ضد سلطان هذا البلد » .

(٣) الإضافة من جونز ، ص ٤٩٤ .

٥٥٧ — ضرب البارونات هذا المثل للملك ، لأن ذهابه للحج — وهو أقوى ملوك النصرانية — قبل أن يخلص المدينة من أيدي أعداء الرب — سيحمل من يليه سن الملوك والحجاج على الاقتداء بالحج ، اقتداءً بما فعله ملك فرنسا دون التفكير في العمل على إنقاذ بيت المقدس .

٥٥٨ — وقام الملك ريتشارد بكثير من الأعمال الباسلة حينما كان في الأراضي المقدسة ، حتى إن جياد المسلمين كانت إذا خافت من أي غابة صاح بها راكبوها « هل تظنون أن فيها ريتشارد ملك إنجلترا ؟ » .

وكان أطفالهم إذا بكوا صاحبت بهم أمهاتهم « أسكتوا وإلا ذهبنا وجئنا لكم بالملك ريتشارد فقتلكم^(١) » .

...

هيج الثالث دوق برجنديا

٥٥٩ — كان دوق برجنديا — الذي حدثتك عنه حالا — فارساً عظيماً جداً ، بارعاً في الحرب ، لكنه لم يكن كريماً عاقلاً تجاه الرب أو الناس ، ويتجلى هذا بوضوح مما روينا عنه آنفاً . لذلك فإنه لما قيل للملك فيليب المعظم أن كونت جون دي شالون قد رزق غلاماً سماه هيج باسم دوق برجنديا قال إنه يأمل أن ينشئه رجلاً جسوراً كاللوق .

٥٦٠ — فلما سأله لماذا لم يقل رجلاً فطنا مثله قال « لأن هناك فارقاً كبيراً جداً بين الجسور والفطن ، لأنه يوجد كثير من الفرسان الجسورين

(١) راجع فقرة رقم ٧٧ .

في البلاد النصرانية وفي بلاد المسلمين ممن لم يؤمنوا أبداً بالرب وبأمره ، ، لذلك
فإنى أخبركم أن الرب يهب هبة عظيمة ويعطي رحمة خاصة للفارس المسيحي الذي
يمنحه قوة بدنية كبيرة ، ويبقيه في الوقت ذاته في خدمته ، حافظاً إياه من الخطيئة
المهلكة ، ومثل هذا الفارس الذي يسيطر على نفسه يجب أن يسمى بالمنعم عليه ،
لأن هذه القوة إن هي إلا منحة من الرب ، وهؤلاء الذين تكلمت عنهم من
قبل قد يسمون بالفسورين لأنهم أقوياء في أجسادهم ، ولكنهم لا يخافون
الرب ولا يرهبون المعصية .

تقوية يافا والرحيل إلى صيدا

٥٦١ - - ليس من الملائم أن أتكلم عن المبالغ الضخمة التي صرفها
الملك في تحصين يافا لأنها أكبر من أن تعد ، فقد حصن كل الناحية الواصلة
بين طرفي ساحل البحر ، وأقام بها أربعة وعشرين برجاً ، وكسى الخنادق
بالطين من الداخل والخارج ، كما أقام ثلاثة أبواب ، أقام القاصد الرسول بنفسه
واحداً منها مع جزء من السور .

٥٦٢ - - ولكي ترى ما تكلفه الملك يجب أن تعرف أنني استفسرت من
القاصد الرسول عن المبالغ التي صرفه لإقامة هذا الباب وهذا الجزء من السور ،
فسألني وما ظني؟ فقلت أكبر الظن أن الباب وحده كلفه خمسمائة دينار، وأن
هذا الجزء من السور كلفه ثلاثمائة دينار، فأخبرني - قواه الله - أن الباب والحائط
معاً كلفاه ثلاثين ألف دينار .

رحيل الملك إلى صيدا

٥٦٣ - - ولما فرغ الملك من تحصين يافا اعتزم الذهاب لإعادة تحصين
مدينة صيدا التي دمرها المسلمون ، وشرع في ذلك يوم الإحتفال بعيد القديس

بطرس وبولص^(١) ، وبات الملك وجيشه تلك الليلة أمام صور الشديدة التحصين .

وفي تلك الليلة ذاتها دعا الملك رجاله جميعاً وأخبرهم أنه ماض - إن قبلوا - لأخذ مدينة من المسلمين يسمونها نابلس ، وهي التي وردت في الكتب القديمة باسم Samaria .

٥٦٤ - فأجمعت الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد على تحبيذ فكرته في محاولة الاستيلاء على المدينة ، لكنهم رأوا ألا يذهب هو بشخصه حتى لا تضيع الأراضي المقدسة بأجمعها إن حدث له حادث ، فقال لهم إنه لا يجوز له الذهاب دون موافقتهم ، ومن ثم بقي هذا المشروع معطلا ، لأن بارونات البلد لم يوافقوا على ذهابه بنفسه .

٥٦٥ - تابعنا سفرنا حتى جئنا رمال عكا حيث عسكر الملك والجيش ، وجاءني في هذا المكان جمع كبير من أهل أرمينيا الكبرى كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس للحج ، بعد أن دفعوا ضريبة^(٢) كبيرة للمسلمين الذين كانوا يدلونهم على الطريق .

وطلبوا مني بواسطة مترجم يعرف لغتهم ولغتنا أن أدأهم على الملك القديس .

٥٦٦ - فذهبتُ إليه حيث كان جالسا في دهليزه مفترشا الرمل دون سجادة أو أى شيء آخر تحته وقلت له : « مولاي ، يوجد خارج هذا الفسطاط

(١) هو يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٥٣ .

(٢) خلت نسخة Jones, p. 496 من الإشارة إلى دفعهم المال للمسلمين .

عدد كبير من أهالي أرمينيا الكبرى في طريقهم إلى بيت المقدس ، وقد
توسلوا إلى يامولاي أن أمكنهم من رؤية الملك القديس ، ولكن ليس عندي
رغبة حتى الآن أن يقبل الناس عظامك .

فضحك ضحكاً عالياً ، وطلب مني أن أذهب لإحضارهم ، ففعلت ما أمرني
به ، فلما رأوا الملك دعوا له الله ودعاه هو أيضاً لهم .

٥٦٧ — فلما كان اليوم التالي نزل الجيش في مكان يسمى « بمعبر الجيش »
حيث يحلوا طعم الماء كل الحلاوة ، ويروون من هذا الماء حقول قصب السكر ،
وإذ كنا معسكرين جاءني أحد فرساني وقال لي : « لقد أنزلتك اليوم في مكان
أطيب من المكان الذي نزلته بالأمس » .

وإذ ذاك وثب عليه غاضباً فارس آخر كان هو الذي اختار لي مكان
الأمس وصاح به : « لقد جاوزت قحتك الحد في الكلام عن كل ما أعمله » ،
ثم جذبه من شعره جذبة قوية ، فوثبت عليه أنا الآخر بدوري ، ولكمته بين
كتفيه فتركه من يده ، وقلت له « أخرج سريعاً من معسكري ، فلن تكون بعد
اليوم — بعون الرب — واحداً من أتباعي » .

٥٦٨ — ابتعد الفارس وقد ارتسمت عليه دلائل الحزن والأسى الشديدين ،
وأحضر إلي السيد چيل دي برون كونستابل فرنسا الذي راح يلتبس مني
إعادته إلى ما كان عليه من الخدمة ، لما رآه من ندمه الشديد على الحماقة التي
ارتكبها ، فقلت له إنني لا أستطيع رده إلى خدمتي إلا إذا أحلني القاصد
الرسولي من يميني التي أقسمتها لأنه كان يميناً معقولا ، لأن الفارس كان يستحق
العقاب .

ولقد زويت لك كل هذه الأشياء كي لا تقسم يميناً ربما لا يكون من الملائم قطعه ، إذ كما يقول الرجل العاقل « من يقسم سريعاً يستخف الحنث بيمينه » .

الحملة على بانياس

٥٦٩ — ذهب الملك في اليوم التالي فمسكر أمام مدينة صور الواردة في الإنجيل باسم تير Tyre ، حيث جمع الملك إليه كبار رجالات الجيش وسألهم إذا كان من الخير أن ينهض للاستيلاء على مدينة بانياس قبل ذهابه إلى صيدا ، فاتفق رأينا على أن ينهض إليها رجاله وحدهم ، ولم ينصحه أحد قط بالذهاب إليها بنفسه .

وتطلب ثنيه عن عزمه صعوبة قصوى ، وأخيراً تم الاتفاق أن يمضى إليها كونت أو Eu وفيليب دي مونتفورت وصاحب صور وجيل لي برون كونستابل فرنسا وسيدى بطرس كاتم السر ورئيس الداوية وإخوانه فرسان المعبد ورئيس الاسبتارية وإخوانه الفرسان أيضاً .

٥٧٠ — فلما أرخى الليل سدوله زحفنا مسلحين ، وجئنا بعد قليل من انبلاج النهار إلى سهل ممتد أمام المدينة المسماة بانياس والمسماة في العهد القديم بقيصرية فيليب Caesarea Philip .

وفي هذه المدينة نبع ماء يسمونه الأور Jor ويوجد في وسط السهل الواقع أمام المدينة نبع آخر جميل جداً يسمونه « دان Dan » ، وحين يلتقى النهران الخارجان من هذين النبعين يكونان نهراً يسمونه الأردن وهو النهر الذي عمد فيه المسيح .

٥٧١ — تم الاتفاق بين الداوية وكونت أو^(١) والاسبتارية وبارونات البلد الحاضرين ، على أن يقف فريق الملك — الذى كفت فيه إذ ذاك — مع الفرسان الأربعين الذين جاءوا من شمبانيا واستبقاهم الملك فى خدمته وجعلهم فى فرقتى أقول اتفقوا على أن يقف فريق الملك ولورد جوفرى دى سارجين الصالح بين القلعة والمدينة ، وأن يدخلها بارونات من البلاد [وملاك الأراضى^(٢)] من ناحية الشمال ، ويدخلها الاسبتارية من ناحية اليمين، ويدخلها الداوية مباشرة من أمامنا عن الطريق الذى جئنا منه .

٥٧٢ — ثم تقدمنا إلى الأمام حتى صرنا أمام المدينة ، فوجدنا أن المسلمين الذين بها قد هاجموا عسكر الملك وأخرجوهم منها [ووجدت^(٣) كثيراً من رجالنا قد لاقوا منيتهم على أيدي المسلمين الذين طرحوهم على الأسوار] .

فلما^(٣) رأيت ذلك جئت إلى الرجال الأفاضل الذين مع كونت « أو » وقلت لهم « أيها السادة ، إذا لم تذهبوا إلى حيث أُرْمَرْنَا بالذهاب — أعنى بين المدينة والحصن — فسوف يفتك المسلمون بجميع رجالنا الذين دخلوا المدينة » :

وكان طريقنا بالغ الخطورة وكان السكان الذى نحن ذاهبون إليه محفوفاً بالخطر ، فكان هناك ثلاثة أزواج من الأسوار التى لا بد من اجتيازها ، وكانت السفوح شديدة الانحدار حتى كان من الصعب على الحصان الاحتفاظ بموقع

(١) لم يرد اسم كونت «أو» فى نسخة جونز، ولكن ورد بدلا منه اسم «كونت أنجو»، كذلك خلت هذه النسخة من الإشارة إلى بارونات البلد .

(٢) الإضافة من نسخة جونز ، ص ٤٩٨

(٣) ابتداء من هذه الكلمة حتى نهاية خطاب جوانفيل غير وارد فى نسخة جونز .

خوافره ؛ كما أن الناحية التي نرغب في احتلالها كانت غاصّة بالترك على ظهور جيادهم .

٥٧٣ - وبينما كنت أتحدث مع كونت « أو » وفرسانه رأيت أن جنودنا المشاة شرعوا في تحطيم الأسوار، فقلت لمن كنت أخاطبهم إنه صدرت الأوامر بأن يزحف فريق الملك إلى حيث يقف الترك وأنه يتحتم على الذهاب ، فاستدريت أنا واثنان من فرساني شطراً أولئك الذين كانوا يهدمون الأسوار ، فأبصرت جندياً على حصانه فكر في الوثوب فوق السور فسقط هو وسقط فرسه فوقه ، وإذ ذلك ترجلت عن جوادى : وأخذته من مقوده ، ثم شاء الله أن يفر الترك من هذا المكان الذي كان علينا احتلاله حالماً أبصرونا قادمين عليهم .

٥٧٤ - حين بلغنا هذا المكان - وكان الترك قد رحلوا عنه - أخذ المسلمون الذين كانوا بالمدينة يهرقون الإرم ، وما لبثوا أن تركوا المدينة لرجالنا دون مقاومة، وبينما كنت واقفاً في ذلك المكان إذ سمع مارشال الداوية بما أنا فيه من خطر: فصعد الرابية مفتشاً عني ، كما قام بالبحث أيضاً جماعة من الألمان الذين في كتيبة كونت أو ؛ فلما أبصروا الترك على ظهور جيادهم مغذّين الخطى نحو القلعة تحرّكوا زاحفين خلفهم ، فقلت لهم : « أيها السادة ، إنكم تنكبون الطريق السوى ، لأننا هنا مقيمون حيث أمرنا أن نكون ، ولكنكم - بمتابعتكم إياهم - تخالفون الأوامر الصادرة إليكم » .

٥٧٥ — تسمى القلعة المشرفة على المدينة بقلعة الصببية^(١). وهي واقعة على مسافة نصف فرسخ من جبال لبنان ، كما أن التل الذي يصعد إلى القلعة تتناثر فيه الصخور الضخمة تناثراً أشبه ما تكون فيه بالأكوام الكبيرة ، فلما أدرك الألمان ما في تعقبهم العدو من حماقة قفلوا راجعين ، فلما رأهم المسلمون إذ ذاك هاجوهم مشاة ، وأخذوا يضربونهم من قمم الصخور ضربات قوية بصولجاناتهم ، ويجذبون الأغطية من فوق جيادهم^(٢).

٥٧٦ — أخذ الخوف يتسرب إلى نفوس من معنا من الجند حينما شاهدوا ما حلّ بالألمان من بليّة ، ولذلك أخبرتهم أنهم إذا ترحلوا عن موضعهم وتركوا الميدان نزعتهم بعدئذ نهائياً من تحت الذين يتسلمون رواتب من الملك ، فقالوا إلى : « أيها السيد : إن كفتينا غير متكافئين ، فإذا تحتمّ الإفراق كان الأمر يسيراً عليك لأنك راكب جواداً ، أما نحن فمشاة ، وإذا ذاك يقتلنا المسلمون » ، فقلت لهم : « أيها السادة ، أقسم لكم أنني لن أفر بل سأبقى مترجلاً معكم » ، ثم ترجلت من على ظهر حصاني ، وبعثت به إلى الداوية الذين كانوا على مسافة رمية سهم وراءنا .

وفي أثناء ارتداد الألمان رمى المسلمون واحداً من فرسانى واسمه جون دى بوسى بسهم في حنجرتة فسقط مجندلاً صريعاً أمام ناظري ، وإذا ذاك قال لي

(١) لم يرد اسم هذه القلعة في جونز ، ص ٤٩٩ .

(٢) جاء بعد ذلك في نسخة جونز ، ٤٩٩ « واضطربت صفوفهم فعادوا إلى حيث كنت واقفاً » .

ابن عمه هيج دى إسكوت الذى برهن على شجاعته فى الأرض المقدسة :
« سيدى ، تعال ساعدنا فى حمل ابن عمى إلى الورا » فقلت له : « لتكن البلية
نصيب من يعاونك . لأنك ذهبت إلى هناك دون أمرى ، وإذا كان ثم شر قد
جاق بك فإنك تستحقه ، ألا فاحمله ووسّده الخندق ، أما أنا فلن أبرح مكانى
هذا حتى يبعثوا فى التفتيش عنى » .

٥٧٨ — ولما سمع جون دى فالستين بما نحن فيه من خطر جاء إلى
أوليثر دى تيرم وإلى غيره من زعماء لانجدوك وقال لهم : « أيها السادة ، إننى
أتمن منكم وأمركم باسم الملك أن تساعدونى فى إعادة الصنجيل » ، وبينما كان
يبذل جهده فى هذا السبيل جاءه [فارس ^(١) اسمه] وليام دى بيمونت وقال له :
« إنك تتعب نفسك بلا جدوى لأن الصنجيل قد مات » ، فأجابه : « لا بد
من أن أحمل خبره إلى الملك حياً كان أو ميتاً » ، ثم تابع سيره إلى أن جاء إلى
مكاننا على قمة الجبل ، وما كاد يقرب منا حتى بعث إلى طالباء الذهاب إليه
ومحادثته . فلبيت طلبه .

٥٧٩ — بعدئذ قال لى أوليثر دى تيرم إننا كنا فى خطر عظيم لأننا لو
نزلنا عبر الطريق الذى جئنا منه فلا بد من أن نتحمل خسارة طائلة جداً لأن
التل شديد الانحدار ، ولا بد للمسلمين من الهجوم علينا ، وقال لى : « لكن إذا
أنصت إلى فإننى دالك على طريق للنجاة يخلصك من التهلكة » : فسأته
الاستمرار فى كلامه ، وسأفعل ما يريد .

٥٨٠ — قال : سأخبرك كيف تستطيع النجاة ، إننا سنذهب جميعاً على

(١) الإضافة من جونز ، ص ٥٠٠ .

طول هذا المنحدر كما لو كنا ذاهبين إلى دمشق، وسيظن المسلمون الذين تراهم أمامك أننا نريد مباغتتهم من الخلف ؛ لكننا لانكاد نصير في هذه السهول حتى نبادر فندور حول المدينة ، وسنمر فوق النهر قبل أن يستطيعوا الصعود إلينا ، وحينذاك نستطيع أن نكبدهم ضرراً بليغاً ، فنضرم النار في تلال القمح المدروسة الموضوعة وسط تلك الحقول .

٥٨١ - ففعلنا ما اقترحه علينا ، ثم إنه أمر بجمع الأعواد التي تشبه قصب الغاب المستعمل في صنع المزامير ، وأضرم فيها النيران ، ثم ألقى بهذه العيدان بين القمح المدروس ، وهكذا مكنتنا نصيحة أوليشردي تيرم من العودة سالمين بعون الله . ويجب أن تعرف أننا حينما رجعنا إلى المعسكر حيث كان رجالنا وجدنا أن الجميع قد خلعوا عنهم لباس الحرب . وهكذا عدنا في اليوم التالي إلى صيدا حيث يوجد الملك .

...

دفن قتلى صيدا وصدقة جوانثيل وأو

٥٨٢ س [حينما^(١) عدنا إلى صيدا] وجدنا الملك ذاته قد أمر بأن تدفن في الحال جثث النصاري الذين قتلهم المسلمون ، كما اشترك هو بنفسه في حمل الجثث العفنة النتنة دون أن يسد منخاريه كما يفعل الآخرون . كذلك أمر بجلب العمال من جميع النواحي ، وأخذ نفسه بتقوية المدينة بالأسوار العالية والأبراج الضخمة ، حتى إذا بلغنا المعسكر وجدناه قد عاين بنفسه الأما كن التي نعسكر فيها ، وجعل^(٢) مكاناً قريباً من مكان كونت « أو » ، لما كان يعرفه من إيثاره لصحبتى .

(١) الإضافة من عندنا للربط وتسلسل العبارة .

(٢) نسخة جونز ناقصة من هذه الكلمة حتى نهاية الفقرة رقم ٥٨٣ .

٥٨٣ - وسأخبرك بمداعبات كونت « أو » لنا ، فلقد أقمت بيتاً آكل فيه أنا وفرسانى على ضوء الباب الذى كان متجهاً إلى ناحية معسكر الكونت الذى كان شديد الذكاء ، فصنع آلة صغيرة يستطيع بها رمى الحجارة فى يدي ، فكنا إذا جالسنا إلى الطعام تسلل وهياً آلتها على هيئة تكون فيها مسددة إلى مائدتنا ؛ ثم يشرع فى رمى الحجارة فيكسر أوعينا ويحطم أكوابنا الزجاجية ، وكنت قد موّنتُ نفسى بالدجاج والديكة ، وحدث أن أعطاه واحد لست أعرف اسمه دجاً صغيراً ، فكان يدفعه للهجوم على طيورى ، حتى لقد قتل منها اثنتى عشرة واحدة قبل أن يأت أحد إليها ، فعمدت المرأة التى تقوم بحراسة الطيور إلى قتل الدب بمغزها .

• • •

استيلاء التتار على بغداد

٥٨٤ - بينما كان الملك مشغولاً بتحسين صيدا وفدت على المعسكر قلة من التجار ، ذاكرين لنا خبر استيلاء ملك التتار على مدينة بغداد وأسره خليفة المسلمين صاحب المدينة والمسمى بخليفة بغداد ، وقد قص علينا التجار طريقة استيلاء التتار على مدينة بغداد وعلى الخليفة ، فذكروا أن ملك التتار - حين محاصرتة المدينة - بعث إلى الخليفة يفهمه أنه يرحب بتزواج أبنائهما ، فنصح الخليفة مشيره بقبول هذا الزواج .

٥٨٥ - ثم إن ملك التتار سأل الخليفة أن يبعث إليه بأربعين شخصاً من أهل الرأى عنده وكبار رجالاته لإتمام مراسيم الزواج ، فلبى الخليفة طلب الملك الذى سأله مرة أخرى أن يبعث إليه بأربعين آخرين من أثرى رجاله

وأعقلهم ، فاستجاب له الخليفة . ثم عاود الملك التتارى السؤال مرة ثالثة حين طلب منه أن يوفد إليه أربعين من أحسن أصحابه ، ففعل الخليفة .

فلما رأى ملك التتار أن جميع زعماء المدينة صاروا فى قبضة يده أيقن أن من دونهم من فى المدينة من الأذنان والحواشى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم من غير الرءوس ، وإذ ذاك أمر بقطع رقاب هؤلاء المائة والعشرين شخصاً ، وشن هجوماً على المدينة أخذها فيه كما أخذ الخليفة أيضاً .

ولسكى يغطى ملك التتار خيانتة ويلقى تبعة ضياع المدينة على الخليفة أمر بوضعه فى قفص من حديد ، ومنع الطعام عنه أطول مدة على أن لا يؤدى به ذلك المنع إلى الموت ، ثم سألته عما إذا كان جائعاً فأجاب الخليفة « أى نعم » ، ولم يكن فى ذلك شئ من العجب ، وإذ ذاك أمر ملك التتار أن يأتوا له بوعاء كبير من الذهب ملىء بالجوهرات والأحجار الثمينة وسأله : « ألا تعرف هذه الجواهرات ؟ » فقال « بلى ، لقد كانت لى » ، فسأله عما إذا كان يهواها تماماً ، فرد عليه بالإيجاب .

٥٨٧ — فقال له الملك : « أما وقد وكنت شديد الحب لها فتناول منها الآن ما تراه ملائماً لك وكله » ، فأجاب الخليفة أنه لا يستطيع ذلك إذ لم تكن طعاماً فتؤكل ، وحينذاك قال له ملك التتار : « ها أنت ذا الآن ترى ما هى وسائل دفاعك التى كنت تصطنعها ، لأنك لو كنت قد بذلت هذه الأموال — التى لا تغنيك الآن شيئاً — على من لديك من المقاتلة لأمكنك الدفاع عن نفسك الآن ضدنا ، وماهى ذى ثروتك لم تفدك أبداً فى وقت محنتك » .

٥٨٨ — (١) بينما كان الملك يعمل في تحصين مدينة صيدا ذهب إلى قداسه في البكور ، فطلب إلى أن أنتظره حيث إنه يريد الركوب للنزهة ففعلت ما طلبه ، حتى إذا أصبحنا في الخلاء جئنا أمام كنيسة صغيرة ، ورأينا ونحن على ظهور الجياد قسيساً يرتل القداس ، فأخبرني الملك أن هذه الكنيسة قد بنيت تعظيماً للمعجزة التي تمت على يد الرب حين طرد الشيطان من جسد ابنة المرأة الأرملة ، ثم ذكر لي أننا نستطيع الذهاب لسماع القداس الذي كان القديس قد بدأه ، إذا ما رغبت في ذلك ، فقلت له إن هذا أمر بطيب لي عمله .

٥٨٩ — فلما جاء وقت إعطاء « السلام » أبصرت القس الذي كان يساعد في ترتيل القداس ، وكان ضخيم الجثة أسود البشرة هزيلاً خشن الشعر ، فخفت أن يطبق « السلام » على الملك فيبرهن على أنه حشاش ووغد زعيم فيقتل الملك ، ومن ثم فقد ذهبت وأخذت « السلام » من القس وأحضرت له الملك ؛ فلما فرغ ترتيل القداس وعدنا إلى ظهور جيادنا وجدنا القاصد الرسول في الحقول ، فذهب الملك إليه وناداني وقال للقاصد « إنني أشكو إليك الصنجيل الذي أحضر لي « السلام » ولم يمكن القس الفقير من إحضاره بنفسه إلى » .

٥٩٠ — فأخبرت القاصد الرسول بالسبب الذي حماني على ذلك فقال نيافته إنني أحسنت صنعا فقال الملك « الحق أقول : كلا ! » .

ثم قام جدال طويل بينهما هما الاثنان وبقيت أنا ساكناً .
ولقد قصصت عليك هذه القصة لتقف على مبلغ تواضع الملك العظيم .

(١) ابتداء من هذه الفقرة حتى نهاية فقرة ٥٩٦ غير وارد في نسخة جونز .

ولقد تسلم الإنجيل عن تلك المعجزة التي أجراها الرب على ابنة الأرملة ،
حيث جاء فيه إن السيد — حين إنجازه تلك المعجزة — كان في أرض صور
وصيدا ، ولهذا فقد قلت إن المدينة التي أسميها بصور كانت تسمى Tri والمدينة
التي أسميها صيدا كانت تعرف باسم Sydoine .

رسل صاحب طرابيزون ومقدم الملكة إلى صيدا

٥٩١ — بينما كان الملك يعمل في تحصين صيدا وفد عليه سفراء من قبل
أحد كبار سادة أعماق بلاد اليونان يسمى نفسه كومنين العظيم وهو صاحب
طرابيزون ، وقدموا إلى الملك هدية من الجواهرات المختلفة ، وكان من بين
ما أحضروه إليه أقواس من أعواد خاصة وقد ثبتت نهايات سامير القلاووظ
إلى الأقواس فإذا أطلقت المسامير كانت حادة جداً ، وكانت حسنة الصنعة
جداً (١) .

٥٩٢ — طلب هؤلاء الرسل من الملك أن يبعث بأميرة من قصره ليتزوجها
سيدهم ، فقال الملك إنه لم يجلب معه أية واحدة من بلاده ، وأشار عليهم بالتوجه
إلى ابن عمه ، إمبراطور القسطنطينية ، وأن يسأله زوجة لولاهم تكون من أسرة
الملك [لويس] وأميرة الإمبراطور ، وقد أشار الملك بذلك عسى أن يتم التحالف

(١) وردت هذه العبارة في الأصل على الصورة التالية :

“ Li apportèrent ars de cor, dont les coches entroient a vis
dedans les ars; et quant on les sachoit hors, si trouvoit l'on que
il estoient dehors mout bien tranchant et mout bien fait”.

وقد أشار ويللى إلى غموض هذه العبارة في نسخة أخرى من المخطوطة ، وأهملت ترجمتها
نهائياً بالنسخة التي ترجم عنها جونز كما يستدل من الحاشية السابقة .

بين الامبراطور وبين [كومنين] هذا الرجل القوي الثرى ضد عدوه Vataes الذى كان إذ ذاك إمبراطور الإغريق .

٥٩٣ — وصلت إلى صيدا بطريق البحر الملكة التى كانت قد نكحت أخيراً بعد أن ولدت فى يافا الليدى بلانش، فلما سمعت نبأ قدومها قتت من أمام الملك وذهبت لمقابلتها وقُدتها إلى القلعة .

٥٩٤ — فلما عدت إلى الملك الذى كان فى كنيسة سألنى عما إذا كانت الملكة وأطفاله فى صحة جيدة فأجبتته أى نعم، فقال « عرفت — حين قتت من أمامى — أنك ماض لمقابلة الملكة ، لذلك أمرت بتأخير الموعظة حتى تحضر » .
ولقد أخبرتك بكل هذه الأشياء لأنه كان قد مضى لى معه حتى ذلك الحين خمس سنوات لم يتكلم خلالها معى أو مع غيرى — كما علمت — عن الملكة وأطفاله ، ولذلك يظهر لى إنه لم يكن من اللائق أن يبدو المرء كالغريب تجاه زوجته وأطفاله .

. . . .

أبناء الفارس الفقير الأربعة

٥٩٥ — وفى يوم عيد جميع القديسين ^(١) دعوت جميع كبار رجال المعسكر إلى بيتى المجاور للبحر، وحدث فى أثناء تناولنا الطعام أن قدم على ظهر إحدى السفن فارس فقير مستصحبا معه زوجته وأبناءهما الأربعة ، فأمرت بإطعامهم فى بيتى حتى إذا فرغنا من تناول الطعام دعوت جميع من كانوا به

(٢) وذلك يوم أول نوفمبر ١٢٥٣ .

من وجوه الرجال وقلت لهم « هيا بنا نركب زكاة جليلة ، فنمد يد الغوث إلى هذا الرجل الفقير في أولاده الأربعة ، فيأخذ كل واحد منا واحدا وآنذا اننا رابعهم » . فراحوا يتشاجرون فيما بينهم على أخذ أبنائه ، فلما رأى الفارس الفقير ماجرى بكى هو وزوجته فرحاً .

٥٩٦ — وحدث أن كان كونت «أو» عائداً بعد تناول الطعام في معسكر الملك فرأى الرجال العظام الذين كانوا في خيمى ، فأخذوا الطفل البالغ من العمر اثنى عشر ربيعاً ، فأحسن الطفل خدمة الكونت وأخلص له ، حتى إننا بعد عودتنا إلى فرنسا رأى الكونت أن يزوجه وينصبه فارساً .

وما من مرة حضرت مجلس الكونت إلا ولازمنى هذا الفارس ، وأبى أن يتركنى قائلاً : مولاي أنا بك الله على صنيعك الذى فعلته معى ، لأننى مدين لك بما أنا فيه الآن من نعمة .

أما أشقاؤه الثلاثة الآخرون فلست أعرف عنهم شيئاً .

• • •

حج جواناتيل

٥٩٧ — سألت الملك ذات يوم أن يأذن لى فى القيام بالحج إلى مقام سيدتنا سيدة طرطوشة ، وهو مكان فسيح جداً للحج ، إذ أنه البقعة التى أقيم فيها أول مذبح على وجه البسيطة إجلالاً لأم الرب ، وقد أظهرت سيدتنا كثيراً من المعجزات ، منها أنه كان يوجد رجل مخبول قد سكن الشيطان جسده ، وبينما كان أصدقاءه الذين جاءوا به إلى هذا المقام يصلون لأم الرب التماساً لمعافاته رد عليهم « العدو » السكامن فى جسده قائلاً : « ليست سيدتنا هنا ، لكنها فى مصر

تمد العون إلى ملك فرنسا وإلى النصارى الذين سينزلون إلى البر اليوم وهم مشاة ضد الأعداء الذين يمتطون صهوات النيل .

٥٩٨ — انقضى هذا اليوم وهم يدونون ما سمعوا ، فلما فرغوا من الكتابة جاءوا بها إلى القاصد الرسول الذى روى لى هذه القصة بلسانه هو ذاته ، ولتكن واثقا من أن سيدتنا قد ساعدتنا فى ذلك اليوم بالذات ، وكان لها أن تدأب على مساعدتنا لولا أننا أغضبناها هى وابنها كما رويت لك من قبل .

٥٩٩ — أذن لى الملك أن أذهب وطلب إلى شراء مائة قطعة من العبك مختلف ألوانها لتوزيعها على الرهبان الفرنسيسكان عند عودته إلى فرنسا ، فارتاح قلبى إذ ذاك لأننى أدركت أنه لن يبقى فيما وراء البحار مدة أطول مما قضاها .

ولما جئنا إلى طرابلس سألتى فرسانى عما انتوى عمله بالعبك الصوفى والتمسوا منى أن أقص عليهم خبره فقلت لهم « ربما جئت به للكسب^(١) » .

٦٠٠ — وتلقانا أمير طرابلس — رحمة الله عليه — فى فرح عظيم ، وبذل كل ما فى طاقته للاحتفاء بنا ، ولوقبلت أنا وفرنسانى ما أراد أن يصلنا به لى كان ما أخذناه من الهدايا شيئا ضخمًا عظيمًا ، ولبكننا لم نأخذ غير بعض ما لديه من الآثار المقدسة التى أحضرتها إلى الملك مع العبك الذى اشتريته له .

٦٠١ — أضف إلى ذلك أننى أرسلت إلى سيدتى الملكة أربع قطع من العبك ، وكان الفارس الذى قدمه إليها قد لفها فى قماش أبيض ، فلما شاهدته

(١) فى الأصل « ربما كنت قد سرقتك للكسب » ولسكننى آثرت ترجمة ماجاء فى رواية

الملكة داخلا عليها في حجرتها ركعت أمامه فرقع هو الآخر أمامها أيضاً ثم قالت له : « قم أيها الفارس فما ينبغي لك أن تركع وأنت تحمل الآثار المقدسة » فأجابها الفارس « سيدتي ، ليست هذه آثاراً مقدسة ولكنها قطع من العبك الصوفي بعثها سيدي اللورد إليك » ، فلما سمعت الملكة ووصيفاتها ما قال انفجرن ضاحكات ، وقالت الملكة للفارس « قل لسيدك إنني أتمنى له يوماً منكوداً مادام قد حملني على الركوع أمام عبكه » .

٦٠٢ — وبينما كان الملك مقياً في صيدا جاءه أحدهم^(١) بحجر قد تكسر في ندف صغيرة وهو أعجب حجر في العالم بأجمعه ، فإذا أنت قشرت واحدة من هذه الندف وجدت بين الحجرين شكل سمكة بحرية ، والسمكة من الحجر ، ولا ينقصها شيء من عين أو عظم أو لون لتكون شيئاً آخر غير سمكة حية ، فأعطاني الملك واحداً من هذه الأحجار وجدت فيه سمكة بنية اللون على شكل سمكة الشبوط .

موت بلانش وقسوتها على مرجريت

٦٠٣ — تلقى الملك نعي أمه وهو في صيدا فبكاه بكاءً حاراً ، حتى لقد ظل يومين متتالين لم يجرؤ خلالها أحد على محادثته ، ثم أرسل بعدهما أحد خدمه الخصوصيين لاستدعائي ، فلما مثلت أمامه في غرفته حيث كان وحيداً مدت إليّ ذراعيه وقال : أف يا سنكال ، لقد ماتت أمي .

(١) على الرغم من خلو نسخة جواتر من هذه القصة إلا أن المترجم أورد في حاشية ص ٥٠٣ — نقلاً عن نسخة يونانية — أن الذي جاء بهذا الحجر « أحد كبار الشخصيات في مصر » .

٦٠٤ - فأجبتة : مولاي ، لست أعجب من ذلك الحدث فما هي إلا مخلوق لا بد لها من أن تموت ، ولكن عجيبي منك أنت - وأنت الرجل الحكيم - إذا كثرت من الحزن إكثاراً عظيماً ، لأنك تعرف ما قاله الحكيم : مهما يكن الحزن الذي في قلب الرجل فلا ينبغي أن يظهر شيء منه على وجهه ، لأن الرجل الذي يمسى حزنه يُدخل المسرة على قلوب أعدائه ويُحزن أصدقاءه .

ثم بعث الملك إلى مختلف البلاد آمراً بتوزيع الهبات على روح الملكة ، كما أرسل بعدئذ صندوقاً مملوءاً بالرسائل إلى الكنائس في فرنسا لإقامة الصلاة من أجلها .

٦٠٥ - وقد جاءني سيدتي ماري دي فيرتس - وهي سيدة فاضلة جداً وامرأة قديسة - قائلة لي إن الملكة لا تكف عن النحيب الكثير ، وسألتني أن أذهب إليها لمواساتها ، فلما صرتُ بحضرتها وجدتها مستخرطة في البكاء فقلت لها « ما أصدق القائل إنه لا يجوز لأحد ما أن يشق بالنساء ، لأن التي ماتت هي المرأة التي كنت تكريهينها أشد كراهية ، ومع ذلك فأنت تبدين عليها الآن أعرق الحزن » ، فذكرت لي أن بكاءها لم يكن على الملكة ولكن بسبب ما فيه الملك من لوعة وغمة ، وبسبب ابنتها التي صارت فيما بعد ملكة نقارة والتي ستؤول رعايتها إلى الرجال .

٦٠٦ - كانت القسوة التي عاملت الملكة بلانش بها الملكة مرجريت شديدة للغاية ، حتى إنها لم تكن تطيق أن ترى ابنتها في صحبة زوجها ، ولم تكن تسمح له بالذهاب إلى جناحها إلا إذا تأخر الوقت ليلاً وحين وقت نومهما ، وكان الملك والملكة يؤثران الإقامة في قصر Pontoise على الإقامة في باقي القصور

وذلك لوقوع حجرة الملك بالطابق الأعلى ، على حين يقع مخدع الملكة في الطابق الأسفل .

٦٠٧ — كان الملك والملكة قد نظما الأمور فيما بينهما على أن يأخذا في محادثة بعضهما البعض وهما واقفان في سلم دائري يصل بين الحجرتين ، كما رتبنا - زيادة على ذلك - جماعة من الحجاب إذا رأوا الملكة بلانش قادمة إلى حجرة ابنها ضربوا الأبواب بعصيهم ، وإذا ذاك يهرع الملك إلى حجرتة ، حتى إذا جاءت الملكة الأم وجدت ابنها في غرفته .

وكان حجاب حجرة الملكة مرجريت يفعلون نفس الشيء حين تأتي الملكة بلانش إلى حجرتها فتجدها فيها^(١) .

٦٠٨ — وحدث ذات مرة أن كان الملك إلى جوار زوجته الملكة التي خيف عليها من الموت من جراء مرض أصابها إثر وضعها أحد أطفالها ، فجاءت الملكة بلانش وسحبت ابنها الملك من يده وقالت له : « إخرج من هنا فبالك من عمل تؤذيه هنا » ، فلما رأت الملكة مرجريت أن الأم بلانش تقوده إلى الخارج صاحت باكية « ياللاجيم الذي أنا فيه حيث لا تمكيني من رؤية زوجي : حية كنت أم على وشك الموت » . ثم أغشى عليها وظنوا أنها ماتت ، فعاد إليها الملك وقد حسب أنها فارقت الروح وأعادوها إلى وعيها بعد جهد جهيد .

(١) جاءت هذه القصة في نسخة ترجمة جوتز (ص ٥٠٤) على الصورة التالية : إنه حدث في ذات يوم أثناء إقامتهم في قصر Pontoise أن كان الملك مقيما في الطابق الذي يعلو جناح زوجته الملكة ، وكان الملك قد أمر بطائفة إذا رأوا أمه الملكة قادمة وكان هو راقداً مع زوجته أن يضربوا السكاب حتى يعلو نباحها ، فإذا سمع الملك نباحها بادر إلى إخفاء نفسه عن أمه الملكة .

العودة إلى فرنسا

٦٠٩ — حين تم تحصين مدينة صيدا من كل نواحيها تقريباً أمر الملك بإقامة عدة مواكب في المعسكر ، ولما فرغ القوم منها أمر القاصد الرسول بإقامة الصلوات كي يفيض الرب عليه فضله وليستخيره ليرى الخيرة : في عودته إلى فرنسا أم في إقامته حيث هو .

٦١٠ — فلما فرغ القوم من المواكب بعث إلى الملك وكنت جالسا مع وجوه أعيان البلد ، وسار بي إلى أحد المروج حتى إذا صاروا ورأى قال لي القاصد الرسول : « ياسينكال ، إن الملك راضٍ عن خدماتك كل الرضاء ، وإنه مستعد أن يوفر لك الثروة والشرف ؛ ورغبة منه في أن يطمئن خاطرك فقد رغب إلى أن أخبرك أنه قرر الذهاب إلى فرنسا في عيد الفصح^(١) القادم » فأجبتة « الله يهبه القدرة على تنفيذ إرادته » .

٦١١ — ثم نهض القاصد الرسول وطلب إلى أن أصبحبه إلى مخيمه ، فليبت طلبه وأخذني إلى حجرتي الخاصة - نحن الاثنين نحسب - وأخذ يدي بين يديه واستخرط في البكاء الشديد ، حتى إذا هدأت نفسه وطاوعته القدرة على الكلام قال لي : « ياسينكال ، إنني شديد الابتهاج ، وإنني أشكر الرب على أنك والملك وبقية الحجاج تتخلصون من الخطر العظيم الذي كنتم فيه طوال مدة مكثكم في هذه البلاد ، وإن الحزن ليرمضني رمضا أن سأحرم من صحبتكم الطاهرة ، وإنني سأذهب إلى بلاط رومة بين من فيها من القوم الخونة » .

٦١٢ — ثم قال « لبيكني سوف أخبرك ما أظن أنني فاعله ، ذلك أنني

(١) يعني بذلك عيد الفصح ١٢٥٤ م .

أرى الأجدى أن أبقى هنا عاماً بعد رحيلكم ، وأن أصرف كل ما معى فى
تخصين ضواحي عكا ، وبذلك أريهم بوضوح لا إبهام فيه أننى لم أرجع إليهم
بشيء من المال ، وأن يديّ خاويتا الوفاض ، لأن القوم هناك لا يلاحقون من
تربّت يدها » .

٦١٣ — وحدث^(١) ذات مرة أن أخبرت القاصد الرسولى بمخبر خطيئتين
قصهما على أحد قسسى حيث قال لى « لم يتسن لأحد أن يبلغ ما بلغته من معرفة
كل المعاصى المهلكة التى ارتكبها القوم فى عكا ، مما سينتقم له الرب انتقاما
يطهر به المدينة بغسلها فى دم سكانها ، وسوف يأتى قوم آخرون بعدهم
يسكنونها » .

وقد شامت القدرة أن يتحقق جزء من نبوءة هذا الرجل المبارك ، لأن
المدينة قد غسلت فى دماء سكانها^(٢) ، ولكن لم يأت بعد القوم الآخرون الذين
يحلون مكانهم ، وحين يأتون نرجو أن يقدر الرب لهم أن يكونوا مستقيمين
وأن يحكموا أنفسهم وفق مشيئة الرب .

...

جوانثيل والملكة

إبحار الملك

٦١٤ — بعد حدوث هذه الأشياء بعث الملك فى طلبى أمراً إياى بتسليم
نفسى أنا وفرسانى ، فسألته عن السبب فأنبأنى أننى ماضٍ لمراقبة الملكة

(١) هذه الفقرة مأكلها غير واردة فى النسخ الأخرى من المذكرات .

(٢) يشير إلى احتلال المسلمين لإياها عام ١٢٩١ .

وأبنأهما إلى صور التي تبعد عنا مسافة تقرب من تسعة مراحل، فلم أعقب على ما قال بكلمة واحدة، ومع ذلك فإن طلبه كان محفوفا بالخطر لعدم وجود هدية أو صلح إذ ذاك بيننا وبين مصر أو دمشق، ولكن الشكر لله إذ وصلنا جميعاً ليلاً سالمين إلى صور دون أى عائق، رغم أننا اضطررنا للترجل والتوقف مرتين في أرض عدونا، حيث أوقدنا النار لطهى طعام الصغار وإرضاعهم.

٦١٥ - ولما رحل الملك عن مدينة صيدا التي حصنها بالأسوار العظيمة والأبراج القوية والخنادق المنيعه من الداخل والخارج جاءه البطرك والبارونات.

٦١٦ - فلما جاءوا إليه قالوا له: «مولانا لقد حصنت مدينتي صيدا وقيسارية وضاحية يافا مما يعود بأكبر نفع على الأراضى المقدسة، كما قويت مدينة عكا بما شيدته حولها من الأسوار وأقمته فيها من الأبراج، وقد تباحثنا الوضع فيما بيننا يا مولانا، فوجدنا ألا نفع لملكة بيت المقدس يرتجى من طول إقامتك هنا بعد، ومن ثم جئنا ناصحين لك مشيرين عليك أن تنهض إلى عكا في فترة الصوم الكبير القادم، وأن تعد العدة لسفرك حتى تكون قادراً على الرجوع إلى فرنسا بعد حلول عيد الفصح».

فنزّل الملك عند رأى البطرك والبارونات، ورحل عن صيدا وقدم إلى صور حيث كانت الملكة في انتظاره، ثم رحل الجميع من هناك إلى عكا في مستهل أيام الصوم الكبير^(١).

٦١٧ - وفي أثناء هذا الصوم أمر الملك بتهيئة مراكبه للعودة إلى فرنسا

(١) بدأ الصوم الكبير لسنة ١٢٥٤ يوم ٢٥ فبراير.

وكان عنده منها ثلاث عشرة ما بين شينى وغراب ، فأعدت جميعها حتى استطاع الملك والملسكة ركوبها ليلة عيد القديس مرقص بعد عيد الفصح^(١) ، وواتنا الريح طيبة فى رحيلنا .

وقد أخبرنى الملك فى يوم عيد القديس مرقص أنه ولد فى مثل هذا اليوم ، فأنبأته أنه من الآن فصاعداً يستطيع أن يقول إنه ولد مرة أخرى فى هذا اليوم ، إذ لا جدال فى أنه ولد ثانية يوم استطاع النجاة من هذه البلاد الخطرة .

جنوح باخرة الملك

٦١٨ - فلما كان يوم السبت أصبحنا على مرأى من جزيرة قبرص ومن جبل فيها قريب من الساحل يدعونه جبل الصليب ، وغامت سماؤها فى هذا اليوم ، فقد لقيها ضباب كثيف ما لبث أن زحف من اليابسة إلى البحر فاستحالت معه الرؤيا ، حتى لقد ظنّ بحارتنا أننا بعدنا عن جزيرة قبرص أكثر مما كنا ، فتقدموا مبحرين غير حذرين ، حتى اصطدم مركبنا بسلسلة من الصخور الرملية غارقة فى المياه^(٢) ، ولو لم يصطدم بهذا الشاطئ الرملى لكان اصطدامنا أشد بمجموعة الصخور الكبيرة الغارقة التى كان لابد لسفينتنا إذ ذاك من أن تتحطم عليها فنصبح كلنا غرقى هالكين .

٦١٩ - لم تكد سفينتنا تصاب حتى تعالت صرخات من بها وضجوا صائحين « وامصيبتاه ! » ، وعصر ركابها وملاحوها أكفهم خوف الفرق ، فلما سمعت بما جرى نهضت من فراشى وذهبت مع البحارة إلى برج السفينة ،

(١) كان ذلك يوم ٢٤ أبريل ١٢٥٤ .

(٢) راجع الفقرات ١٣، ١٦، ٣٩ .

فسمعت الأخ ريموند - وكان من فرسان الداوية وكبير الملاحين - يقول لواحد من خدمه « ارم الرصاص » ، ففعل الخادم ما أمره به ريموند ، وما كاد يرميه حتى صاح « واأسفاه لقد اصطدمنا بالقاع » ، فلما طرق هذا الصياح سمع الأخ ريموند شد ملابسه إلى حزامه وجذب لحيته وشرع يصيح « واحزنى ، وامصيبتى ! » .

٦٢٠ - وعند ذلك قام أحد فرسانى واسمه جون دى مونسون - وهو والد ولیم رئیس أساقفة دير القديس ميخائيل - وعطف على عطفاً شديداً إذ أحضر لى - دون أن ينبس ببنت شفة - معطفاً مخططاً من معاطف ، وألقاه على ظهري حين أبصر أنه ليس على من الثياب سوى قميص ، فنهفت به قائلاً « وما جدواى بمعطفك الذى جئتني به ونحن غارقون ؟ » فقال لى « والذى نفسى بيده ، إننى أوترى سيدة أن أرانا كلنا غرقى من أن أراك مريضاً من جراء البرد الذى يؤدى بك إلى الموت » .

٦٢١ - وصاح البحارة : « هيه ، أيتها الأغربة ، تعالى وخذى الملك ! » لكن لم يقترب من نقط واحد من أغربة الملك الأربعة التى كانت موحودة هناك ، وحسنوا فعلوا وإلا لتسابق إلى الوثوب عليها التماساً للنجاة ثمانمائة شخص كانوا على ظهر مركبنا ، مما كان يؤدى إلى غرق الأغربة .

٦٢٢ - على أن الخادم الذى كان بيده الرصاص ألقاه مرة ثانية ، ثم عاد إلى الأخ ريمون مخبراً إياه أن السفينة لم تنجح إلى القاع ، فمضى الأخ ريموند مفضياً بهذا النبأ إلى الملك الذى كان ممتدداً على هيئة الصليب على ظهر السفينة حافى القدمين وايس عليه سوى قميصه ، وهو أشعث الشعر وقد رقد أمام تمثال سيدنا الذى كان على السفينة رقدة من يعتقد أنه لا محالة غرق .

لم يكذب يتباجج نور الصباح حتى أبصرنا الصخرة التي كان لابد لنا من الاصطدام بها لو لم تجنح السفينة إلى هذا الرمل .

الملك يرفض مغادرة سفينته

٦٢٣ — وفي الصباح بعث الملك في طلب كبار بحارة السفن الذين أرسلوا أربعة من الغواصين إلى قاع البحر ، فلما عادوا من مهمتهم استقدمهم الملك وكبار الملاحين واحداً بعد واحد مستمعين إلى كل منهم على حدة ، فلم يتسن لأحدهم معرفة ما قاله الآخرون ، وعلى أية حال فقد علم السائلون من الغواصين الأربعة أنه في أثناء احتكاك سفينتنا بالرمل خلع الرمل أربعة وعشرين قدماً من المعونة التي بنيت عليها المركب .

٦٢٤ — حينذاك نادى الملك كبار الملاحين أمامنا وسألهم عما يشيرون به إزاء الصدمة التي أصابت السفينة ، فتشاوروا فيما بينهم ثم نصحوا الملك بمغادرة سفينته والركوب في سفينة أخرى .

٦٢٥ — ثم قالوا له « إننا ننصحك بهذا لأننا متأكدون كل التأكيده من تفككك جميع ما بسفينتك من الألواح الخشبية ، ونحن في شك من أن سفينتك — حين تخرج إلى عرض البحر — ستكون قادرة على مقاومة ضربات الأمواج دون أن تتفتت شذرمذر ، لأنه حدث أثناء قدومك من فرنسا — أن أصيبت إحدى السفن بمثل ما أصيبت به هذه ، فلما صارت في عرض البحر لم تصمد أمام موجه ، فتحطت وهلك كل من بها — وهم كثر — غير امرأة وطفلها كتبت لهما الحياة على رمث من الخشب » .

وأستطيع أن أشهد على صحة هذا القول ، فقد رأيت المرأة ورضيعها في مدينة « ألباف » ، في معسكر كونت جواني الذي آواها محبة في الله .

٦٢٦ — ثم التفت الملك بعدئذ إلى السادة بطرس كاتم السر وجيلي برون كونستابل فرنسا وجرقيه ديسكرين كبير طبأخي الملك وإلى حامل أختامه ورئيس شمامسة نيقوسيا الذي صار فيما بعد كردينالا، كما التفت إلى أيضاً سائلا إيانا جميعا أن نشير عليه بما نراه بشأن ما جرى، فأجبناه إنه يجب على المرء — فيما يتعلق بالأمور الدنيوية — أن يقتصر ويأخذ بما يراه أكثر الناس تمسكاً بها، وقلنا له « وعلى ذلك فإننا نشير عليك — من ناحيتنا — أن تنزل على نصيحة بحارتك لك » .

٦٢٧ — وإذ ذاك قال الملك للبحارة « أستحلفكم بشرفكم أن تصدقوني القول ، هل كان لكم أن تتركوا السفينة إذا كانت ملكا لكم وكانت محملة ببضائعكم ؟ »

فأجابوه بالنفي، إذ كان أهون على نفوسهم أن يعرضوا ذواتهم لخطر الموت غرقا من أن يشتروا سفينة جديدة بأربعة آلاف دينار أو تزيد . فسألهم « وإذن فلماذا تشيرون على بمغادرتها ؟ » فقالوا له « لأن الشبه غير متكامل إذ لا يستطيع الذهب . والفضة أن يقاسا بشخصك أو أشخاص زوجتك وأطفالك الذين على ظهر السفينة ، ولذلك فإننا ننصحك ألا تعرضهم وإياك للهلاك » .

٦٢٨ — وإذ ذاك قال الملك لهم « أيها السادة ، لقد سمعت ما قلتموه وما قاله رجالى ، والآن فإنى مفض إليكم برأى ، ألا وهو أننى إذا تركت السفينة فإن من بها — وهم خمائة فرد أو يزيدون — سوف يبقون فى جزيرة قبرص خوفا على أنفسهم ، إذ لا يوجد من لا يحب ذاته حبي لذاتى أنا ، وإذ ذاك لن يعود هؤلاء بعد هذا الخطر قط إلى بلادهم ، لذلك فإننى أفضل

أن أضع نفسي وزوجتي وأطفالي بين يدي الرب عن أن سبب ضرراً للكثيرين الذين معنا هنا .

٦٢٩ — ويمكن للمرء الوقوف على الضرر الكبير الذي كان لا بد للملك أن يلحقه بمن في سفينته مما حدث لأوليقر دي تيرم الذي كان في سفينة الملك ، فقد كان أوليقر هذا أجراً من وقعت عليه عيناي وبرهن على ذلك إبان وجوده في الأرض المقدسة^(١) ، لكن لم تواته الشجاعة على البقاء معنا خوف الغرق ، فأقام في قبرص حيث عوّق فلم يعد إلى الملك مدة عام ونصف عام ، ومع ذلك فقد كان رجلاً بارزاً ثرياً قادراً على دفع تكاليف سفره من جيبه الخاص ، ولك أن تتدبر الآن ماذا كان يفعله من دونه ممن لا يملكون أجر سفرهم إذا كان أوليقر قد عوّق وتأخر إلى هذا الحد .

عاصفة بقبرص

٦٣٠ — خرجنا سالمين من هذا الخطر الذي قدر لنا الرب النجاة منه لنقع في خطر آخر ، لأن الريح التي دفعتنا إلى ساحل قبرص من قبل — حيث توقعنا الغرق — هبت ثانية عنيفة جامحة حتى لقد ردتنا مرة أخرى إلى الجزيرة ، فرمى البحارة مراسيمهم ضد الريح ، لكننا لم نستطع أبداً أن نوقف السفينة حتى رموا خمسة مراس ، ورأوا من الضروري خلع جوانب حجرة الملك^(٢) ، ولم نجد أحداً واثقاً الجرأة على البقاء بها مخافة أن تقذف به الريح إلى عرض البحر ، ولكن كنت أنا وكونستابل فرنسا جيل لي برون راقدين في حجرة الملك حين فتحت الملكة أبوابها ، حاسبة أنها واجدة زوجها بها .

٦٣١ — فسألتهما عما تبحث فقالت إنها جاءت للتكلم مع الملك وسؤاله

(١) راجع الفقرات ١٦، ٥٧٨، ٥٨١ —

(٢) هكذا وردت في الأصل الفرنسي .

أن ينذر للرب - أو قديسيه - نذراً بالحج عسى أن يتحنن الله فينقذنا مما نحن فيه من خطر ، لأن البحارة قالوا إننا على وشك الفرق ، فقلت لها « سيدتي الملكة ، عدي يأن تحجى إلى هيكل سيدي القديس نيقولا دي قارا نجافيل ، وأنا الضامن لك بأن الرب سيعيدك أنت والملك وأطفالكما إلى فرنسا سالمين » .

فقلت لى : « يا صنجيل إنتى على أتم أهبة لأفعل ذلك عن طيب خاطر ، ولكن الملك عجيب جداً ، لأنه لو عرف أنتى قطعت مثل هذا العهد دون مشورته ، فلن يأذن لى أبداً بالذهاب » .

٦٣٢ - فقلت لها « إذن لا أقل من أن تعمل شيئاً واحداً هو أن تعدى - إذا أعادكم الرب سالمين إلى فرنسا - أن تقدمى لهيكل القديس سفينة من الفضة تقدّر بخمس ماركات عن الملك وعن نفسك وعن أطفالكما الثلاثة ، وأنا الكفيل لك بأن الرب مجيب رجاءك ، لأننى نذرت للقديس نيقولا - لو أنقذنا من الخطر الذى كنا فيه ليلة أمس - أن أحج إليه ماشياً غير منتعل من جوانفيل إلى قارا نجافيل » .

فقلت الملكة لى إنها تنذر أن تقدّم للقديس نيقولا سفينة من الفضة ثمنها خمسة ماركات ، وأن أكون أنا الشاهد عنده على ما تقول ، فأجبته « سأفعل ذلك عن طيب خاطر » ، ومن ثم مضت عنى وبقيت فى الخارج فترة قصيرة عادت إلينا بعدها قائلة لنا « لقد أنقذنا القديس نيقولا فقد هدأت الريح » .

٦٣٣ - ولما عادت الملكة - رحمتها الله إلى فرنسا - أمرت بصنع سفينة

من الفضة في باريس وفيها تماثيل فضية لها والملك وللصغار الثلاثة ، كما صنعت من الفضة تماثيل بحارتها وعلها ودقتها وحبها لها ، أما الأشرعة فقد خيطة جميعها بأسلاك من الفضة .

وقد أخبرتنى الملكة أن صنعها كلفها مائة جنيه ، فلما تم صنعها بعثت بها إلى في جوانفيل كي أمر بأخذها إلى القديس نقولا ، ففعلت ما أرادت .

وقد أبصرتها فيما بعد موجودة في هيكله حينما ذهبنا إلى هاجينو في صحبة أخت الملك [الحالى] حين زواجها من [ابن] ملك ألمانيا^(١) .

• • •

الانتفاع من نعمة الرب

٦٣٤ — والآن لنعد إلى موضوعنا ونتابعه ، ذلك أنه بعد أن قبضت لنا النجاة من هذين الخطرين جلس الملك على حافة السفينة وأجلسنى عند قدميه وقال لى^(٢) : « ياسنسكال لقد أطلعنا الرب على عظيم بأسه ، حين بعث ريحا تافهة ليست من الرياح الأربع الكبرى كادت أن تفرق ملك فرنسا وزوجته وأطفاله وجميع من فى صحبته ، وعلينا الآن أن نشكره على إنقاذه إيانا من الخطر الذى كان محققا بنا » .

٦٣٥ — ثم تابع كلامه قائلا « وإن البسايلا التى تلم بالناس على هيئة

(١) يقصد بذلك ألبرت إمبراطور ألمانيا الذى تزوج ابنة رودلف فى عام ١٣٠٠ من بلانش أخت فيليب الجميل ، وقد مات سنة ١٣٠٥ .

(٢) راجع ٣٩ — ٤١

أمراض خطيرة وظلم كبير إن هي إلا تحذيرات لنا من مخلصنا كما يقول القديسون ،
وإذا كان الرب يقول لمن نجوا من مرض خطير « انظروا كيف كنت قادراً
على إماتتكم لو شئت ! » ، فهو يقول لنا الآن « انظروا كيف كنت قادراً
على إغراقكم جميعاً لو شئت » .

٦٣٦ — « وإذن فعلينا أن ننظر في أنفسنا ونتأمل إن كان فيها شيء
يغضب الرب فنبراً إليه منه ، لأننا لو فعلنا غير ذلك — بعد ما حذّرنا — فإنه
سينكبننا بالموت أو ببليّة أخرى كبيرة تؤدي إلى هلاك أجسامنا وأرواحنا »

٦٣٧ — ثم قال الملك « وإن القديس ليقول ياسنكال : أيها السيد الرب ،
لماذا تهّدّنا ، إنك لو أهلكتنا جميعاً فلن تجد الفقراء ، ولو حفظتنا جميعاً
لن تكون غنياً ، ويقول أحد القديسين أيضاً إن هذه التحذيرات التي يرينا
إياها الرب ليست لصالحه ولا لإنقاذه من مضرة ، ولكنها نابعة من حبه الكبير
لإيقاظنا ، عسانا نرى نقائصنا جليلة ، ولكي تكون وسيلة لخلاصنا من كل
ما يغضبه ، فلنفعل ذلك ، وبذلك نكون سالكين سبيل السداد » .

جزيرة لا مبيدوسا

٦٣٨ — غادرنا جزيرة قبرص بعد أن تزوّدنا بالماء والذخيرة اللازمة
لنا ، وظللنا مبحرين حتى أرسّت بنا السفينة عند جزيرة يدعونها لا مبيدوسا
حيث أخذنا كمية كبيرة من الأرناب ، ووجدنا صومعة نساك قديمة منحوتة
في الصخر ، ذات حديقة أنشأها رهبانها منذ القدم ، وهي حافلة بأشجار الزيتون
والتين والكروم وسواها من المزروعات يجري في وسطها نبع ماء ، فدخلنا
في صحبة الملك وظللنا سائرين حتى بلغنا نهاية البستان ، فالفينا تحت أول قهو

من أقيمتها محراب خطابة قد طُلّي بالجير وصليباً من الآجر الأحمر .

٦٣٩ — فلما صرنا تحت القبر الثاني وجدنا جثتي رجلين ميتتين ، وقد وضعت عظام الأيدي على الصدرين ، وكان الهيكلان راقدين متجهين إلى الشرق على نفس الطريقة التي يدفن بها الميت في باطن الأرض .

فلما عدنا إلى سفينتنا تلهّسنا واحداً من بحارتنا فلم نقف له على أثر ، فأخذ قائد السفينة في التفكير [فيمن يكون الغائب فأدركه تخميناً^(١)] ، ورجّح أنه ربما تخلف بالجزيرة للتنسك والعبادة ، وإذ ذاك ترك له نيقولا دي سواسي — وكان كبير حرس الملك — ثلاث حقائب مملّاة بالقسماط على الشاطئ ، ليجهدها البحار إن عاد ويقمات عليها .

. . .

جزيرة قوصرة وغضب الملك

٦٤٠ — حين خرجنا من هناك أبصرنا جزيرة عظمى في البحر اسمها قوصرة ويسكنها جماعة من المسلمين بعضهم من رعايا ملك صقلية^(٢) والبعض الآخر من رعايا ملك تونس ، فالتفت الملكة من الملك أن يبعث إلى الجزيرة بثلاثة أغربة لجلب الفاكمة للأطفال ، فاستجاب لها وأمر قواد الأغربة بالذهاب إلى الجزيرة ، على أن يلقوه حين مرور سفينته أمام الجزيرة ، فدخلت الأغربة ميناء صغيراً في الجزيرة ، لكننا لم نقف على خبر لأغربتنا حين حاذى مركب الملك الميناء .

(١) الإضافة من جواز ، ص ١١٥

(٢) هو كونراد الثاني حفيد الإمبراطور فردريك الثاني .

٦٤١ — وأخذ البعارة يتسارون فيما بينهم وبين أنفسهم ويحمحمون دون إفصاح ، فأمر الملك باستدعائهم إليه وسألهم عما يظنون قد حدث لأصحابهم ، فأجابوه أنهم يرجعون وقوعهم أسرى هم والأغربة في أيدي المسلمين ، ثم قالوا له « لكننا ننصحك ونشير عليك يامولانا ألا تنتظر عودتهم لأنك بين مملكة صقلية ومملكة تونس وكلتاها كارهة لك ، وعلى ذلك فإذا أذنت لنا بالإبحار استطعنا إنقاذك من الخطر قبل أن يلف الظلام الكون في طياته ، وسنجتاز هذا المضيق في أقصر وقت » .

٦٤٢ — فقال الملك « ألق أقول لكم إنني لن أستجيب نصيحتكم وأنزل على مشيئتك فأترك رجالي في أيدي المسلمين دون أن أقوم على الأقل ببذل قصارى جهدي لخلاصهم ، وإنني لأمرم أن تمضوا بسفنكم لمهاجمتهم » .
فلما سمعت الملكة بما جرى استخرطت في العويل قائلة : « واأسفاه ، لقد كنت أنا السبب فيما حدث » .

٦٤٣ — وبينما كانوا يديرون قلاع سفينة الملك والسفن الأخرى رأينا الأغربة قادمة علينا من ناحية الجزيرة ، حتى إذا حاذت سفينة الملك سأل الملك ملأحيها عما عوقهم ، فذكروا أن الخطأ ليس خطأهم وإنما مرده إلى أن ستة من أبناء أثرياء باريس ظلوا يأكلون مما في البساتين من فاكهة ، ولم يستطع الملاحون إخراجهم منها أو تركهم بها .

وإذ ذاك أمر الملك بوضع أبناء الأثرياء الستة في زورق مكشوف ملحق بالسفينة ، فأخذوا يعولون ويصرخون قائلين « يامولانا ، خذ منا — نخاطر الله كل ما نملك فدية لأنفسنا ، ولكن لاترج بناحيث القتلة واللصوص ، لأن ذلك سيكون لنا سبة الدهر وعار الأبد » .

٦٤٤ — وبذلت الملكة وبذلنا نحن غاية الجهد لاستجلاب عطف الملك ولكنه لم يستجب لأحد منا ، ومن ثم ألقى بهؤلاء الستة في مركب النقل ، وظلوا في الزورق حتى بلغنا الساحل ، وكانوا في خطر وحزن مقيم حين يضطرب البحر وتعلو الأمواج فتلطم رؤوسهم وتعلوها ، فيضطرون إذ ذاك للجلوس حتى تقذف الأمواج بهم إلى البحر ، وكان هذا العقاب رادعاً لهم لأن بطنتهم سببت لنا شراً فقد تأخرنا مدة ثمانية أيام ، ولأن الملك كان قد أمر السفن بالعودة للبحث عنهم^(١) .

النار في مخدع الملكة

٦٤٥ — جرت^(٢) لنا حادثة أخرى ونحن مازلنا بالبحر قبل وصولنا إلى اليابسة ، ذلك إن إحدى وصيفات الملكة لم تكترث حين وضعت الملكة في فراشها ، إذ أخذت العصاة التي كانت تعقدها حول رأسها وقذفت بها إلى الموقد الحديدي الذي كانت شمعة الملكة مضاءة عليه ، ثم ذهبت هذه الوصيصة لتنام حيث تنام بقية النسوة في حجرة تحت مخدع الملكة ، فاحترقت الشمعة حتى باغت العصاة ، فأمسكت بها النار ثم انتقلت منها إلى الأقمشة التي كانت الملكة تغطي بها ثيابها .

(١) ورد في نسخة جوتز (ص ١٢٥) العبارات التالية التي يرجح أنها ليست من قلم جوانفيل وهذه ترجمتها «وهذه الجزيرة المسماة هنا Pantaleone هي التي يسميها الجغرافيون Pantalacea وتقع بين جزيرة صقلية وإفريقية على مقربة من سوسة وهي مدينة في مملكة تونس ، وتتبع ملك أسبانيا وتخضع ل نائب صقلية ، وعلى الرغم من أن سكانها من المسيحيين الكاثوليك إلا أنهم يلبسون لباس المسلمين ويتكلمون لغتهم » .

(٢) الفقرات من ٦٤٥ — ٦٤٩ غير واردة في نسخة جوتز .

٦٤٦ — فلما استيقظت الملكة رأت مخدعها كله مشتعلًا ، فوثبت من فراشها عارية من كل شيء ، وتناولت العصا وهى مشتعلة وقذفت بها إلى البحر ، كما أخذت القماش وأطفأته ، فصاح من كانوا فى مركب النقل بالمؤخرة ، ولكن فى صوت منخفض « النار ، النار » .

فرفعت رأسى وأبصرت عصا الرأس مازالت مشتعلة بلمب جلىّ فى البحر الذى كان شديد الهدوء ، فوضعت قميصى علىّ بأمرع ما يمكن ، وذهبت إلى البحارة وجالست معهم .

٦٤٧ — وبينما كنت جالسا معهم جاءنى تابعى — وكان قد نام قبلى — وقال إن الملك قد استيقظ وسأل عنى ، ثم قال لى تابعى « ولقد أخبرت الملك أنك فى غرفتك فكذبى » ، وبينما نحن نتكلم أبصرت قسيس الملكة جوفرى قادمًا علينا فقال لى : « لاتزعج فلم يحدث أى شيء » ، فقالت له « ياسيد جوفرى إذهب إلى الملكة وقل لها إن الملك يقظان ، وعليها أن تمضى إليه ليطمئن باله » .

٦٤٨ — فلما كان اليوم التالى قدم كونستابل فرنسا وبطرس كاتم السر والسيد چرفيه رئيس مطعمه وقالوا للملك « ما الذى حدث فى الليل ؟ فقد سمعنا كلمة النار » فلم أنبس بينت شفة ، وحينذاك قال الملك « إن ماحدث كان عن سوء الطالع ، ولعلّ السنكال أكرم للأمر منى ، ولكننى سأخبركم كيف أننا جميعاً كدنا أن نحترق الليلة الماضية » .

٦٤٩ — ثم قص عليهم ماجرى ، وقال لى « آمرك ألاّ تذهب من الآن فصاعداً للنوم حتى تطفىء جميع النيران إلاّ النار الكبيرة الموجودة فى آلة

السفينة ، واعلم أنني لن أذهب للنوم حتى تبيئني أنت ، فدأبتُ على مراعاة ذلك طيلة وجودنا بالبحر .

وكان الملك لا ينقلب إلى مخدعه إلا إذا ذهبت إليه .

...

معجزة لمريم المذراء

٦٥٠ — جرت لنا حادثة أخرى بالبحر، ذلك أن السيد ذراجونييه — من وجوه منطقة بروقنس — كان نائماً ذات صباح في سفينته التي كانت تسبق سفينتنا بمسافة تقرب من فرسخ ، ثم استيقظ ونادى أحد أتباعه وقال له : « اذهب وسدّ هذا الثقب المفتوح ، لأن أشعة الشمس تنفذ منه فتضربني في وجهي » ، فرأى الخادم استحالة ذلك عليه إلا إذا كان خارج السفينة ، فلما همّ بالخروج لسدّ هذا الثقب المفتوح زلّت قدمه وسقط في الماء ، ولم يكن بالسفينة — لصغرها — قارب نجاة ، ومن ثم خلّقه وراءها بمرحلة طويلة ، ولكن تسنى لنا نحن الذين على مركب الملك أن نراه وهو يسقط في الماء ، فحسبناه حزمة أو برميلا، لأنه حين سقط في الماء لم يبذل أية محاولة لإنقاذ نفسه .

٦٥١ — غير أن أحد أغربة الملك التقطه وأحضره إلى سفينتنا حيث أخبرنا كيف جرى الأمر ، فسألته متعجباً كيف لم يخطر بباله إنقاذ نفسه سباحة أو بأية وسيلة أخرى ، فأجاب أن لم يكن ثم داع أو حاجة لذلك ، لأنه ما كاد يسقط حتى أسلم نفسه لسيدتنا سيده Vauvert فأمسكته من ذراعيه منذ اللحظة التي سقط فيها حتى التقطه غراب الملك ، وإجلالاً لهذه المعجزة أمرتُ بتصويرها في كنيسة بجوانقيل وفي النوافذ الزجاجية في بليكورت .

...

تصميمه على النزول في هيرس

٦٥٢ — بعد ستة أسابيع قضيناها في البحر بلعنا ميناءً يبعد مسافة فرسخين من قلعة يسمونها قلعة Hyères تابعة لسكونت بروقنس الذي صار فيما بعد ملك صقلية ، واتفق رأي الملكة وجميع أعضاء مجلس المشورة على أن ينزل الملك هنا لأن الأرض تابعة لأخيه ، فقال الملك إنه لن يغادر سفينته حتى نبلغ إيجمورت التي كانت بيده هو ذاته ، وتمسك الملك بهذه الفكرة ضدنا كل التمسك يومى الأربعاء والخميس ، ولم نستطع صرفه عما تمسك به .

٦٥٣ — وكان في السفن المرسلية سكانان يتصلان بذراعى دفة في هيئة عجيبه ، حتى إنك لتستطيع أن تدير السفينة يمينا أو يساراً بالسهولة التي تدير بها حصاناً . وكان الملك جالساً يوم الجمعة على أحد هذين الذراعين فنادانى إليه وقال : « يا سنكال : ما ظنك بهذا الموضوع [أنرسو أم نلق] ؟ » فأجبته « يا مولاي ، ربما كان من الصواب إذا كان قد بدا لك ما بدا لسيدتى دى يوربون من عدم النزول في هذا الميناء ، بل ترى أن نبحر ثانية حتى نصل إلى إيجمورت وننتظر في البحر مدة سبعة أسابيع » .

٦٥٤ — ثم دعا الملك إليه جميع رجال مجلس مشورته وأخبرهم بما قلته وسألهم رأيهم ، فانهقد إجماعهم على وجوب رسوّه في الحال ، لأنه لن يكون من الحكمة أن يعرض نفسه وزوجه وأطفاله مرة ثانية للخطر في البحر بعد أن قدرت لهم النجاة منه ؛ فاستجاب الملك للنصيحة التي أسديتها إليه ، وسُرت الملكة غاية السرور .

• • • • •

نصيحة جواثيل للملك

٦٥٥ — نزل الملك وزوجته وأطفاله في قلعة هيرس ، وفي أثناء إقامته بها انتظاراً للحصول على جياذ يأخذها إلى فرنسا جاءه رئيس دير كلونى الذى صار فيما بعد أسقف أوليفار بمُهرين يساويان اليوم مبلغاً لا يقل عن خمسمائة دينار ، قدّم أحدهما هدية للملك والآخر للملكة وهو يقول: « مولاي ، سأتيك في الغد للتحدث معك في بعض شئوني » .

فلما كان الغد عاد رئيس الدير فاستمع إليه الملك في أناة وصبر طويلين ، فلما انصرف رئيس الدير من حضرته جثته وقلت له : « أحب أن أسألك — إن أذِنْتَ لى — عما إذا كنت أصغيت لرئيس دير كلونى من أجل هذين الجوادين اللذين أهداهما إليك بالأمس » .

٦٥٦ — فسكت الملك طويلاً مفكراً ثم قال : « ألق أفول لك : أجل » . فتابعت حديثي قائلاً « مولاي ، أتعرف لم سألتك هذا السؤال ؟ » فقال « ولمه ؟ » فأجبت « لأن الرأى والنصيحة عندى يامولاي أن تمنع — حين عودتك إلى فرنسا — من أقسموا لك اليمين من قبول أى شىء ممن لهم حاجة يريدون عرضها عليك ، ولتكن واثقاً كل الثقة في أن قبولهم شيئاً ما سوف يحملهم على زيادة الإصغاء في رضاء وأناة لمن وصلوهم بشىء كما فعلت أنت اليوم مع رئيس دير كلونى » .

وإذ ذاك جمع الملك جميع رجال مجلسه ، وأفضى إليهم بما كان من حديثي إليه ، فاستصوبوا النصيحة التى أسديتها إليه .

• • •

الأخ هيج الفرنسيكاني

٦٥٧ — ترامى إلى سمع الملك خبر راهب فرنسيكاني اسمه الأخ هيج ، فبعث في استدعائه ، إذ حُبِبَتْهُ شهرته الفائقة في رؤيته وسماعه والتحدث إليه .

وفي يوم مجيء الأخ هيج إلى هيرس تطاعنا إلى الطريق الذي كان قادماً منه ، فأبصرنا حشداً كثيفاً من النساء والرجال على السواء يسرون خلفه مشاة ، فطلب الملك منه أن يخطب الناس فاستهل عظته بالحديث عن رجال الدين قائلاً « أيها السادة ، إنني لأرى في بلاط الملك ورفقته كثيراً من رجال الدين ، وأنا — قبل كل شيء — واحد من هؤلاء الكثيرين الموجودين حوله ، لكن ليس هؤلاء المتدينين القدرة على إنقاذ أنفسهم إلا إذا كان الكتاب المقدس يكذب علينا وهو أمر مستحيل .

٦٥٨ — « ذلك لأن الكتب المقدسة تخبرنا أن الراهب لا يستطيع أن يغيش بعيداً عن ديرهِ دون خطيئة مهلكة إلا بما يَتَمَيَّأ من الحياة للسمكة خارج الماء ؛ فإذا قال مَنْ في صحبة الملك من المتدينين إن بلاطه دير ، فإني أقول لهم هذا أكبر دير رأيتُهُ لأنه يمتد من هذا الجانب من البحر إلى الجانب الآخر ، وإذا قالوا إنهم يستطيعون في هذا الدير أن يأخذوا أنفسهم بالحياة الخسنة لأجل خلاص أرواحهم فليست أثق بما يقولون ، لأنني أخبركم أنني تناولت معهم هنا كميات كبيرة من اللحم ، وشربت معهم من الخمر الجيدة أقواها وأصفها ، وأنا واثق أنهم لو كانوا في أديرتهم لما تقلبوا في هذه البلهنية التي يتقلبون فيها الآن وهم في صحبة الملك » .

٦٥٩ - وعرج هيج في عظته هذه على الملك ، فأشار عليه كيف يجب أن يستهدف في حكمه صالح شعبه ، ثم قل في ختام خطبته إنه قرأ الإنجيل والكتب التي معه ، وأنه لم ير مطلقاً - في كتب المؤمنين أو غيرهم على السواء - أن هناك مملكة ما أو ولاية ما ضاعت أو انتقلت من حاكم إلى آخر أو من ملك إلى آخر ألاّ وسبق ذلك ضياع الحق وفساد العدالة .

ثم قال له « والآن فلنطلب من الملك - وهو في طريقه إلى فرنسا - أن يَحِقِّ الحق ويقيم العدالة بين شعبه ، وأن يظل ساعياً في حب الله حتى لا يسترجع الله منه مملكته وحياته معاً » .

٦٦٠ - وقد أشرّت على الملك أن يستبق الأخ راهب هيج في صحبته أطول زمن ممكن ، فقال لى إنه حاول ذلك معه لكنه رفض لإجابة سؤاله رفضاً باتاً .

ثم أخذنى الملك من يدى وقال لى « هيا بنا نذهب إليه ونرتجيه ثانية » ، فلما جئناه قات له : « هلا فعلت ياسيدى ما سألك إياه مولاي فأقمت معه في بروقنس طول مكثه بها ؟ » فأجابنى غاضباً « ألق أقول لك ياسيدى إننى لن أفعل ذلك ، لأننى سوف أمضى إلى حيث يرى الرب أن ذلك أجدى من بقاءى في صحبة الملك » .

ثم مكث معنا يوماً واحداً رحل بعده عنا .

ولقد علمت من نبئه بعد حين أنه مدفون في مدينة مرسيليا ، حيث تمت على يديه كثير من المعجزات الخوارق .

• • •

٦٦١ — في اليوم الذي رحل فيه الملك عن هيرس نزل من القلعة مترجلاً لشدة انحدار التل ، وظل سائراً على قدميه مسافة طويلة لعدم مجيئهم بجواده ، ثم ركب حصاني ، حتى إذا جاءوه بفرسه التفت إلى خادمه بونس وهو في شدة الغضب وكلمه في خشونة ، فلما فرغ من ذلك قلت له : « مولاي ، ينبغي عليك أن تغفر لبونس الخادم كثيراً ، لأنه خدم جدك وأباك من قبل ، وهو اليوم في خدمتك » .

٦٦٢ — فقال لي الملك « ياسنكال ، إنه لم يخدمنا بل نحن نحن الذي خدمناه حين استبقيناه عندنا رغم ما هو عليه من الصفات الشريرة ، لأن جدى الملك فيليب أخبرنى أنه يجب على المرء مكافأة خدمه ، فيجزل العطاء لمن يستحقه ويقبضه عن لا يستأهله ، واعتاد أيضاً أن يقول إن الحاكم لا يستطيع أن يحكم حكماً كريماً إن لم يعرف متى يقسو في عنف وشدة ، ومتى ييسط يده . وإنى لذا كرك لك هذه الأشياء لأن الناس شرهون في السؤال والتساؤل ، وقل فيهم من يعنيه خلاص روحه وشرفه دون أن يكون ذلك على حساب سواه سواء بالحق أو بالباطل » .

زواج إيزابيل وثيبو

٦٦٣ — في أثناء اجتياز الملك لكونتية بروفس جاء إلى مدينة من مدنها اسمها إكس Aix يقال إن بها جسد مريم المجدلية ، فمضينا إلى كهف أقيم في صخرة شديدة الارتفاع^(١) ، يزعم الناس أن المجدلية عاشت فيه عيشة

(١) الوارد في جونز ، ص ٥١٤ ، أن هذا المكان يسمى Le Baume

التنسك مدة سبع عشرة سنة ، ولما جاء الملك إلى بوكير Beaucaire ورأينا أنه أصبح في أرضه وأملأه الخاصة استأذنته ومضيت إلى ابنة أخى دوفيناينا وإلى عمى كونت شالون وابنه كونت برجنديا^(١) .

٦٦٤ — وبعد أن قضيت مدة في جوانثيل ورتبت أمورى بها عدت إلى الملك فلاحقت به في سواسون ، فقرح بمقدمى فرحاً عظيماً تعجب منه جميع من كانوا هناك ، حيث وجدت جون كونت بريتانى وزوجته ابنة الملك ثيبو التى قدّمت^(٢) للملك ولاءها وطاعتها بصدد جميع حقوقها في شمبانيا ، فأحال الملك البت في هذا الأمر — كما هو الحال إزاء ثيبو الثانى — إلى برلمان باريس لسماع قضيتهما ، حتى تأخذ العدالة مجراها بين الطرفين .

٦٦٥ — وجاء إلى هذا البرلمان — بناء على^(٣) نصيحته — ملك نفارة وكذلك كونت بريتانى . وفي هذا الاجتماع التمس الملك ثيبو الزواج من سيدتى الأميرة إيزابيل ابنة الملك ، وعلى الرغم — مما قاله أبناء جدتى الشمبانيون من وراء ظهري — حسداً منهم لما رأوه من فرحة الملك بى في سواسون — إلا أننى لم أتوان عن الذهاب إلى ملك فرنسا ومحادثته في شأن هذا الزواج ، فقال لى الملك « أمض إلى كونت بريتانى واحمله على التراضى وبعدئذ يتم الزواج » ، فسألته ألا يجعل عدم إتمام الصالح حائلاً دون عقد

(١) يقصد بذلك هيج بن جان دى ستالون .

(٢) الوارد في نسخة جونز ، ص ١٥٥ « أن النزاع كان قد شب بين ملك نفارة وورشة شمبانيا لادعاء الأول أن له حقوقاً في إقليم شمبانيا ، ولذلك أمرهم الملك جميعاً بالذهاب إلى باريس لسماع حجة كل من الطرفين » .

(٣) راجع الحاشية السابقة ، ويلاحظ أن هذه العبارة ساقطة من نسخة جونز .

هذا الزواج ، إلا أنه قال لي أنه لن يتم القران على أية صورة حتى ينعقد الصلح ،
كيلا يقول قائل من الناس إنه زوج أبناءه بحرمانه باروناته من ميراثهم .

٦٦٦ — نقلت هذه الكلمات إلى الملكة مرجريت النفارية وإلى ابنها
الملك وإلى بقية مستشاريهما ، فلما سمعوا ما قلت بادروا إلى إبرام الصلح ،
وما لبث أن زوج ملك فرنسا ابنته من الملك ثيبو ، وأقيمت في ميان
Melun ولائم العرس فخمة رائعة ، ومن هناك أخذ الملك ثيبو عروسه إلى
Povins حيث دخلها وسط حشد كثيف من البارونات .

...

عاداته وتقاليده وموقفه من الأساقفة

٦٦٧ — بعد عودة الملك من رحلته فيما وراء البحار^(١) أخذ نفسه بحياة
التقشف ، فلم يؤثر عنه أنه لبس بعدئذ ثوبا من فراء السمور أو السنجاب الرمادي
أو الملابس القرمزية اللون ، أو أنه اتخذ مرجا أو مهاميز مذهبة . بل كان
لباسه من العبك الصوفى والقماش الأزرق ، كما كان فراء أغطيته وملابسه من
جلد الغزال المدبوغ أو الحملان أو من الجلد المتخذ من أرجل الأرانب .

وكان شديد القصد في مأكله ، حتى إنه لم يطلب قط أنواعا معينة من
الطعام ، بل كان يأكل ما هيأه له طبياخه ووضعه أمامه .

وكان يمزج الماء بنخمره في كأس شرابه ، فيضيف إليها من الماء
ما يتناسب وقوة الخمر ، وكان يمسك كأسه بيده حين يأخذ السقاة في مزجها

(١) في جوز ، ص ٥١٥ « من فلسطين » .

بالماء وهم وقوف خلفه ، وكان يُطعم دائماً فقراءه ، فإذا فرغوا من أكلهم وزّع عليهم بعضاً من نقوده .

٦٦٨ — وإذا وفد منشدو الثروة عليه بآلاتهم الموسيقية بعد الفراغ من تناول وجبة طعامه لم يبرح مكانه قبل فراغ المنشد من صلاة الشكر ، وإذا ذاك ينهض ويقف أمامه قسيسه لترتيل صلاة الشكر ، فإذا كفا معه على انفراد أخذ مجلسه عند قدمي سريره ، فإن عرض الإخوان المبشرون أو الدومنيكان الذين معه إلى كتاب وأشاروا إلى وجوب قراءته إياه قال لهم « إنكم لن تقرءوه لي لأنه لا يستطاب قراءة أى كتاب بعد الأكل كما يستطاب الحديث في حرية وأن يتكلم كلٌّ بما يشاء » .

وإذا كان مشاركوه الطعام من الأغراب ذوى المكانة آنس صحبتهم كل الإيناس .

٦٦٩ — وسأحدثك الآن عن حكمته ، إذ طالما شهد الناس أن لم يكن بين رجال مجلسه من يبرزه حكمة ، ويتجلى هذا عندما يحادثه أحد في أمر من الأمور فلا يقول له « سأفكر في الأمر » بل يقرره في الحال دون مشورة أحد إن رأى الحق أبلج واضحاً .

وفي هذا الصدد سمعت رده على ملتمس رفعه إليه جميع مطارئة مملكة فرنسا .

٦٧٠ — فقد^(١) حدث ذات يوم أن كلمه جى أسقف أوكسير Auxerre باسم جميع مطارئة مملكة فرنسا قائلاً له « مولاي ، لقد كلفني هؤلاء المطارئة

(١) القصة التالية بأكملها غير واردة في جونز حتى نهاية فقرة ٦٧٧

والأساقفة المائلون هنا أن أخبرك أن الملة النصرانية آخذة في التدهور بين يديك ، وسيزداد تدهورها إن لم تعجل بتدبر أمرها ، إذ لم يعد أحد اليوم يهرب توقيع قرار الحرمان عاياه ، لذلك نلتبس منك يا مولاي أن تأمر نوابك وعسرك أن يحملوا حملة صدق على جميع من صدر ضدهم قرار الحرمان ومضى عليهم عام ويوم كي يعملوا على استرضاء الكنيسة .

فأجابهم الملك دون أن يأخذ برأى أحدٍ ما بأنه مُلبّ طلبهم عن طيب خاطر ومصدر أمره إلى عماله وسر جنديته بالتضييق على المحرومين بالصورة التي يرونها ، على شرط أن يطلعه الأساقفة على الحكم في كل حالة ليرى بنفسه ما ينطوى عليه من عدل أو حيف .

٦٧١ — فتشاور الأساقفة فيما بينهم ، ثم عادوا إلى الملك مخبريه بأنهم يرفضون هذا الطلب ، لأن المسائل التي يتضمنها هي مسائل كنسية دينية ، فأجابهم الملك بدوره إنه لا يستطيع إجابة مطلبهم على الهيئة التي تقدموا بها إليه ، وأنه لن يصدر أمره إلى نوابه وسر جنديته بالتضييق على المحرومين لحلمهم على طلب الغفران ، سواء أ كان قرار الحرمان عادلا أم جائرا .

ثم قال لهم « لو أني فعلت ما تسألوني إياه لكنت سالكا سبيلا ياباه الرب ولا يقره العدل ، وسأضرب لكم مثالا على ذلك بقرار الحرمان الذي حكم به أساقفة بريتانى على كونت بريتانى فظل محروما مدى سبع سنوات ، ثم جبت كنيسة رومة هذا القرار ومنحته الغفران ، فلو كنت اضطهدته بعد السنة الأولى لكنت إذن معذبا إياه ظلما وعدوانا .

أمثلة أخرى على صلابته وعدالته

٦٧٢ — وحدث بعد عودتنا من وراء البحار أن انتخب رهبان دير سنت اربان رئيسين ، فما كان من بطرس أسقف شالون — عليه الرحمة — إلا أن طردهما وولى شئون الدير للراهب جون دي ميمرى ، وناولهما عصا الأسقفية .

ولم أشأ الاعتراف بجون دي ميمرى المشار إليه رئيساً للرهبان ، لأنه كان قد آذى جوفرى رئيس الرهبان الذى ناهضه وعارضه وذهب إلى رومة ، فتوليت أمور الدير فترة من الزمن ، حتى أخذ جوفرى عصا الأسقفية بعد استرداده إياها من الراهب الذى منحها له الأسقف بطرس دي شالون الذى كان قد أصدر ضدى قرار الحرمان أثناء حدوث هذا النزاع ، فثار فى البرلمان الذى عقد بباريس جدل عنيف بينى وبين الأسقف بطرس دي شالون ، وكذلك بين السكونتيسة مرجريت دي فلاندر ورئيس أساقفة ريمس الذى كذبه السكونتيسة .

٦٧٣ — فلما عقد الاجتماع الثالث التمس جميع رجال الدين مجيء الملك ليتحدث إليهم على انفراد ، فلما فرغ من مقابلة إياهم والتحدث معهم عاد إلينا ، وكنا فى انتظاره فى غرفة الشهود ، وأفضى إلينا — وهو طلق الحيا — بالجهد الذى لقيه مع رؤساء رجال الدين ، لأن كبير أساقفة ريمس قال له :

« مولاي ، ماذا أنت فاعل لى بشأن حراسة سنت ريميجس دي ريمز التى أخذتها منى ، لأننى أقسم بحق هذه الآثار المقدسة الموضوعة أمامنا هنا أننى لا أضمر المعصية — كما تضمنرها أنت — لكل نواحى مملكة فرنسا » ، فأجابه الملك « بحق هذه الآثار المقدسة الموضوعة أمامنا هنا أقسم أنك على أتم استعداد لأن ترتكب الخطئية من أجل كومبين Csmpiégne وذلك لما

تنطوى عليه نفسك من جشع ، وعلى ذلك فأحدنا الآن حانت في يمينه كاذب
في دعواه »

٦٧٤ — ثم قال الملك : وإذ ذاك طلب منى أسقف شارتر أن آمر بأن
أرد إليه ما في يدي من متعلقاته ، فأنبأته أنني لن أفعل ذلك حتى يدفع لي ما
أستحقه ، وأخبرته أيضاً أنه قطع يمين الولاء لي ويدها في يدي ولكنه لم
ينهج معي نهج الصواب ، ولم يكن مخلصاً لي حينما بذل قصارى جهده في
حرمانى من حقى الذى آلى إلى عن طريق الوراثة .

٦٧٥ — وإذ ذاك قال لي^(١) أسقف شالون : وماذا أنت فاعل لي
يا مولاي بشأن السيد دى جوانفيل الذى حرم راهب دير سنت
إربان الفقير ؟ .

فأجابه الملك « سيدى الأسقف ، لقد فرغتم من هذه المسألة فما بينكم
حين قررتم أنه لا يجوز لمحكمة مدنية سماع شكوى رجل قد صدر ضده
قرار الحرمان ، ولذلك فإننى لن استمع إليكم حتى تنال الغفران » .

وأنا^(٢) أخبرك بهذه الأمور لترى في وضوح كيف كان الملك يستطيع
فض مثل هذه المشكلات وحده ووفق إدراكه الصائب .

٦٧٦ — أما جوفرى رئيس دير سنت إربان فقد جازانى شراً على
خير ، وجحد جميل عليه ، فشكاني إلى الملك القديس وراح يفهمه أن الدير في
حراسته ، فطلبت من الملك أن يأمر بالفحص عما إذا كانت حراسة الدير من

(١) الكلام هنا على لسان الملك .

(٢) المتكلم هنا هو جوانفيل .

شأن الملك أم من شأني ، فلما سمع جوفري بذلك قال للملك « مولاي أتوسل إليك بحق الرب ألا تفعل ذلك ، بل رتب الأمر على أن يكون حل المشكلة القائمة بيني وبين السيد جوانثيل عن طريق المحاكاة ، لأننا نؤثر أن نرى الدير في يديك من أن يرثه هو . »

وإذ ذاك قال الملك لى « قل الحقيقة : أمن حقى الإشراف على الدير ؟ » فأجبت « كلا يا مولاي ، بل إنه ملكى أنا . »

٦٧٧ — وإذ ذاك قال الملك للديرانى « ربما كان الدير تابعاً لك بالإرث ، لكن ليس لك الحق أبداً فى التصرف فى أموره ، أما فيما يتعلق بملكيتته فيبدو لى مما ذكرته لى ومما قاله السنكال أن المسألة بينى وبينه هو فقط ، ولن أحاول من كل ماقلت الوصول للحق فى هذه المسألة ، لأننى لو أرغمته على الالتجاء إلى القانون فإننى أكون قد أخطأت فى حقه وهو تابعى ، لأننى أحقُّ الحق بمقتضى القانون . »

ثم أمر باستقراء الحقيقة ، فلما تجلت له أسلمنى حراسة الدير مصدقاً عليها بمراسيمه المقدسة .

* * *

حبه للسلام

٦٧٨ — وحدث أن بذل الملك القديس غاية جهده بغية مجيء ملك إنجلترا وزوجته وأطفاله إلى فرنسا لمفاوضتهم فى عقد الصلح^(١) بينه وبينهم ؛ ولكن

(١) عقد هذا الصلح فى سنة ١٢٥٨ وصودق عليه فى سنة ١٢٥٩ .

رجال مجلسه عارضوا في عقد هذا الصلح أشد معارضة وقالوا له « إننا لنعجب
بما مولانا أشد العجب من شدة إصرارك على إعطاء ملك إنجلترا جزءاً كبيراً
من الأرض التي فتحتها أنت وأسلافك وانتزعتموها منه ، والتي كان سوء تصرفه
سبباً في فقد إياها ، ويبدو لنا الآن أن ردك بعضها إلى ملك إنجلترا - إن
كنت لا تراها حقاً لك - لن يكون خيراً لك إلا إذا أعدت جميع ما فتحت
أنت وأسلافك إلى أصحابه ، أما إذا آمنت بحقك في هذه النواحي فإننا نرى
أن ردك ما ترده إن هو إلا خسارة عليك » .

٦٧٩ — فأجابهم الملك القديس قائلاً « أيها السادة إنني مقتنع كل الاقتناع
بأن لا حق لملك إنجلترا في الأراضي التي أصبحت ملك يميني والتي استولينا
عليها من أسلافه عدلاً ، غير أن الأرض التي سأردها إليه لا تعني التناهي
بإعطائها له أو خلفائه ، ولكنني رادها إليه لبذر المحبة بين أبنائي وأبنائه لأنهم
أبناء خثولة ، وأحسب أن الخير في تنازلي له عنها ، لأنه ^(١) سيكون من الآن
في طاعتي ، وهو أمر لم يكنه من قبل » .

٦٨٠ — كان الملك لويس أعظم رجل في الدنيا بذل قصارى جهده لإقرار
السلم بين رعاياه ، لا سيما بين كبار جيرانه وبين أمراء المملكة ، ومثال ذلك
إصلاحه ذات البين بين كونت شالون عم السيد جوانفيل وابنه كونت برجنديا
الذين كان القتال ناشباً بينهما نشوباً عنيفاً وقت رجوعنا من بلاد ما وراء
البحر ^(٢) ، وعمد الملك - استقباباً للصلح بين الأب وابنه - إلى إرسال جماعة

(١) الوارد في نسخة جونز ص ١٧٥ « أن ذلك سيؤدي إلى إقرار السلم بيني وبينه وإلى
أنه سيكون من الآن تابعي ... » إلخ .

(٢) وردت بدلها كلمة « فلسطين » في جونز ، ص ١٦٥ .

من أهل مجلسه على حسابه الخاص إلى برجنديا ، فانعقد السلم بفضل مجهوداته
بينهما .

٦٨١ — كذلك كان هناك في هذا الوقت حرب عنيفة بين الملك ثيبو
الثاني ملك شمبانيا وجون كونت شالون وابنه كونت برجنديا حول دير لوكسيل
Luxeuil ، وعمد سيدى الملك لإخماد تلك الحرب إلى إرسال جرفيه ديسكرين
الذى كان إذ ذاك رئيس المطابخ بفرنسا وأصلح بينهما بمجوده .

٦٨٢ — بعد هذه الحرب التى أطفأ الملك أوارها نشبت حرب عنيفة
أخرى بين ثيبو كونت دى بار وهنرى كونت لوكسمبورج زوج أخت
كونت ثيبو ، وحدث أن تقائلا قرب Prény وتمكن ثيبو كونت
دى بار من أسر هنرى كونت لوكسمبورج والاستيلاء على قلعته «الجنى» التابعة
لكونت لوكسمبورج عن طريق زوجته ، لذلك أرسل الملك من قبله —
تهدئة لما بينهما — وعلى نفقته الخاصة — السيد بطرس كاتم سره الذى كان
وحده — دون بقية القوم قاطبة — موضع ثقة الملك ، وأجذت محاولات الملك
نفعاً في تهدئة الخواطر بين المتقاتلين .

٦٨٣ — أما فيما يتعلق بالأجانب الذين أصلح الملك فيما بينهم فقد كان بين
رجال مجلسه من كانوا يرون أن الأجدى عليه تركهم يتقاتلون فيما بينهم
ليضعف شأوهم ويزدادوا فقراً ، وإذ ذاك تصبح هجماتهم عليه أضعف مما
تكونه لو كانوا أغنياء، فكان الملك يجيبهم على ذلك بقوله إنهم مخططون
فيما ذهبوا إليه « لأن الأمراء المجاورين إذا رأوني تاركاً إياهم يتقاتلون فيما بينهم
فقد يستطيعون الاتفاق فيما بينهم ويقولون : إن الملك يضر لنا الشر ، ومن ثم
فإنه يتركنا يحارب بعضنا بعضاً، وقد تدفعهم الكراهية إذ ذاك للتكتمل والهجوم

على ويلحقون بي خسارة كبرى ، هذا بالإضافة إلى أنني أكون حينئذ قد استجلبت غضب الرب القاتل : طوبى لصانعى السلام .

٦٨٤ — وقد حدث أن أحبه أهل برجنديا والورين الذين أصلح بينهم فأطاعوه طاعة عظمى حتى لقد رأيتهم يجيئون إليه ويرفعون قضايهم أمامه فى محاكمة ريمز وباريس وأورليان .

• • •

خوف لويس وجوانفيل من التجديف

٦٨٥ — كان حب الملك عظيما للرب ولأمة الحنون ، حتى لقد أمر بالتشديد فى معاقبة من يثبت عليهم أنهم تناولوها بالسوء أو السخرية أو القسم بهما قسما كاذبا . ولقد رأيت مرة يأمر بربط أحد الصاغة فى قيسارية إلى سلم وليس عليه سوى قميصه وسرواله ، وقد شدت حول عنقه كميات كبيرة من إمعاء خنزير حتى بلغت أنفه .

وسمعت بعد عودتى من وراء البحار أنه أمر بكى مواطن باريسى بالنار فى أنفه وشفتيه^(١) ، غير أنني لم أشاهد ذلك الأمر بنفسى .

واعتماد الملك القديس أن يقول « أوثر أن أكونى بالحديد الحى لو كان فى ذلك منع جميع الأقسام الكاذبة من مملكتى » .

٦٨٦ — لقد رافقته اثنتان وعشرين سنة لم أسمع خلافا أبدا يحلف بالله

(١) الوارد فى جونز ، ص ٥٢٧ أن جوانفيل سمع بهذا الحادث عندما كان فى إمارته جوانفيل ، وأنه جرى عقب عودة الملك من فلسطين وأن الكى كان فى الأنف والشفة السفلى .

أو بالعدراء أو بأحد من قديسيه ، وكان إذا أراد تأكيده شيء ما قال : « الحق أنه كان كذا » أو « الحق أنه كذا »^(١) .

٦٨٧ — كذلك لم يطرق سمعى أبداً أنه نطق بكلمة « الشيطان » اللهم إلا إذا جاء ذلك في كتاب حين ينبغي أن يحى ذكره ، أو ورد في حياة القديسين حيث ترد الإشارة إليه في الكتاب ، وما أعظم خجل مملكة فرنسا وخجل الملك من أنه لم يكن ثم أحد يتكلم دون أن يقول « فليأخذ الشيطان » . إذ أنه من أشد الأمور إيلاماً للنفس أن ندعو على قوم — رجالاً كانوا أم نساءً — أن يأخذهم الشيطان بعد تعميدهم الذي أصبحوا به أبناء الله .

وكان المؤلف في بيت جواناتيل أن يضرب أو يجلد من يجرى على لسانه مثل هذا القول ، حتى لقد كادت هذه العبارة البذيئة أن تجتث منه .

• • •

حبه للفقراء وتعليمه أطفاله ومؤسساته الخيرية

٦٨٨ — ولقد سألت ذات مرة عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء يوم الخميس المقدس ، فأجبت « كلا » لأن مثل هذا العمل يبدو في عيني ممجوجاً فأخبرني أنه ينبغي علي ألا استنكف أو اشمئز مادام السيد المسيح قد فعله بنفسه ،

(١) جاء بعد هذا في نسخة جونز ، ص ١٨٥ « وكان من الواضح جداً أنه لم يكن ليجد الرب في سهيل أى عرض دنيوى ، وحدث أن رغب سلطان مصر وأمرأؤها أن يفعل ذلك إن شجبت اتفاقه معهم ، فلما علم أن هذا هو آخر اقتراح يقدمه الترك قال إنه يفضل الموت على ارتكاب مثل هذا الجرم » .

وقال لى « إذن فأنت تكره أن تفعل ما فعله ملك إنجلترا من غسله أقدام
المرضى بالبرص وتقبيله إياهم » .

٦٨٩ — وكان قبل انكفائه إلى فراشه يستدعى أبناءه إليه ويقص
عليهم أنباء الملوك والأباطرة الصالحين ، طالباً إليهم أن يترسموا خطى هؤلاء
الصالحين ، كذلك يذكرهم بأعمال الأمراء الطالحين الذين أضاعوا ما بيدهم
من جراء إسرافهم وجشعهم ، ثم يقول لهم « وإننى لأذكركم بهذه الأشياء
عساكم تتجنبونها وحتى لا يصيبكم مقت الرب وغضبه » .

وقد علمهم صلوات ساعات سيدتنا ، وأن ينشدوا أمامه صلوات ساعات
اليوم لينشئهم على الاستماع إلى صلوات الساعات حينما يؤول إليهم حكم
أراضيهم .

٦٩٠ — كان الملك يكثر من إخراج الصدقات الجمة ، وكان كلما جال
في مملكته أمر بتوزيع الأموال على الكنائس الفقيرة وعلى بيوت المرضى
وبيوت الصدقة وعلى الفقراء الصالحين : رجالا كانوا أم نساء ، ممن أخنى
عليهم الدهر .

وكان يطعم في كل يوم فئة كبيرة من الفقراء إلى جانب من يأكلون
على مائدته ، وكثيراً ما رأيتـه يوزع عليهم الخبز بيديه ويسقيهم
بنفسه .

٦٩١ — ولقد بنى في عهده كثير من الأديرة منها ديرارويومونت
والقديس انطونيوس في باريس ، ودير ليس Lis ودير موبيسون Maubisson ،
إلى جانب كثير من أديرة الإخوان المبشرين والفرنسيسكان ، فبنى خان بونتواز

وخان فيرنون وبيتاً للمكفوفين في باريس، وديراً للراهبات الفرنسيكانيات في سنت كلو وهو الذي أنشأته أخته الأميرة إيزابلا بإشارته .

٦٩٢ — وكان إذا جاءه شيء من دخل الكنيسة المقدسة عمد قبل توزيعه إياه إلى مشاورة المتدينين الأفاضل وسواهم ، حتى إذا وقف على ما يريد وزع هذا الدخل بضمير مستريح ، غير مراعاة في ذلك سوى رضا الله وحده ، ولم يعط أبداً شيئاً من المنح لرجل من رجال الدين قد أخذ شيئاً من قبل ، وكان إذا ذهب إلى مدينة من مدن مملكته لم تطأها قدمه من قبل مضى إلى المبشرين والإخوان الفرنسيكان — إن وجدوا — ملتصقا منهم دعواتهم .

• • •

كيف أصاح أعماله ومتشاته الجديدة

٦٩٣ — بعد عودة الملك لويس إلى فرنسا من وراء البحار كرس نفسه كل التكريس لمخلصنا ولإحقاق العدالة مع رعاياه ، مدركاً أن ذلك هو السبيل الصالح الخير لإصلاح مملكة فرنسا ، فبدأ أولاً بسنّ قانون عام نافذ بين جميع رعاياه في كافة أرجاء مملكة فرنسا ، صورته كالتالى :

٦٩٤ — « نحن لويس ملك بمشيئة الرب ، نأمر جميع أشرف مقاطعاتنا الفيكونتات والمديرين وغيرهم مهما كانت الظروف وأيا كانت مراتبهم بأن يقسموا العهد على أن يكون ديدنهم في الحكم — طالما هم يشغلون إحدى الوظائف المشار إليها — إقامة العدل بين الجميع دون تفرقة بين الناس : فقيرهم وغنيهم ، سواء من كان منهم غريباً أو مواطناً ، وأن يراعوا العادات والتقاليد الطيبة الحميدة ويمارسوها .

٦٩٥ — « وإذا حدث أن سلك أشراف المقاطعات أو الفيكونتات أو غيرهم كالجنود أو حراس الغابات مالا يتفق والأيمان التي قطعوها فإننا نأمر بمعاقبتهم فيما ملكت أيديهم، أو في أنفسهم إذا استحق الجرم ذلك، وسيوكل إلينا نحن عقاب أشراف المقاطعات، أما من عداهم فيكون عقابهم على يد أشراف المقاطعات أنفسهم.

٦٩٦ — « ومن الآن فصاعداً بقسم المديرون وأشراف المقاطعات والسرجنديّة يمين الإخلاص بمراعاة إيجاراتنا وحقوقنا، والقيام عليها أحسن قيام، وأن يراعوا عدم الافتيات على حقوقنا أو إضاعتها أو التقليل منها، وأن يقسموا مع هذا أيضاً على ألا يأخذوا أو يتناولوا شيئاً تناولاً مباشراً أو عن طريق غيرهم: ذهباً كان أو فضة أو أى شيء ذا نفع غير مباشر، أو أى شيء آخر غير الفاكهة والخبز والخمر، أو غيرها من الهدايا التي لا تتجاوز قيمتها عشر سوسات.

٦٩٧ — « وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يقسمون ألا يأخذوا أو يسموا لأخذ أى هدية مهما كان نوعها عن طريق زوجاتهم أو أبنائهم أو إخوتهم أو أخواتهم أو عن طريق أى أشخاص آخرين ممن يمتنون إليهم بصلّة ما، فإذا وصل إلى علمهم أن هؤلاء الأشخاص أخذوا مثل هذه الأشياء بادروا إلى إلزامهم بردها بأمرع ما يمكن، وعليهم أن يقسموا أيضاً ألا يقبلوا هدية ما أيا كانت من أى شخص يعمل معهم، أو من أى شخص آخر تكون له قضية منظورة أمامهم، أو تكون له شكوى بين أيديهم.

٦٩٨ — « وعليهم أن يقسموا اليمين على ألا يقدموا هدية لأى رجل

من رجال مجلسنا أو لزوجاتهم أو لأبنائهم أو لأى فرد من ذوى قرباهم ، وألا يقدموا هدية للأشخاص الذين سوف يراجعون حسابات الموظفين أو لأى شخص آخر ممن نرسلهم من قبلنا إلى دوائرهم أو إلى مديرياتهم للتفتيش على أعمالهم ، وأن يقسموا مع هذا يميناً على ألا يأخذوا أى ربح عن أى شىء يباع من مستأجراتنا أو من أشياء تعود إلينا .

٦٩٩ — « وعليهم أن يقسموا ويتعهدوا بأنهم إذا عرفوا أن أى موظف أو سرجندى أو مدير ممن يعمل تحت إمرتهم قد خانت الأمانة بالسرقه أو الاغتصاب ، أو اتهم بتهمة أخرى تلزمه بالتخلي عن خدمتنا ... إذا عرفوا ذلك عن شخص من هؤلاء فعليهم ألا يبقوه من أجل هدية أو عهد أو مودة خاصة أو أى سبب آخر ، بل عليهم معاقبته ومحاكمته محاكمة صادقة .

٧٠٠ — « وعلى مديرينا وفيكونتاتنا وعمدنا وحراس غاباتنا وجميع سرجنديتنا من المشاة والخيالة أن يقسموا اليمين على ألا يهادوا رؤساءهم أو زوجات رؤساءهم أو أطفالهم أو أى واحد ممن يتصل بهم .

٧٠١ — « ولما كنا نريد انتظام هذه العهود انتظاماً صادقاً فإننا نأمر بأخذها بكامل صورتها أمام الجميع بواسطة رجال الدين والمدنيين والفرسان والعسكر ؛ حتى ولو كان بعضهم قد أقسم من قبل أمامنا ، نأمر بذلك كي تكون هذه الأيمان أكثر مراعاة ، ولكي يكون من أقسموها خائفين من خطيئة اليمين الكاذب أو خوفاً من العقاب الذى نوقعه بهم بل خوف العار الذى يجللهم أمام الناس ، وخوف العقاب الذى ينزله بهم الرب فيما بعد .

٧٠٢ — « ونريد من جميع مديرى مقاطعاتنا ورؤساءها ونفرض عليهم

الامتناع عن التفوت به أى كلمة يكون فيها تعريض بالرب أو بسيدتنا أو بالقديسين وأن يكتموا كذلك عن لعب الميسر وعن غشيان الحانات ، ونأمرهم بمنع صنع زهر القمار فى جميع أنحاء مملكتنا، وإخراج جميع النساء الداعرات من كل بيت، وكل من يؤجر بيتاً لداعرة يؤول أجر بيته مدة عام إلى مدير المقاطعة أو شريفها .

٧٠٣ — «وزيادة على ذلك فإننا نمنع رؤساء مقاطعاتنا من القيام بعمليات الشراء الخادعة، ونمنعهم من أن يأمرُوا مباشرة أو عن طريق سواهم — بشراء أى شىء أو أرض تكون فى مقاطعاتهم أو فى غيرها طالما هم عاملون فى خدمتنا وبدون إذن وتصريح منا . فإذا تمّ مثل هذا البيع فإننا نأمر بأيلولة الأرض التى هى محل البحث إلى أيدينا وبقائها فيها .

٧٠٤ — «ونمنع جميع رؤساء مقاطعاتنا — طالما هم فى خدمتنا — من أن يزوجوا أحداً من أبنائهم أو بناتهم أو أى شخص آخر ممن ينتمى إليهم دون مصادقة منا ، وبالإضافة إلى ذلك نمنعهم من وضع مثل هؤلاء فى بيت دينى فى مقاطعاتهم، أو تزويدهم بشىء ما من دخل الكنيسة المقدسة أو أى ممتلكات أخرى .

وزيادة على ذلك نمنعهم من إعطائهم حقوقاً أو مساكن فى بيوت الصدقة أو على مقربة منها ، مما يكون فيه افتئات على حقوق رجال الدين ، على أن هذا المنع الخاص بالزواج والتملك المذكورين من أعلاه لا ينطبق على مديري المقاطعات وعمدها أو غيرهم ممن دونهم مرتبة .

٧٠٥ — « ونأمر ألا يحتفظ أى رئيس مقاطعة أو مديرها أو أى شخص آخر بكثير من العسكر أو الشمامسة حتى لا يتحمل الناس عبء إعالتهم

وإطعامهم ، ونأمر بأن يصبح الرجل شماساً بالتعيين وإلا لم يعتبر شماساً ، وكذلك لابد من تزويد سكرنا المسافر إلى مكان بعيد أو إلى قطر غريب بخطابات من رؤسائهم .

٧٠٦ — « ونأمر ألا يثقل رئيس المقاطعة أو مديرها من في خدمتنا كاهل أهلها الطيبين في أحكامه بما هو خارج عن نطاق الحق والعدالة ، وألا يوضع أحد من رعايانا في الحبس من أجل دين إلا إذا كان هذا الدين مستحقاً لنا نحن فقط .

٧٠٧ — « ونأمر ألا يجبي أحد رؤساء مقاطعاتنا غرامةً لدين مستحق على أحد من رعايانا ، أو من أجل أي إساءة إلا قرّرت هذه الغرامة في محكمة عامة تقدر قيمتها بناء على نصيحة الأشخاص المقتدرين والمتكافئين ، حتى ولو كانت الغرامة قد قدرت من قبل .

٧٠٨ — « وإذا حدث أن المتهم لم ينتظر حكم محكمتنا الذي سوف تقضى به عليه بل قدّم مبلغاً معيناً من المال بدلا من الغرامة فإننا نقوّض المحكمة قبول هذا المبلغ إن كان معقولا وملائماً ، فإذا لم يكن كذلك فإننا نأمر بدفع الغرامة المقرّرة بالمبلغ السالف ذكره حتى ولو سلم المذنب نفسه إلى المحكمة .

« واننا نهى رؤساء المقاطعات وعمدها ومديريها عن إرغام رعايانا - سواء بطريق التهديد أو الارهاب أو التلاعب والاحتتيال - على دفع الغرامة سرّاً أو جهراً ، أو اتهام أحد إلا بسبب معقول .

٧٠٩ — « ونأمر متولى وظائف رئاسة المقاطعات والإدارة والفيكونتية أو أي وظيفة أخرى ألا يبيعوا ما بيدهم من الوظائف إلى آخرين إلا برضائنا وموافقتنا ، وإذا حدث أن اشترك عدة أشخاص في شراء إحدى تلك

الوظائف السالفة الذكر فإننا نأمر بأن يوكل تنفيذ جميع واجبات الوظيفة إلى واحد من المشتريين نيابة عن الآخرين ، وإذ ذاك يتمتع هو وحده دونهم جميعا بامتيازات الوظيفة فيما يتعلق بالسفر والضرائب والنفقات العامة، كما جرت العادة من قبل .

٧١٠ — كذلك نمنعهم من أن يبيعوا الوظائف المشار إليها إلى إخوتهم أو أبناء إخوتهم وأبناء أعمامهم بعد شرائهم إياها منا ، وألا يطالبوا بأى ديون قد تكون مستحقة لهم إلا ما كان منها متعلقا بوظائفهم . أما ما يتعلق منها بديونهم الشخصية فإنهم يستردونه بواسطة سلطة رئيس المقاطعة كما لو لم يكونوا فى خدمتنا .

٧١١ — « ونهى رؤساء مقاطعاتنا ومديريها عن تكليف رعايانا بما يشق عليهم فى المسائل المعروضة عليهم، وذلك بنقلهم مكان إقامة الدعوة من بقعة إلى أخرى ، بل عليهم أن يفصلوا فى القضايا المعروضة عليهم فى المكان المقرر عليهم سماعها فيه ، حتى لا يحمل ذلك رعايانا على التنازل عن حقوقهم المشروعة تجنباً للمشقة أو كثرة النفقات .

٧١٢ — « ومن الآن فصاعداً نأمر جميع رؤساء مقاطعاتنا ومديريها ألا يفتصبوا من أى شخص شيئاً مما تملكه يداه قبل القيام بالاستفسار التام عنه، أو من غير صدور أمر خاص منا ، وعليهم ألا يفرضوا على شعبنا ضرائب أو قروضا جديدة أو يستحدثوا مكوساً، وألا يرغبوا أحداً ما على الانخراط فى سلك الجيش بغية ابتزاز المال منه ، لأننا نأمر ألا يدعى شخص ما للقيام بالخدمة الحربية دون حجة وجيهة .

أما من يرغبون فى الانخراط فى الجيش شخصياً فلا يجبرهم أحد على شراء الإعفاء وبدفع مبالغ من المال .

٧١٣ - « وزيادة على ذلك فإننا نأمر رؤساء مقاطعاتنا ومديريها أن يمنعوا إخراج الخنطة والنبيد وغيرها من السلع من مملكتنا دون مبرر كافٍ فإذا كان الملائم إخراج هذه الأشياء من المملكة فليكن ذلك بأمر يعلنه جهاراً فضلاء الناس ممن لا تحوم حولهم شبهة من تزوير أو خطأ .

٧١٤ - « كذلك نأمر جميع رؤساء المقاطعات الفيكونتات ومديري النواحي والعمد بالبقاء حيث هم مدة أربعين يوماً عقب تركهم الوظيفة في النواحي التي كانوا يمارسون فيها مهام وظيفتهم ، ويكون بقاء الواحد منهم بشخصه ، أو عن طريق من ينوب عنه للإجابة عن كافة الاستفسارات التي يريدونها الرؤساء الجدد بشأن أى خطأ يكون قد ارتكب ، أو يكون ادعى به أحد ما عليهم » .

...

وبهذه القوانين عمل الملك كثيراً على تحسين أحوال المملكة .

إصلاح ولاية باريس

٧١٥ - كانت وظيفة ولاية باريس تباع في ذلك الوقت إلى أثرياء باريس أو لغيرهم ، وكان الذين يشترون هذه الوظيفة يسيطرون ظل رعايتهم على أبنائهم وأبناء إخوتهم إن ارتكبوا جرماً ، ومن ثم كانت الصغار لا يبالون بارتكاب المفسد ، اعتماداً منهم على نفوذ من يتولون ولاية باريس ، وهذا هو السبب الذي من أجله كثيراً ما ديسن ضعاف الناس بالأقدام ، دون أن يستطيعوا إحقاق العدالة ضد الأغنياء بفضل ما يقدمونه من الهدايا والمنح العظيمة إلى مديري الولاية .

٧١٦ - وكان يحدث في هذا الوقت إذا ما تفوه إنسان بكلمة حق

أمام مدير ولاية باريس وأصر على يمينه رافضاً الرجوع فيها فيما يتعلق بدين أو أى مسألة أخرى ملزم بأداء الشهادة فيها فإن مدير الولاية يفرمه إذ ذاك ويعاقبه؛ وقد أدت فداحة الظلم الواقع على الناس وتعدد السرقات الكبيرة المنسوبة إلى مديري الولايات إلى أن انعدمت رغبة المستضعفين في البقاء في أرض الملك، بل أخذوا يرحلون إلى ولايات أخرى يقيمون بها، وهجر الناس أرض الملك، فكان مدير الولاية إذا عقد محكمته لم يحضرها أكثر من عشرة أشخاص أو اثني عشر شخصا.

٧١٧ - وزيادة على هذا كله حفلات باريس وما حولها بكثير من

الجنائاة واللاصوص، وسرعان ما نمت الخبر إلى علم الملك الذي كان شديد المثابرة على الاستفسار عن أسلوب حكم شعب مملكته، وعن الطرق المتخذة لحمايتهم، لذلك سرعان ما أمر بمنع بيع وظيفة حاكم باريس، وأجزل المرتبات الضخمة الطيبة لمن أصبحوا يتقلدون الوظيفة المشار إليها، كما أسقط جميع الضرائب الظالمة المفروضة على الأهليين، وراح يفتش في كافة أرجاء المملكة عن الرجال الذين ينفذون العدالة تنفيذاً دقيقاً طيباً محكماً، ولا يحابون غنياً على حساب فقير.

٧١٨ - ثم نمت إلى سمعه أن ستيفن بوالو Boileau - الذي تولى وظيفة

المدير قبلاً حسن الحكم في ولايته، فلم يعد يجرؤ على الإقامة بباريس مجرم أو لص أو سفاك، لإدراكه أن مصيره الشنق أو الإعدام إن فعل ذلك، ولا ينجيه من ذلك نسب من أب، أو قرابة، أو ذهب، أو فضة، لذلك أخذت أرض الملك في التحسن، وعاد الناس منذ ذلك الحين إليها التماساً للعدالة السليمة التي

سادت المنطقة ، وبذلك تكثر السكان وازدهرت الأحوال ، حتى تضاعفت قيمة المبيعات والممتلكات والمشتريات وسواها ، فيما لو قورنت هذه القيمة بما كان يتناوله الملك من قبل^(١) .

٧١٩ - وبهذا القانون أيضاً تحسنت أحوال مملكة فرنسا تحسناً كبيراً ، كما يشهد بذلك كثير من المسنين العقلاء .

...

صدقاته ومؤسسته الدينية

٧٢٠ - سب الملك منذ نعومة أظفاره شقيقاً بالفقراء والمنكوبين رحيماً بهم ، وجرت عادته أن يطعم أنى ذهب وأنى نزل مائة وعشرين فقيراً ، فيقدم لهم بيده الخبز والخبز واللحم أو السمك .

وكان عدد هؤلاء يزداد في أيام الصوم الكبير وصيام الميلاد ، وكثيراً ما كان يحدث أن يطعمهم الملك بنفسه ، ويضع الطعام أمامهم بيديه ، ويقطع اللحم شرائح لهم ، ويوزع عليهم نقوداً من ماله الخاص .

٧٢١ - فإذا كانت ليالى الأعياد الكبرى والاحتفالات المقدسة وزع كل ما ذكرناه آنفاً على الفقراء ، وقدمهم على نفسه قبل أن يتناول طعاماً أو شرباً ، هذا بالإضافة إلى أنه كان في كل يوم يجلس إلى جوار المسنين

(١) ورد بهذا في نسخة ويللى ومرزيبالس « وفي جميع هذه الأمور التي أمرنا بها لصالح رعييتنا وممالكنا نحفظ لأنفسنا بالحق في تفسيرها أو تعديلها أو تأجيلها حسبما يترأى لنا » . ولكنها غير واردة في نسخة جونز ، وليس لها في الواقع موقع هنا إلا أن تكون بقية مرسوم الملك .

والمعجزة ويقدم لهم الغذاء أو العشاء ، ويأمر بإطعامهم نفس الطعام الذي يقدم إليه هو ذاته ، حتى إذا فرغوا من أكلهم وصلّهم بقدر معين من المال .

٧٢٢ — وإلى جانب هذا كله كان الملك يتصدق كل يوم بمبالغ كثيرة وضيعة على رجال الدين والفقراء وملاجى الفقراء وعلى الهنئيات الفقيرة ، كما كان يتصدق على المعدمين من الرجال والنساء والأوانس ، وعلى النسوة الساقطات والأرامل المتربات وكل ذات حمل ، وكذلك على العمال الفقراء الذين أقعدتهم الشيخوخة أو المرض عن العمل في حرفهم ، حتى ليكاد يكون من المستحيل تعداد صدقاته ؛ ولذلك يمكن القول أنه كان أسعد طالعا من تيتوس إمبراطور روما الذي تذكر الكتب القديمة أنه كان يستشعر الحزن والقلق إن مرّ به يوم عجز عن مد يد الإحسان فيه .

٧٢٣ — وشرع منذ أن أخذ مقاليد مملكته في يديه ويدرك موقفه في تشييد الكنائس وكثير من البيوت الدينية ، من بينها دير رويومونت الذي يمتاز بجماله وعظمته .

كذلك بأمر بإقامة كثير من بيوت الصدقة ، منها واحد في باريس وآخر في بونتواز، وثالث في كومبيين، ورابع في فيرنون ، وأوقف عليها دخولا ضيعة ، كما أنشأ دير سنت ماتيو في روان Rouen جمع فيه راهبات طائفة الإخوان المبشرين ، وشيد كذلك ديرا في لونشان أنزل به راهبات طائفة الإخوان المينورست ، وخصّص لهن مبالغ ضيعة للصرف منها .

٧٢٤ — كذلك سمح لأمه أن تؤسس دير «ليس» قرب ميلون الواقعة على نهر السين Melun-sur-Seine ، وديرا قريبا من بونتواز يعرف بدير موييسون،

وخصّص لها مبالغ كثيرة وممتلكات ضخمة ؛ كذلك أمر ببناء بيت
للمسكوفين قرب باريس لاستقبال عُنى المدينة الفقراء ، وأمر بإقامة
كنيسة لهم لأداء الصلاة ؛ وكذلك أمر الملك الصالح ببناء ملجأ للعجزة
يُعرف باسم بيت قوفيرت Vanvert خارج باريس ، وأوقف عليه مبالغ
كافية للرهبان الذين يقومون فيه بخدمة السيد الرب .

٧٢٥ — ثم ما لبث أن أمر بإنشاء بيت آخر خارج باريس على الطريق
المؤدى إلى سنت ديس عرف بيت بنات الرب، أشار أن يكون مقر عدد كبير
من النسوة اللأئى اضطرهن فقرهن للسقوط فى خطيئة الرذيلة ، وأجرى عليهن
أربعمائة دينار سنوياً .

وأقام فى كثير من نواحي مملكته بيوتاً للتأثبات وأجرى عليهن
معاشات يتكفن بها ، وأمر أن يسمح بالإقامة فيه لمن أرادت أن تحيا حياة
الطهر .

٧٢٦ — وقد تذر بعض خواصه من إسرافه فى منح هذه المبالغ الضخمة
وكثرة مصروفاته، فكان يقول لهم «وددت لو أن زائد الدخل قد خرج صدقة
فى سبيل الرب ، أكثر من صرفه فى سبيل الأبهة والزينة الفارغتين فى هذا
العالم» .

وعلى الرغم من أن الملك كان يبذل المبالغ الضخمة فى الصدقات إلا أنه لم
يقصر فى الإنفاق على أهل بيته . . .

وكان الملك يسلك سلوكاً كريماً فاضلاً فى برلمات باروناته وفرسانه

واجتماعاتهم ، فكان يأمر باستضافتهم في بلاطه ، ثم يروح يقدح عليهم إغداقاً
يعفو على منية المتعنى ، مما لم يعهد مثله في بلاط أسلافه .

* * *

مؤسساته الدينية في فرنسا

٧٢٧ - كان الملك يحب جميع من يكرسون أنفسهم لخدمة الرب
[(١) وأصحاب المسوح الدينية] ، ولم يحدث أن جاءه هؤلاء إلا واصلهم بما
يعيشون به ، فابتاع للأخوان الكرمليين أرضاً على السين ناحية شارنتون
charenton وأهداها إليهم ، وأمر ببناء بيت لهم ، واشترى لهم ملابس وكؤوساً
وأمثالها مما يحتاجونه في أداء خدمة سيدنا .

ثم اشترى بعدئذ لأتباع سنت أوجستين ضيعة أحد مواطني باريس وجميع
ملحقاتها ، كما أمر ببناء كنيسة لهم خارج بوابة مونتارتر .

٧٢٨ - وأعال الإخوان الصوفية وأعطاهم بقعة على نهر السين ناحية سنت
جرمين دي بريه St-Germain des Prés ، حيث استقروا هناك ؛ لكن لم يطل
بهم المقام إذ ما لبثوا أن اضطهدوا .

وبعد استقرار الإخوان الصوفية جاء دور فئة أخرى من الإخوان يسمون
بأتباع « العبادة البيضاء » الذين التمسوا مساعدته إياهم على الاستقرار في باريس ،
فابتاع لهم بيتاً بما حوله من المباني القديمة وأنزلهم بها ، وكان ذلك قرب بوابة

(١) غير واردة في جونز ، ص ٥٢٣ .

الداوية القديمة وعلى مقربة من دير الغزالين غير أن جمع ليون الذي عقده البابا جريجورى العاشر قرر القضاء على جماعة إخوان العباءة البيضاء .

٧٢٩ — جاء بعد ذلك فريق آخر من الرهبان سموا أنفسهم بإخوان الصليب المقدس وكانوا يحملون الصليب على صدورهم ، وقد سألو الملك أن يساعدهم فأجاب ملتئمهم راضياً مسروراً ، وأسكنهم شارعاً كان يسمى من قبل Carrefour des Temple ، أما الآن فيسمى بشارع الصليب المقدس . وهكذا أحاط الملك الصالح مدينة باريس بأهل الدين .

. . .

حمله الصليب للمرة الثانية

٧٣٠ — بعد حدوث الأمور المشار إليها سابقاً ، استدعى الملك إليه بباريس أثناء أحد أيام الصوم الكبير (سنة ١٢٦٧) جميع باروناته فاستأذنته عن نفسه في التغيب عن هذا الاجتماع بسبب حمى رباعية كانت ملته بي إذ ذاك ، لكنه أرسل إلى كلمة يقول فيها إنه يصّر على وجوب حضوري ، لوجود جماعة من خيرة المطّيبين والحكماء معه ، ممن يعرفون معالجة الحمى الرباعية خير علاج .

٧٣١ — ذهبت إلى باريس فلما بلغت في ليلة عيد سيدتنا في مارس لم أجد الملكة أو أحداً يستطيع إخباري بعلّة استدعاء الملك إليّ ، وحدث إذ ذاك أن غفت عيني بمشيئة الرب أثناء صلاة السحر ، وخيل إلى أنّي أرى فيما يرى النائم أن الملك راكع أمام المذبح ، وأن هناك كثيراً من رؤساء الأساقفة في أبهى حللهم وهم يلبسونه حلة كنائسية حمراء من قماش ريمز الصوفي الخشن .

٧٣٢ - فلما استيقظت من هذا الحلم استدعيتُ إلى قسيسى الشيخ ولیم ، وكان رجلاً عالماً ، وقصصت عليه رؤياى فقال لى « مولای ، سوف ترى الملك يحمل الصليب غداً » ، فسألته عما يحمله على هذا الظن ، فأنبأنى أنه يرجح ذلك بسبب هذه الرؤيا ، لأن الحلة الكتانية المصنوعة من الصوف الخشن رمز للصليب الذى جلمته بالحمرة القانية دماء السيد التى نزفت من جنبه وقدميه ويديه وقال : « لما كانت الحلة الكتانية من صوف ريمز الخشن ، فإنها ترمز إلى أن حملته الصليبية هذه المرة لن تكون ذات جدوى كبيرة كما سترى ، إن مدّ الله فى أجلك » .

٧٣٣ - وبعد سماعى القداس فى كنيسة مجدلين بباريس ذهبت إلى كنيسة الملك ، فوجدته قد صعد إلى الهيكل الذى توجد به الآثار المقدسة ، وقد أمر بإنزال الصليب الحقيقى ، وبينما كان الملك نازلاً خرج الهيكل راح فارسان من أعضاء مجلس مشورته يتجاذبان الحديث فيما بينهما ، فقال أحدهما للآخر « لا تصدقنى بعد الآن أبداً إن لم يُصلّب الملك نفسه » ، فأجابه الآخر « إن صلب الملك نفسه فسيكون ذلك من أفجع الأيام التى مرت بفرنسا ، لأننا سوف نفقد عطف الملك إن لم نحمل الصليب ، أما إذا حملناه فسوف نفقد عطف الرب ، لأن حملنا إياه هذه المرة لن يكون فى سبيل الله ، بل خوفاً من الملك » .

٧٣٤ - وحدث فى اليوم التالى أن حمل الملك الصليب ، وحمله معه كذلك أبناؤه الثلاثة ، لكن لم تأت هذه الحملة الصليبية بالفائدة المرجوة مصداقاً لنبوؤة قسيسى .

ولقد بلغ بي التأثير غاية حيث رأيت ملك فرنسا وملك نفلره
يلبسان الصليب .

٧٣٥ — ولكن كان ردّي عليهما أنه حدث — في أثناء قيامي بخدمة الرب
والملك في ما وراء البحار ومنذ عودتي — أن خربّ عسكر ملك فرنسا وملك
نفارة^(١) أرضي ، وأفقروا أتباعي ، حتى عُدْتُ وإياهم أفقر الناس ؛ وأخبرت
الملكين بذلك الأمر ، ذا كراً لهما أن الواجب يقتضي — إن أردت مرضاة
الله — أن أبقى هنا لمساعدة جماعتي والدفاع عنهم . أما إذا أسهمت بنفسي في
حملة الحجاج الصليبية مع ما أراه في هذا الإسهام من ضرر بأتباعي وهلاك لهم
فإنني أكون بذلك قد عملت على إغضاب الرب الذي ضحى بنفسه لخلاص شعبه .

٧٣٦ — ولقد اعتبرت جميع من أشاروا على الملك بالنهوض بهذه الحملة
قد ارتكبوا ذنباً مهلكاً وخطيئة كبرى ، لأن أمور مملكة فرنسا الداخلية
كانت في هذه الآونة هادئة مستقرة ، كما أن السلم منعقد بينها وبين جيرانها ،
لكن أحوالها أخذت تثقل من مني إلى أسوأ منذ زحيلة عنها .

٧٣٧ — كان إثم الذين أشاروا على الملك بالسفر إثمًا عظيماً لمعرفتهم ما
كان عليه من ضعف جسماني ، إذ لم يكن يحتمل أن يؤخذ في عربة أو يركبوه
جواداً ، ولقد بلغ من الضعف حداً أمرني معه أن أحمله بين ذراعي من بيت

(١) ربما كانت عبارة جوتر ، ص ٢٤٥ أصدق تاريخياً مما ورد في الترجمة أعلاه فقد جاء
فيها : « ألح على ملكا فرنسا ونفلره أن أحمل الصليب وأن أساهم في الحج معهما ؛ لكنني
أجبتهم أنه في أثناء تغيبي فيما وراء البحار في خدمة الرب اشتدّ عمال ملك فرنسا في إرهابي
لأهالي بلغوا معه حد التوبة ، حتى إننا نجد مشقه كبرى في إصلاح أنفسنا . »

كونت دا كسير Auxerre حيث استأذنت منه وذهبت إلى دير الرهبان
الفرنسيكان .

ورغم ما كان عليه الملك من شدة الضعف إلا أنه كان من المحتمل أن
يعيش أمداً أطول ، وأن يسدى خيراً كثيراً ، وينهض بأعمال جليلة لو أنه بقي
في فرنسا .

مرض لويس وتعاليمه لولده

٧٣٨ — لن أقول شيئاً عن سفر الملك إلى تونس لعدم وجودي بها
ولله الشكر ، ولا أحب أن أضمن كتابي أمراً لست على ثقة منه ، لذلك
سنتكلم فقط عن ملكنا القديس ونخبر كيف أنه — بعد رسوّه بتونس —
أمام قلعة قرطاجنة — أصابه إسهال في العدة ، كما مرض ابنه الأكبر فيليب
بحمى رباعية وبنفس الإسهال الممّوى الذي ألمّ بالملك ، فحملوه إلى فراشه ، وشعر
بدنو أجله ، وأنه راحل عن هذا العالم سريعاً إلى العالم الآخر .

٧٣٩ — ومن ثم استدعى ابنه سيدي فيليب وأمره — كما لو كان يلقي
إليه بوصيته — بمراعاة جميع التعاليم التي تركها له ، والتي أدوّنها هنا باللغة
الفرنسية والتي يقال إنها كانت مكتوبة بيد الملك المقدسة وجاء فيها :

٧٤٠ — « ولدي العزيز ، إن أول شيء أحب أن ألقنك إياه هو أن
تجعل قلبك عامراً بحب الله ، فلو لا هذا الحب ما كانت النجاة ، وجنب نفسك
إتيان أي عمل كارتكاب الذنوب مما يغضب الرب ، ولئن تكابد شتى
خروب العذاب أنفع لك من أن ترتكب إثماً كبيراً .

٧٤١ — « وإن دهاك الله بداهية فتقبلها صابراً وأشكر مخلصنا واعتبر نفسك مستحقاً لها ، وأنه سيحولها إلى نفعك ، وإن مسك بخير فاشكره متواضعاً حتى لا يزدهيك الغرور ، لأنه لا ينبغي علينا أن نسيء إلى الرب على عطاياه لنا .

٧٤٢ — « وأكثِر من الاعتراف ، واختر لهذا رجلاً مستقيماً فاضلاً تعترف له ويدرك كيف يعلمك ما تفعله وما لا تفعله ، واسلك سبيلاً يمكن من تعترف لديه ويمكن أصدقاءك من القدرة على لومك وزجرك إن تنكبت الطريق ، واستمع إلى صلوات الكنيسة المقدسة في ورع وفي صمت ، وادع ربك بقلبك ولسانك معاً ، لا سيما إذا كنت في ساعة قداس ، واملا قلبك بالحنان والرحمة يرفرف بهما على الفقراء والبؤساء والمنكوبين ، واعمل على راحتهم ومساعدتهم بكل ما فيك من قدرة .

٧٤٣ — « وتمسك بعتايد مملكتك الطيبة وانبذ السوء منها ، ولا تدع أطعامك تستشرف ما في يد شعبك ، فلا تنجب منه من الضرائب أو المكوس إلا ما مست إليه الحاجة ودعت إليه الضرورة .

٧٤٤ — « وإذا شعرت بعبء ثقیل على فؤادك فافض به إلى من تعترف بين يديه ، أو لرجل مستقيم فاضل غير جعجاع بفارغ القول ، وإذا ذلك أصبح قادراً على تحمل هذا الثقل في يسر .

٧٤٥ — « وتخير صحبتك من الدينين والعلمانيين ممن تتوسم فيهم الاستقامة والفضيلة والإخلاص ، ومن تجردت نفوسهم من الطمع ، وأكثِر من محادثتهم ، وتجنب صحبة الأشرار ونحهم عنك ، وأصنع في رضا إلى كلمة الرب وعيها في .

قلبك ، وثابر على صلواتك وتسامحك ، وأحب كل ما هو طيب ونافع ،
وابغض كل ما انطوى على شر أينما كان .

٧٤٦ - « ولا تجرّىء أحداً ما أن يفوه أمامك بكامة قد تؤدي أو تجر
إلى معصية ، ولا تشجعه على أن يغتاب بالشر أحداً من وراء ظهره التماساً
للذة ، ولا تسمح بأن يقال في حضرتك أية كلمة فيها إتهان للرب ولتقديسه ؛
وأكثر من شكر الله على نعمه التي أنعم بها عليك لتسكون أهلاً للمزيد منها .
٧٤٧ - « وكن مستقيماً وصلياً لتقيم العدل والحق بين رعاك ،
فلا تنحرف يميناً أو شمالاً ، وخذ بيد الفقير حتى يتضح الحق ، وإذا اتخذ أحد
ما ضدك أمراً فلا تسم به الظن حتى تتعرف الحقيقة ، وحينذاك يكون
مشاوروك اجراً في الحق ، سواء أكان لك أم عليك .

٧٤٨ - « وإذا كنت تحوز شيئاً مما يملكه آخر ، سواء أكان هذا
التملك بقرار منك أو من أسلافك وثبتت ملكية الآخر له فأعده إليه دون
توان أو إهمال ، أما إن كان الأمر موضع شك فيكل أمر الاستفسار عنه
إلى رجال حكماء في مشاورة وعزم .

٧٤٩ - « وابذل عنايتك في أن يعيش موظفوك ورعيتك في ظل
حكمك عيشة قوامها الهدوء والاستقامة ، وارع على وجه الخصوص القرى
الآمنة ومجتمعات مملكته لتكون كلها ناعمة بالحرية التي كان أهلها يتمتعون
بها زمن أسلافك ، وإن وجدت أسراً يحتاج إلى تقويم فتقومه ، أو معوجاً فتقّمه
بنفس ملؤها الحب ، وحافظ على قوة بدنك الكبرى وثروتها ، إذ لا يجد
إذ ذاك رعيك أو الأجانب ثغرة يهاجمونك منها ، لا سيما كبار رجالاتك
وباروناتك .

٧٥٠ — «وأحب جميع المنتمين الى الكنيسة المقدسة ووقّرمهم ، ولا تدع أحداً يفتصب أو يعمل على تقليل المنح والهبات التي خاعها عليهم أسلافك ، ويحكى عن جدى الملك فيليب أن أحد مشاوريه ذكره ذات مرة بما أنزله به رجال الكنيسة من الضرر البالغ بحرماتهم إياه من حقوقه وتطاولهم على سلطته القضائية ، وقال له إن تحمله ذلك إحدى العجائب الكبرى ، فأجابه الملك الصالح إنه يعتقد صحة هذا القول، ولكنه يرى أن الرب أغدق عليه عظيم عطفه ومنحه قسطا كبيراً من الرفاهية، وأنه لهذا يؤثر التنازل عن بعض حقوقه، من أن ينشب أى نزاع بينه وبين رجال الكنيسة المقدسة .

٧٥١ — «وعظم أباك وأمك واحترمها وأطع أوامرها ، واعهد بشئون الكنيسة المالية إلى المعروفين بالاستقامة والذين يحيون حياة الطهر، وافعل ذلك بناء على نصيحة الأفاضل المستقيمين .

٧٥٢ — « وحاذر أن تحارب أى أمير مسيحي إلا بعد تروى ومشاورة عميقتين ، فإن لم يكن ثم مناص منها فكن على ثقة أنك غير منزل مضرة بالكنيسة المقدسة ولا بمن لم يؤذوك ؛ وإذا نشبت الفتنة والمنازعات بين رعاياك^(١) فاعمد إلى تهدئة ذات البين بينهم حالما تقدر على ذلك .

٧٥٣ — « واتمس بين الصالحين رجالا اجعلهم مديري ولاياتك ورؤساءها^(٢) وقتش عن سلوكهم ، واستفسر عنهم وعن أهل بيتك، وتبين

(١) فى نسخة جونز «أنصاليك» .

(٢) فى نسخة جونز ، ص ٥٢٧ «وسواهم من عمالك» .

عما إذا كانت فيهم رذيلة من جشع مفرط أو نفاق أو خداع ؛ وابدل جهلك
لكي تحرر بلدك من كل جور مكروه ، واحقق تحققة قادر ما تلاقاه فيه من
يمين كاذب وهرطقة ، وراع أن تكون نفقات بيتك وسطا .

٧٥٤ — « وأخيرا يا ولدي العزيز أرجوك أن تأمر بترتيل القداسات
على روعي^(١) وبإقامة الصلوات في كافة أرجاء مملكتك ، واجعلني شريكا
لك في كل يد بيضاء تقدمها وخير تفعله . وإني لأمنحك يا ولدي العزيز كل
البركات التي يمكن أن يمنحها الأب الطيب لابنه ، وأرجو^(٢) أن يحفظك
الثالوث المبارك وكل القديسين وأن يحموك من الشر ، وأسأل الله أن يهبك
رحمته لتنفذ على الدوام مشيئته ؛ وليكن الرب موقرا فيك لكي أكون أنا
وأنت معه بعد هذه الحياة الفانية مجدين إلى الأبد . آمين » .

موت لويس

٧٥٥ — بعد أن لقى الملك الصالح ابنه فيليب هذه التعليمات ازدادت علته
سوءا ، فطلب القربان للقدس وتناوله بروح صافية وذهن حاضر كما تجلي في
حينه ، إذ أخذ يردد بدوره المزامير السبعة التي كانوا ينشدونها وهم يدهنونه
بالزيت .

(١) في نسخة جونز، شرحه « ألتس منك يا بني أن تبقى أنا وروحي في ذاكرتك بعد موتي ،
وأن تساعدني بالقداسات والصلوات والشفاعات والصدقات وأعمال الخير » .

(٢) في نسخة جونز، « وألتس من ثالوث الجنة : الأب والابن والروح القدس أن يحفظك
من كل الزور، والافتور تحت الخطيئة » .

٧٥٦ — واقد سمعت ابنه كونت ألتسون يروى أن الملك أخذ — ساعة موته — يهتف بجميع القديسين لمساعدته وخلاصه ، وكان أكثر هتافاً بالقدس چاك مردداً دعاءه الذى استهله بعبارة *Esto Domine* أى يارب كن مخلص شعبك وحاميه .

ثم طلب معونة سنت دنيس دى فرانس ويقول فى صلاته التى كان يرددها « أيها السيد الرب ، هبنا القوة التى نستطيع بها ازدراء متاع هذه الدنيا ونتمكن بها من عدم الاكترات لأية مصيبة » .

٧٥٧ — وسمعت بعدئذ سيدى ألتسون — غفر الله له — يروى أن أباه طلب مساعدة القديسة جنثيف ، وبعدئذ أمر الملك القديس أن يسجوه على فراش من الرماد ، ووضع يديه على صدره على هيئة الصليب ، واتجه ببصره إلى السماء مسلماً روحه إلى بارئها^(١) ، وكان ذلك فى نفس الساعة التى مات فيها السيد المسيح على خشبة الصليب من أجل خلاص العالم .

٧٥٨ — إن موت الأمير القديس لأمر محزن جد يربأن تسكب له الدموع ، فقد رعى مملكته رعاية قدسية خالصة ، وأكثر من إخراج الصدقات ، وأقام فيها كثيراً من المؤسسات الخيرية ؛ ولقد فعل للملك لويس فعل الكاتب الذى يزين كتابه بالذهب واللازورد ، فزين مملكته بما بناه من الأديرة الحسنة ، وبما شاده من بيوت الصدقة الجملة وبيوت الإخوان المبشرين والرهبان الفرنسيسكان وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً .

(١) فى نسخة جونز « إلى بارئه » وفى نسخة ليفريمان « إلى بارئنا » .

٧٥٩ — ترك الملك الصالح لويس هذه الدنيا غداة^(١) عيد القديس الرسول
سنت برناميو عام ١٢٧٠ من تجسد مخلصنا ، وقد وضعت عظامه في نعش ،
وحملت ودفنت حيث اختار موضع لحدّه في كنيسة سنت دنيس في فرنسا .
ومنذ ذلك الحين أظهر الرب في هذا المكان كثيراً من المعجزات الباهرة ،
تمجيداً له واصلاته .

* * *

تقديس لويس

٧٦٠ — جاء بعدئذ رئيس أساقفة روان والأخ جوت دي ساموا
Samois الذي صار إذ ذاك أسقفًا — جاءا بناء على التماس من ملك فرنسا
وصدوعاً لأمر البابا [مارتن الرابع] إلى دنيس دي فرانس ، وأقاما ردها طويلاً
من الزمن يتقصيان فيه خبر حياة الملك القديس وأعماله ومعجزاته ، ثم بعثا في
طلبي ، فمضيت إليهما واستبقيا في مدة يومين ، وبعد أن سألتني أنا وغيري ، بعثا
إلى بلاط رومة بما دوناه وثبت عندهما ثبوت اليقين ؛ فنظر البابا والكرادلة
نظرة الفاحص المتمعن فيما بعثاه إليهم ، فلما تبين لهم عن الملك ما تبين ردوا
إليه حقه ، وأدرجوه في عداد المعترفين بالإيمان الصحيح .

٧٦١ — وحدثت — وكان لا بد أن تحدث — فرحة كبرى شملت كافة

(١) هو يوم ٢٥ أغسطس .

أرجاء مملكة فرنسا ؛ وإنه لشرف عظيم لمن ينسج من ذريته على منوال فعاله
الطيبة ، ويأخذ من لا يقتفى خطاه في أعماله الخيرة ، وأعظم حطة منها تحقيق
بمن يجيئون من صلبه فيرتكبون الإثم ، إذ سيشير إليهم الناس قائلين :
إن الملك القديس الذي جاء منه هذا النسل كان يأنف من ارتكاب مثل هذا
العمل الطائش .

٧٦٢ — بعد أن جاءت هذه الأخبار السارة من رومة حدد الملك يوما
هو غداة عيد القديس بارتلميوس^(٢) لرفع جثمانه المقدس ، فلما رفع الجسد الطاهر
بادر إلى حمله رئيس أساقفة ريمز — عليه رحمة الرب — وابن أخى هنرى
دى فييه Villers رئيس أساقفة ليون إذ ذاك ، ثم تناولته بعدهما أيدي كثيرة
من أساقفة ورؤساء أساقفة كانوا أكثر من أن أسميهم ، وحملوه إلى مقبرة كانت
قد شيدت له .

٧٦٣ — حينذاك وقف الأخ جون دى ساموا وإعظما ، فأشار إلى الأعمال
النابهة التي كنت شاهد بعضها ، وأقسمت على رؤيتي إياها .

٧٦٤ — ثم قال : « وهكذا ترون أن الملك كان أعظم رجل أمين ، شهده
زمانه ، واقد بلغ في وفائه مبلغا عظيما ، حتى لقد أبى أن ينقض عهده مع المسلمين ،
ولم يكن ذلك العهد سوى مجرد قول نطق به لسانه ، ولو كان قد نكث فيه
لربح عشرة آلاف دينار أو أكثر » .

ثم قص عليهم الأخ سيمون كل القصة التي ذكرتها من قبل .

فلما فرغ من خطبته قال لهم : « لا تظنوا أني أكذب عليكم ، فإنني أرى
أمامي رجلاً رأى هذه الأمور بنفسه وشاهدها وأقسم على صحتها » .

٧٦٥ — ولما فرغت الموعظة حمل الملك وإخوته الجسد المقدس إلى
الكنيسة بمساعدة الآخرين من أقاربهم ، توقيراً لمن خلق عليهم كل هذا الشرف
إذا برهنوا على أنهم جديرون به ، كما قلت من قبل .

فلندع الملك القديس أن يسأل الرب أن يمدنا بما نحن في حاجة إليه لنجاة
أرواحنا وأجسادنا . آمين .

...

جوانفيل يراه في المنام ويبنى له مذبحاً

٧٦٦ — سأخبرك بأمور تكبريم منزلة ملكنا المقدس ، أعني بذلك ما رأيته
في نومي عنه ؛ فقد خيل إليّ — في الحلم — أنني أراه أمام كنيسة بجوانفيل
وأحسب أنني أبصرته في فرح عجيب وقلبه يفيض بالبشر ؛ وازدهاني كل الازدهاء
أن أراه في بيتي ، فقلت له : « مولاي ، حين ترحل عن هنا سأجعلك تقيم في
بيت من بيوتى وفي قرية من قرأى اسمها « شيريون » فأجابني ضاحكاً « ياسيد
جوانفيل ، أقسم لك يميناً صادقاً ألزم به لك أنني غير راغب في الرحيل عن
هذا المكان سريعاً » .

٧٦٧ — فلما استيقظت من نومي استسلمت للتفكير ، وبدي لي أنه
بما يرضيه ويرضى الرب لو أسكنته في كنيسة ، ومن ثم شيدت له مذبحاً على

شرف الرب وشرفه ، تقام فيه الصلوات على الدوام له ، وأوقفت على هذا
مبلغاً دائماً .

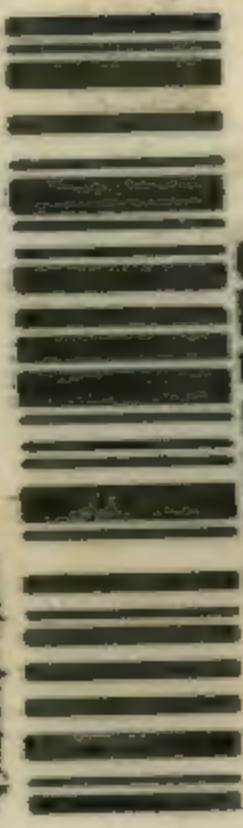
وقد رويت كل هذه الأمور لوريثته وسميته مولاي الملك لويس ، وأظن أنه
فأغل كل ما يرضى الرب ويرضى مليكنا المقدس لويس .

* * *

12.1

1.12.1

БИБЛИОТЕКА АЛЕКСАНДРИНА
на территории Александрии
в районе М. М. М. М. М.



0272876

... 8 ...